القرآن الكريم في الدرس البلاغي المعاصر

إعداد

ثناء نجاتي عياش

المشرف

الأستاذ الدكتور محمد بركات أبو علي

قُدّمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات درجة الدكتوراة في اللغة العربية

كلية الدراسات العليا

الجامعة الأردنية

تشرين أول ١٩٩٦

قرار لجنة المناقشة

نوقشت هذه الرسالة وأجيزت بتاريخ ٢٧/ ١٠ / ١٩٩٦

لجنة المناقشة	التوقيع
الأستاذ الدكتور محمد بركات أبو علي، رئيساً البلاغة	
الأستاذ الدكتور محمود السمرة، عضواً النقد الأدبي	
الأستاذ الدكتور نصرت عبدالرحمن، عضواً نقد وأدب قديم	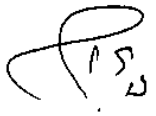
الأستاذ الدكتور عبدالجليل عبدالمهدي، عضواً الأدب العباسي والأيوبي والمملوكي	

قائمة المحتويات

الموضوع	الصفحة
قرار لجنة المناقشة.....	ب
قائمة المحتويات.....	جـ-و
الملخص باللغة العربية.....	ز - ح
مقدمة.....	ط - س
التمهيد.....	١ - ٧

الفصل الأول

دراسات للمعاصرين حول مصنفات القدماء لبلاغة القرآن

١) دراسات تؤرخ لنشأة البلاغة

أ. دراسة الدكتور بدوي طبانة - البيان العربي	٩-١٢
ب. دراسة الدكتور علي عشري - البلاغة العربية	١٢-١٦
ج. دراسة الدكتور عبدالقادر حسين- أثر النحاة في البحث البلاغي	١٦-١٩

٢) دراسات تؤرخ للاعجاز البلاغي

أ. دراسة نعيم الحمصي - فكرة إعجاز القرآن.....	١٩-٢٠
ب. دراسة الدكتور حفني محمد شرف - الاعجاز البياني بين النظرية والتطبيق.....	٢٠-٢٥
ج. دراسة الدكتور محمد بركات أبو علي - في اعجاز القرآن الكريم..	٢٦-٢٩

٣) دراسات مقدمات تحقيق لمؤلفات بلاغة القرآن الكريم

أ. دراسة مقدمة تحقيق كتاب تلخيص البيان في مجازات القرآن - للدكتور محمد عبدالغني حسن	٣٠-٣٢
ب. دراسة مقدمة تحقيق كتاب الجمان في تشبيهات القرآن - للدكتور أحمد مطلوب والدكتورة خديجة الحديثي.....	٣٣-٣٥
ج. دراسة مقدمة تحقيق كتاب بديع القرآن - للدكتور حفني محمد شرف.....	٣٥-٣٨

الموضوع	الصفحة
٤) دراسات حول علم من أعلام بلاغة القرآن	
أ. دراسة الدكتور عبدالفتاح لاشين – بلاغة القرآن في آثار القاضي عبدالجبار.....	٣٩-٤١
ب. دراسة الدكتور مصطفى الصاوي الجويني – منهج الزمخشري في تفسير القرآن وبيان إعجازه	٤١-٤٤
ج. دراسة الدكتور ماهر مهدي هلال – فخر الدين الرازي بلاغياً.....	٤٤-٤٦
٥) دراسات حول بلاغة القرآن وبعض مقاييس البلاغيين.....	٤٧-٥٢
الفصل الثاني	
دراسات للمعاصرين حول بلاغة القرآن	
١. دراسات حول اعجاز القرآن الكريم	٥٤-٦٢
٢. دراسة مصطفى صادق الرافعي-اعجاز القرآن والبلاغة النبوية ..	٦٣-٦٥
٣. دراسة الدكتور عبدالعظيم المطعني – خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية.....	٦٦-٦٩
٤. دراسات لظواهر بلاغية قرآنية	
أ. ألفاظ القرآن الكريم.....	٧٠-٧٨
ب. التكرار في القرآن الكريم.....	٧٨-٨١
ج. الأمثال في القرآن الكريم.....	٨١-٨٤
د. الاستعارة في القرآن الكريم.....	٨٤-٨٧
هـ. التشبيه في القرآن الكريم.....	٨٨-٩٠
و. الفاصلة في القرآن الكريم.....	٩٠-٩٣
ز. السخرية في القرآن الكريم.....	٩٣-٩٧
دراسات حول قضايا مشتركة بين النحو والبلاغة	
أ. العطف في القرآن الكريم.....	٩٨-١٠١
ب. الحذف في القرآن الكريم.....	١٠٢-١٠٣
ج. التقديم والتأخير في القرآن الكريم.....	١٠٤-١٠٥

الموضوع الصفحة

الفصل الثالث

دراسات للمعاصرين حول التفسير البلاغي

مفهومه..... ١٠٧-١٠٩

أولاً: أعلام التفسير

أ. محمد عبده..... ١١٠-١١٢

ب. سيد قطب..... ١١٣-١١٧

ج. محمد المبارك..... ١١٨-١٢٠

د. عائشة عبدالرحمن..... ١٢١-١٢٧

هـ. محمد متولي شعراوي..... ١٢٨-١٣٢

ثانياً: دراسات تفسيرية متفرقة

أ. تحليل لجزء من أجزاء القرآن..... ١٣٣-١٣٧

ب. تحليل لسورة من سور القرآن..... ١٣٧-١٤١

ثالثاً: ظواهر قرآنية والمفسرون المعاصرون

أ. التناسب في القرآن الكريم..... ١٤٢-١٤٧

ب. الحروف المقطعة في القرآن الكريم..... ١٤٧-١٥٠

ج. القسم في القرآن الكريم ١٥١-١٥٤

رابعاً: آراء ومآخذ..... ١٥٥-١٦٠

الفصل الرابع

دراسات للمعاصرين حول بلاغة القصص القرآني

مقدمة..... ١٦٢-١٦٤

١. التكرار في القصص القرآني..... ١٦٥-١٧٦

٢. الشخصية والحدث في القصص القرآني..... ١٧٧-١٨٢

٣. الحذف في القصص القرآني..... ١٨٣-١٨٩

٤. التناسب في القصص القرآني..... ١٩٠-١٩٣

الموضوع الصفحة

٥. قصة يوسف..... ١٩٤-١٩٦
٦. تأملات في الخصائص الفنية في القصص القرآني..... ١٩٧-٢٠٥
الخاتمة
١. النتائج..... ٢٠٦-٢١٥
المصادر ٢١٩-٢٢٤
المراجع..... ٢٢٥-٢٤٠
ABSTRACT..... ٢٤١-٢٤٣

الملخص

القرآن الكريم في الدرس البلاغي المعاصر

إعداد

ثناء نجاتي محمود عياش

المشرف

الاستاذ الدكتور محمد بركات أبو علي

تناولت هذه الدراسة موضوع القرآن الكريم في الدرس البلاغي المعاصر، هادفة إلى إبراز الجهود التي بذلها المعاصرون في هذا المجال، عن طريق توضيح المناهج التي ساروا عليها في أثناء دراستهم لبلاغة القرآن الكريم، وبيان الروافد التي شكلت أفكارهم، واظهار قيمة هذه الدراسات في خدمة القرآن الكريم، وذكر الموضوعات التي طرقوها، وبيان الموضوعات التي ما زالت بحاجة إلى المزيد من الأبحاث لاظهار مواطن الجمال والبلاغة في النص القرآني.

ومن خلال التتبع لدراسات المعاصرين لبلاغة القرآن الكريم، تبيّن أنّ دراساتهم لمؤلفات السابقين كانت الأساس الذي ارتكزوا عليه في دراستهم للفنون البلاغية الواردة في القرآن الكريم، وبخاصة في الاعجاز القرآني إذ شكلوا تصوراً عن مفهوم القدماء للاعجاز في القرآن الكريم، فاللاحق ينتفع بما قاله السابق ثم ينميه بما يتناسب مع ظروف عصره، فدراسات المعاصرين تكمّل الجهود التي بذلها القدماء في هذا المجال. فالمعاصرون درسوا القرآن الكريم وفق أحدث المناهج مستفيدين من نتائج الدراسات التي توصل إليها الباحثون في علم اللغة الحديث وعلم النفس والجمال والتربية والاجتماع والنقد، إذ إن النص القرآني يمتاز بقابليته للتفسير وفق هذه المناهج، شريطة عدم المبالغة في توظيف نتائج هذه الدراسات بحيث لايُحمّل النص القرآني فوق دلالته، وتبدى ذلك جلياً في تحليل المعاصرين للقصة في القرآن الكريم التي كان غرضها دينياً ولكنها قُدمت بشكل فني معجز، صالح لكل زمان ومكان، وهذا يتطلب من الباحث البلاغي مواكبة ما يستجد من دراسات وأبحاث حتى يستطيع تقريب مضمون النص القرآني إلى أبناء عصره، وبخاصة عند التفسير البلاغي للقرآن الكريم.

لقد توصلت هذه الدراسة إلى مجموعة من النتائج منها:

أهمية الالتفات إلى بعض الكتب والتفاسير التي بحثت في الاعجاز القرآني ولم تُدرس بعد دراسة بلاغية، ومنها:

"الإشارة إلى الايجاز في بعض أنواع المجاز" لعز الدين بن عبدالسلام (ت٦٦٠هـ) و"البرهان في علوم القرآن" للزركشي (ت٧٩٤هـ) و"الاتقان في علوم القرآن" و "معترك الأقران في اعجاز القرآن" للسيوطي (ت٩١١هـ) وتفسير أبي السعود (ت ٩٨٢هـ) المسمى ب "ارشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم".

وهذه الدراسة تؤكد قيمة دراسة البيان القرآني في كلية الآداب وفي اطار فروع اللغة العربية؛ ليكون النص القرآني هو الأساس الذي تقوم عليه، ودراسته دراسة أدبية، والاهتمام بتحليله تحليلاً فنياً لابراز مواطن الجمال فيه.

وتؤيد الدعوة إلى تضافر جهود العلماء والأدباء المتخصصين في حقل الدراسات القرآنية؛ لإنشاء دائرة معارف قرآنية، تجمع وتمحص في الدراسات البلاغية القرآنية الموجودة، وتستخلص منها النتائج، وأظن أنّ كلية القرآن الكريم في السودان تقوم بهذه المهمة، كما عرفت من استاذي الدكتور محمد بركات أبو علي، الذي أخبره بذلك رئيس جامعة القرآن الكريم الاستاذ الدكتور أحمد التيجاني.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

قال سبحانه وتعالى ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾[1] وقد يكون من وسائل حفظ القرآن أن يُعنى به الباحثون على مر العصور؛ لبيان مواطن اعجازه التي لاتبلى بمرور الأيام؛ ولهذا كان مقصد الدارسين، وكلهم يجد فيه مادة غزيرة لبحثه على الرغم من اختلاف ثقافاتهم وتخصصاتهم، وسيبقى هكذا إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ولهذا فإنّ خير ما يُقدمه الإنسان من صالح الأعمال، وأفضل ما يسعى إليه هو خدمة القرآن الكريم الذي قال فيه عليه السلام: " أشراف أمتي حملة القرآن" وأسألك اللهم عوناً وتوفيقاً فيما أنا بصدده من النهوض بهذه الدراسة لخدمة القرآن الكريم.

لقد حظي القرآن الكريم على مر العصور بالدراسة والتحليل إذ كان محوراً للعديد من الدراسات التي تحاول فهمه، واستنطاق نصه، ومحاولة اكتشاف الخصائص الأسلوبية التي بهرت الناس في القديم وما زالت تدهشهم وستبقى هكذا؛ لأنّ مظاهر اعجازه تتجدد بتجدد الأيام والدهور.

ولقد أثارت مسألة الإعجاز القرآني حركة تأليف بدأت في القرن الثالث الهجري، ومازالت مستمرة حتى عصرنا الحاضر، وهذا يدل على أهمية هذا الموضوع وحيوية وظيفته فيما يتعلق بعقيدة المسلمين وحياتهم، وقد تتابعت الدراسات والأبحاث التي بحثت في بلاغة القرآن من مختلف التخصصات؛ حيث أقبل علماء اللغة والأدب والنقد والبلاغة والتفسير والكلام على دراسة القرآن الكريم، كل ينظر فيه من زاويته الخاصة. ووفق تخصصه العلمي، لعله يوفق في الكشف عن موطن من مواطن الجمال في القرآن الكريم. وكثرة الدراسات التي تناولت القرآن الكريم بالدراسة والتحليل تعني أن النص القرآني يتمتع بقابلية تعدد القراءات البلاغية وتجددها.

وقد اخترت "القرآن الكريم في الدرس البلاغي المعاصر" ليكون موضوع هذه الدراسة لاظهار الجهود التي بذلها الباحثون المعاصرون في دراستهم لبلاغة القرآن،

---

(1) السورة الحجر، الآية 9.

لنرى كيف درس المعاصرون بلاغة القرآن الكريم وتوضيح المناهج التي ساروا عليها في تحليلهم لبلاغة القرآن الكريم.

ولا أدعي في دراستي هذه أنني سوف استقصي كل الدراسات البلاغية المعاصرة، أو ألمّ بكل أطرافها؛ لأنّ ذلك أمر لايمكن لأحد أن يدّعيه لنفسه ولا يمكن لباحث أن يفيه حقه، وذلك لهذا العدد الهائل من المؤلفات البلاغية التي تناولت بلاغة القرآن منذ القدم، والتي مازالت تترى حتى وقتنا الحاضر؛ ولهذا تحدثت عن التوجهات العامة لهذه المؤلفات مع اختيار نماذج تطبيقية من حين لآخر.

وبدأت هذه الدراسة بتمهيد تمّ فيه الحديث عن أثر الدراسات القرآنية في نشأة البلاغة العربية، التي ساهمت مساهمة فعالة في بناء صرح البلاغة، وارساء قواعدها، وتتضح هذه المساهمة وهذا الدور الفعال منذ نشأة البلاغة[1]، وتحدثت عن الأسباب التي أدت إلى وجود هذه الصلة بينها.وبيثتأثر القرآن الكريم وبلاغته في النهضة الثقافية التي حدثت في بداية هذا القرن من خلال الشيخ محمد عبده ومدرسته في التفسير ومن خلال حركة الإحياء لتراث الأمة ومن ضمنها البلاغة.

تلا ذلك الفصل الأول الذي تمّ فيه الحديث عن دراسات البلاغيين المعاصرين حول مصنفات القدماء لبلاغة القرآن الكريم، ولكثرة هذه الدراسات وتنوعها لجأت إلى اختيار نماذج على اعتبار أنها تمثل شريحة من الشرائح التي تناولت هذا الجانب من البحث البلاغي، وقد اتضح أنّ هذه الدراسات تسير في اتجاهات عدة منها:

دراسات تؤرخ لنشأة البلاغة العربية بشكل عام ومن خلالها تمّ الحديث عن نشأة الاهتمام ببلاغة القرآن، لأنّ القرآن الكريم له أثر مهم في نشأة البلاغة العربية وفي كثير من علوم اللغة العربية. وقيمة هذه الدراسات لما فيها من اشارات تاريخية قد غفل عنها بعض الباحثين في أثناء دراستهم للبلاغة العربية؛ لأنّ عصور الازدهار ونضج العلوم تغري الباحث بدراستها أكثر من البدايات التي ما تزال فيها الأمور غير متضحة المعالم، حيث الاضطراب والخلط بين الموضوعات وغياب المصطلحات، وعلى الرغم من ذلك يبقى بحثها جديراً بالاهتمام؛ لأنها تطلعنا على التطور الذي طرأ على البلاغة العربية منذ نشأتها، كما تبين بجلاء مدى استفادة اللاحقين من جهود السابقين.

---

(1) أحمد مطلوب: ١٩٦٤، البلاغة عند السكاكي، مكتبة النهضة، بغداد. ٩٤.

والنوع الثاني من الدراسات تتمثل في الموضوعات التي أرّخت للاعجاز في القرآن الكريم، باختيار أبرز الأعلام الذين تحدثوا عن الإعجاز في القرآن الكريم والتحليل لما قالوه. وتبيّن المنهج الذي ساروا عليه في بيانهم لوجوه الاعجاز في القرآن الكريم.

والنوع الثالث من الدراسات التي اخترت الحديث عنها كانت مقدمات التحقيق لبعض الكتب التي تولت البحث في بلاغة القرآن الكريم لما امتازت به هذه المقدمات من العمق في التحليل ولما ضمت هذه الكتب نفسها من قضايا بلاغية قرآنية اذ كان مؤلفوها من الأدباء لنرى كيف نظر هؤلاء الى بلاغة القرآن الكريم بعد أن عرفنا نظرة النحاة والمتكلمين إلى الاعجاز القرآني من خلال الدراسات الأولى والثانية.

وأخيراً توقفت عند الدراسات التي بحثت في جهود علم من الأعلام الذين درسوا بلاغة القرآن الكريم، وقد اخترت ثلاثة من الأعلام في عصور مختلفة وهم: القاضي عبدالجبار الأسد آبادي(-٤١٥هـ) وهو من علماء المعتزلة الذين بحثوا في بلاغة القرآن الكريم، ثم الزمخشري (-٥٣٨هـ) باعتباره من أبرز المفسرين الذين فسروا القرآن الكريم تفسيراً بلاغياً وبعد ذلك تحدثت عن جهود الرازي (- ٦٠٦هـ) لأنه جمع بين التأليف في البلاغة والتفسير للقرآن الكريم.

ثم تحدثت عن دراسات المعاصرين حول بعض المقاييس التي وضعها البلاغيون باعتبارها مواصفات لحسن الكلام وقبحه، وكأنهم بذلك أرادوا تقليد النحاة الذين نجحوا في تقعيد النحو، ولمّا كان القرآن الكريم في نهاية الجودة والحسن البياني ويمثل المثل الأعلى للكلام الفصيح، تساءلت عن مدى انسجام بعض مقاييس البلاغيين مع بلاغة القرآن الكريم.

وأطلت الوقوف عند الدراسات البلاغية المعاصرة التي بحثت في ظاهرة بلاغية قرآنية محددة، ولكثرتها وتنوعها اخترت الدراسات التي شعرت أنّ فيها تناولاً جديداً لما قاله مؤلف سابق، أو توصلت إلى نتيجة مهمة، أو صححت خطأ وقع فيه أحد الباحثين، وحاولت التنويع في الاختيار بحيث شمل أكبر عدد ممكن من الفنون البلاغية القرآنية.

ومن المباحث القرآنية التي يهمنا معرفة وجهة نظر المعاصرين فيها هي المباحث المشتركة بين النحو والبلاغية، وهذه المباحث أشبعها النحاة بحثاً ودراسة فعرضت لها من وجهة نظر البلاغة، وأبرزت مدى استفادة المعاصرين من نتائج دراسات العلوم الأخرى.

ومن خلال هذه الفصل عرفت كيف نظر المعاصرون إلى بلاغة القرآن الكريم ولاحظت مقدار التدرج الذي حدث في الفكر البلاغي العربي.

أمّا الفصل الثالث فقد خصصته للحديث عن دراسات المعاصرين حول التفسير البلاغي للقرآن الكريم، وفيه تحدثت عن مفهوم التفسير البلاغي للقرآن الكريم ولقلة الدراسات البلاغية المعاصرة التي خصصت لبحث التفسير البلاغي المعاصر، قمت بالنظر في التفاسير البلاغية المعاصرة نفسها، لاستخراج أبرز الخطوط العريضة التي سار عليها المفسرون المعاصرون، وبيان بمَ تميز هذا التفسير عن غيره من التفاسير.

وتحدثت عن أبرز أعلام المعاصرين الذين قاموا بتفسير القرآن الكريم، ومنهم: سيد قطب، ومحمد المبارك، وعائشة عبدالرحمن، ومحمد متولي شعراوي.

وتوقفت عند المحاولات المتفرقة التي قام من خلالها باحثون معاصرون بتحليل أجزاء من القرآن الكريم وبعضهم اختار سورة فحللها، وذكرت نماذج لما قالوه كي تتضح الفكرة وتتجلي.

وعرضت لبعض القضايا القرآنية التي فسرها المعاصرون بطريقة جديدة، وأخيراً تطرقت لبعض المآخذ التي وُجهت للتفسير البلاغي والردود التي قيلت حوله.

وفي الفصل الرابع تحدثت عن دراسات المعاصرين حول بلاغة القصص القرآني وبيّنت الغاية البلاغية من لجوء القرآن الكريم إلى القصة للتعبير عن مضمونه وبحثت في حقيقة التكرار في القصة القرآنية، من حيث بيان أسبابه ومظاهره، وعرضت لنماذج مما قاله المعاصرون لتفسير هذه الظاهرة.

وبحثت في كيفية توظيف القرآن لبعض مقومات القصة من حيث الشخصيات والأحداث والحوار والزمان والمكان على الرغم من الاختلاف البيّن بين القصة بالمفهوم الأدبي، والقصة بالمفهوم الديني.

وتوقفت عند الحذف في القصة القرآنية التي تميزت بكثرة المشاهد المحذوفة، وبيّنت الأغراض البلاغية التي حققها القرآن الكريم من الحذف. وهذا بدوره قادني إلى الحديث عن التناسب في القصة القرآنية من حيث اختيار اللقطات المعبرة. والتوقف عندها.

وقد استعرضت جانباً من الدراسات البلاغية المعاصرة التي درست قصة يوسف التي كانت من أبرز القصص القرآنية التي نالت اهتماماً من قبل الباحثين بدراستها وتحليلها، لما امتازت به من خصائص ميزتها عن غيرها من القصص القرآنية.

حتى لايطغى الجانب النظري على هذه الدراسة، عرضت نماذج للتحليل البلاغي الذي قام به المعاصرون لبعض المشاهد في القصص القرآني وتوقفت عند بعض الخصائص الفنية التي امتازت بها القصة في القرآن الكريم. وتلا ذلك عرض لنتائج هذه الدراسة.

وتطلبت هذه الدراسة ارجاع الأقوال والآراء التي اعتمدت عليها الى أصولها، وهذا أدى إلى الاتصال بأمهات كتب البلاغة العربية والتفاسير المختلفة التي فسرت القرآن الكريم.

ومن أهم المصادر والمراجع التي اعتمدت عليها هذه الدراسة، ثلاث رسائل في اعجاز القرآن للرماني (-٣٧٦هـ) والخطابي (-٣٨٨هـ) وعبدالقاهر الجرجاني (-٤٧٤هـ) ومجاز القرآن لأبي عبيدة (-٢٠٨هـ) وفي ظلال القرآن الكريم لسيد قطب ومؤلفات الدكتورة عائشة عبدالرحمن، والدكتور عبدالقادر حسين والدكتور محمد بركات أبو علي والدكتور صلاح الخالدي التي بحثت في بلاغة القرآن الكريم.

بالاضافة إلى ما ورد في قائمة المصادر والمراجع من المؤلفات التي بحثت في بلاغة القرآن الكريم.

أما المنهج الذي اتبعته في اختيار الدراسات فكان يتمثل في اختيار الدراسات ذات الصلة المباشرة بدراستي، وتجنبت الدراسات البلاغية المعاصرة التي شعرت أنها لن تضيف جديداً عما قاله السلف، وإذا ما تعددت الدراسات التي تبحث في موضوع واحد كنت اعتبر الدراسة التي تتحدث عن الاعجاز البلاغي والبياني الدراسة المحورية، واستعنت بما ورد في الدراسات الأخرى تتميماً للفائدة.

وفيما يتعلق بالموضوعات التي لم تُخصص دراسة مستقلة لبحثها، كنت أقوم بدراسة ما ورد في الدراسات البلاغية المعاصرة التي تناولتها بالبحث والتحليل في أثناء حديثها عن بلاغة القرآن الكريم بشكل عام، وكونتُ تصوراً عن دراسة المعاصرين لهذه الموضوعات ثم عرضت لها في الفصل المخصص لها ولهذا جعلت الظاهرة القرآنية المدروسة عنواناً فرعياً في الفصل. كما حدث في أثناء حديثي عن بلاغة الألفاظ في القرآن الكريم، والحروف المقطعة في القرآن الكريم، وعن بلاغة القصص في القرآن الكريم.

ولمّا وجدت قلة في الدراسات البلاغية المعاصرة التي بحثت في التفسير البلاغي للقرآن الكريم، عدت إلى التفاسير البلاغية المعاصرة، وقمت باستخراج الخطوط العريضة التي سار عليها المفسرون المعاصرون في أثناء تفسيرهم للقرآن الكريم؛ ولهذا قمت بوضع اسم العلم الذي تولى التفسير البلاغي للقرآن الكريم عنواناً في هذا الفصل؛ لأن حديثي تركز على إبراز جهوده في التفسير، ثم تتبعت عدداً من الظواهر القرآنية وبينت كيف درسها المفسرون المعاصرون ولمّا كان الهدف ابراز كيفية دراسة المعاصرين للظاهرة نفسها وليس الهدف إبراز جهد علم من أعلام التفسير اعتبرت الظاهرة نفسها عنواناً وتحدثت بعد ذلك عن جهود أكثر من باحث.

ومما سبق ذكره اتضح للقارئ لهذه الدراسة أنها كانت تسير في منهجين عند ترتيب العناوين في الفصول، وهذا يعود لطبيعة كل فصل، إذ فرض كل فصل منهجاً معيناً للسير عليه.

وقد نجد حديثاً عن دراستين لباحث واحد؛ وذلك عائد لتخصصه في البحث البلاغي من جهة، ولتخصيصه دراسة مستقلة لمبحث بلاغي من مباحث القرآن الكريم، وكنت أفضل الدراسات التي تخصصت في بحث ظاهرة قرآنية، في كتاب مستقل على الدراسات التي تحدثت عن الظاهرة نفسها ضمن حديثها عن بلاغة القرآن الكريم بشكل عام؛ لاعتقادي أن الدراسة المستقلة للظاهرة تعطيها حقها من الدراسة والتحليل أكثر من الدراسة الشاملة.

وقد حاولت التنويع الجغرافي قدر المستطاع في اختيار الدراسات البلاغية المعاصرة التي بحثت في بلاغة القرآن الكريم، بحيث اخترت دراسات لباحثين معاصرين من جمهورية مصر العربية، وكان لهم النصيب الأكبر.

ومن بلاد الشام تم الحديث عن دراسات لمحمد المبارك ونعيم الحمصي ومحمد الحسناوي ومحمد بركات أبوعلي ومحمد علي أبو حمدة، واستفدت من جهود صبحي الصالح وزاهية الدجاني ومحمود البستاني وصلاح عبدالفتاح الخالدي وسليمان الطروانة وفضل حسن عباس وعودة أبوعودة وزياد خليل الدماغين، وحسين أحمد الدراويش وأحمد نوفل.

ومن العراق اخترت دراسات لأحمد مطلوب وخديجة الحديثي ومحمد جابر فياض وماهر مهدي هلال وأحمد فتحي رمضان وكاظم الظواهري، واستفدت من جهود عمر الملا حويش وواجدة مجيد الأطرقجي وأحمد مطلوب ورشدي عليان قطحان وعبدالرحمن الدوري وإبراهيم السامرائي ومهدي صالح السامرائي ومحسن عبدالحميد ومحمد علي الصغير ومحمد طه الباليساني.

ومن بلاد المغرب استفدت من جهود التيجاني بوريقة والتهامي نقرة وحمادي صمود.

ومن المملكة العربية السعودية استعنت بجهود محمد بن سعد الدبل ويحيى عبدالله المعلمي ومحمد بن محمد أبو شهبة.

وكان لتوجيهات الاستاذ الدكتور محمد بركات أبو علي أكبر الأثر في اتمام الدراسة، بفضل ملاحظاته وارشاداته التي سددت خطاي، وأعانتني على اكمال هذه الدراسة، فله جزيل الشكر والامتنان.

وأخيراً يُسجّل الشكر والعرفان بالجميل إلى الأساتذة الأجلاء: محمود السمرة ونصرت عبدالرحمن، وعبدالجليل عبدالمهدي الذين سيتولون مناقشة هذه الرسالة سائلة الله -عز وجل- أن أوفق للأخذ بآرائهم والاستفادة من توجيهاتهم وملاحظاتهم.

وأحمده سبحانه وتعالى أن يسر لي البحث في موضوع جليل استمد عظمته لصدوره عن كلام رب العالمين ﴿الذي لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد﴾[1] .

---

(1) السورة فصلت، الآية ٤٢.

التمهيد

منذ أن لامست آيات القرآن الكريم مسامع العرب، وهم يدركون أنه نزل بلسانهم وبطرائقهم في التعبير، لكنه وإن كان من جنس كلامهم، إلاّ أنه سما عن كلامهم في معارج الاعجاز، وقد تحداهم الله –ﷻ– أن يأتوا ولو بمثل سورة منه فعجزوا، وهم قد أقرّوا بهذا الاعجاز، لقصورهم عن الاتيان بمثل ما جاء به القرآن[١] على الرغم من أنهم أصحاب جدل ولدد كما وصفهم –ﷻ–[٢] ، إلا أنّ التاريخ لم يروِ رواية واحدة، تفيد أنّ واحداً منهم صدرت منه كلمة تذم في بلاغة القرآن الكريم مع كثرة ما راموا من أكاذيب[٣] ، بل على العكس من ذلك شهدوا له بالتفوق، وكلنا يذكر قصة الوليد بن المغيرة، وهم كانوا يدركون قصورهم عن الوصول إلى مستوى بلاغته، ولذلك قرر بعض زعمائهم صرف الناس عن الاستماع إلى القرآن الكريم كما أخبرنا –ﷻ– ﴿وقال الذين كفروا لاتسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون﴾[٤] وكان هذا شاهداً على عجزهم وثبوت اعجاز القرآن الكريم، فالبيان القرآني كان سبباً في اسلام بعضهم وهذا يبين قوة تأثير القرآن الكريم في وجدانهم وعقولهم.

ولا عجب أن يكون الشعراء من أسرع القوم الذين بهروا بأسلوب القرآن الكريم حتى ترك بعضهم الشعر، بعد أن كان على القمة ادراكاً منهم للتفاوت بين ما يقولون وبين ما يتحداهم به القرآن[٥] . وهذا يبين أنّ ادراك العرب لاعجاز القرآن الكريم – في بادئ الأمر كان ادراكاً فطرياً.

ولم يحاول العرب في ذلك الوقت المبكر البحث في مظاهر اعجاز القرآن الكريم، أو أين يكمن اعجازه، وما أسرار هذا الإعجاز؛ لانشغالهم بفهم معانيه، وتطبيق أحكامه،

---

(١) تمام حسان، ١٩٨٢، الأصول: دراسة ابستيمولوجية للفكر اللغوي عند العرب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٣٠٥.

(٢) ينظر قوله تعالى: " وتنذر به قوماً لدا. وقوله تعالى "ما ضربوه لك إلا جدلاً بل هم قوم خصمون".

(٣) محمد محمد أبو موسى، ١٩٨٤، الاعجاز البلاغي: دراسة تحليلية لتراث أهل العلم، ط١، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٨.

(٤) السورة فصلت، الآية ٢٦.

(٥) عبدالرحمن منصور، اتجاهات النقد الأدبي من الجاهلية الى نهاية القرن الرابع الهجري، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، ٥٠.
ومحمد عبدالمنعم خفاجي وعبدالعزيز شرف، ١٩٩٢، البلاغة العربية بين التقليد والتجديد، ط١، دار الجيل، بيروت، ٢٩، ٣٨.

لصلة ذلك بعقديتهم، ولوجود الرسول –عليه السلام– والصحابة بين ظهرانيهم فكانوا يلجأون إليهم لتوضيح ما غمض عليهم، ولا ننسى أنّ ملكاتهم اللغوية ما زالت سليمة، ولم تفسد بسبب اختلاطهم بأبناء البلدان المفتوحة؛ ولهذا لم تشهد هذه المرحلة المبكرة مؤلفات بلاغية في بلاغة القرآن واعجازه؛ لأنهم لم يكونوا بحاجة إلى ذلك.

وقد تطور الأمر بعد انتشار الاسلام، ودخول غير العرب في الاسلام، وأدت حاجتهم إلى تعلّم أحكام دينهم الجديد وفهمها للعمل بها، أدت إلى بروز المؤلفات التي حاولت تقريب مضمون القرآن الكريم لهؤلاء المسلمين، ثم أصبح أمر البحث في بلاغة القرآن الكريم، واجباً دينياً للدفاع عن القرآن الكريم، بعدما تعرض لحملات طعن مختلفة فكان لابد من التصـــــدي لهؤلاء الطاعنين والرد عليهم، واظهار مواطن اعجازه التي بها تحدى الله –سبحانه وتعالى– الناس كافة.

ولهذا يمكننا القول إن قضية الاعجاز القرآني نشأت في الأساس نشأة بلاغية؛ لأنّ علماء الكلام الذين بحثوا في قضية الاعجاز القرآني، كانوا يتعرضون في مؤلفاتهم لبعض الملاحظات والأفكار البلاغية، وهذه الملاحظات بمرور الأيام أصبحت محوراً لمؤلفات بلاغية مستقلة، لابل إنّ كتب الإعجاز القرآني تعد كتب بلاغة أيضاً.

فكانت دراساتهم أحسن مصدر للبلاغة، وأجل مورد لمن أراد أن يتذوق القرآن ويفهم البيان[١] . واهتم كذلك علماء الكلام بمعرفة البلاغة حتى يتمكنوا من الابانة عن أفكارهم، والتصدي لمن يحاولون الطعن في القرآن الكريم؛ ولهذا لانستغرب أن يعد الدكتور بدوي طبانة، علم البيان من العلوم الإسلامية التي نشأت بتأثير الدين الجديد؛ لأنه يعمل على إبراز ما في القرآن الكريم من وجوه الجمال التي يمتاز بها[٢]. وفي هذه المرحلة لم يعد الدفاع عن الاسلام يعتمد على الحماس وقوة العقيدة، بل لابد من مقارعة الحجة بالحجة. وانعكس ذلك على البلاغة.

ونظرة إلى عناوين الكتب التي أُلفت في مختلف العصور تُظهر مدى ارتباطها بالنص القرآني ومنها: معاني القرآن،ومجاز القرآن،وتأويل مشكل القرآن، ودلائل اعجاز

---

(١) بدوي طبانة، ١٩٦٨، البيان العربي: دراسة في تطور الفكرة البلاغية عند العرب – مناهجها – مصادرها – الكبرى، ط٤، مكتبة الأنجلو المصرية، ٣١.

(٢) السابق، ١٨، ٢٣.

القرآن، والطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الاعجاز، والتبيان في علم البيان المطلع على اعجاز القرآن.... إلخ. وكان مؤلفو هذه الكتب يمثلون مختلف الاتجاهات والانتماءات الفكرية السائدة في ذلك الوقت من علماء كلام إلى أدباء ومفسرين وأهل سنّة... الخ أي شغلت بلاغة القرآن الكريم علماء المسلمين كافة.

وأمّا صلة علم التفسير بالبلاغة فهي صلة قوية، وبدأت التأثير منذ فترة مبكرة في مرحلة نشوء البلاغة؛ لأنّ المفسرين في أثناء سعيهم لتقريب غايات القرآن الكريم ومقاصده إلى أذهان الناس، وتوضيحها ليسهل فهم مرامي القرآن الكريم فهماً صحيحاً، وكي يستنبطوا الأحكام من القرآن الكريم عكفوا على دراسة أسلوب القرآن، فتطرقوا إلى بحث الأمر والنهي والاستفهام والنفي والحقيقة والمجاز[١] وفي أثناء ذلك توصلوا إلى كثير من الملاحظات البلاغية، وقد اتكأت المؤلفات البلاغية المتخصصة فيما بعد على هذه الملاحظات وطورت ما ورد فيها.

ولابد للمفسر حتى يستطيع القيام بوظيفته من الاطلاع على علوم اللغة العربية، لينفذ إلى أسرار اعجاز القرآن الكريم وتوجيه الآيات التي لايمكن حملها على الظاهر، وقد شعر المفسرون بأهمية البلاغة لهم فأخذوا يضعون لدراساتهم القرآنية مقدمات بلاغية، أو يخوضون في مباحثها حينما كانوا يتحدثون عن الآيات وبلاغتها.

ولهذا اشترط في المفسر معرفة فنون البلاغة؛ لأنّ معرفة معاني القرآن الكريم لاتتكشف للمفسر على حقيقتها إلا إذا كان متمرساً بأساليب البيان، بصيراً بكل دقائقها وعناصرها[٢]؛ ولهذا صار الشيوخ لايقدمون على تدريس كتب التفسير إلا بعد أن يلم طلابهم بطرف من كتب البلاغة وفنونها[٣] ونحن نذكر أن يحيى بن حمزة العلوي ألف كتابة "الطراز" ليكون عوناً لمن شرع في قراءة "الكشاف".

ولا يمكننا اغفال أثر الأصوليين في البحث البلاغي حيث كانوا -مع المفسرين- من أهم المؤثرات التي رفدت البحث البلاغي. خلال القرون السبعة الأولى بعد الهجرة،

---

(١) أحمد مطلوب، ١٩٦٧، القزويني وشروح التلخيص، ط١، منشورات مكتبة النهضة، بغداد، ٢٠٤.

(٢) عبدالعزيز عتيق، ١٩٧٠، تاريخ البلاغة العربية، دار النهضة العربية، بيروت، ٢٦٢.

وشوقي ضيف، ١٩٦٥، البلاغة تطور وتاريخ، دار المعارف مصر، ٣٢١.

(٣) أحمد مطلوب، ١٩٧٣، مناهج بلاغية، ط١، وكالة المطبوعات، الكويت، ٥٤-٥٥.

وكذلك نجد في كتب الأصول بحوثاً مستفيضة عن الخبر والإنشاء والحقيقة والمجاز[١] وعبرّ السكاكي عن هذا الأثر بقوله: "بل تصفح معظم أبواب أصول الفقه من أي علم هي؟ ومن يتولاها؟"[٢] وهذا يؤكد قوة الصلة بين البلاغة وعلم الأصول.

وكان البلاغيون يحاولون التوفيق بين ما استنبطوه من قوانين ومقاييس لضبط علم البلاغة، وبين ما ورد في القرآن الكريم من معان وصور، من ذلك قولهم: إنّ التشبيه يقتضي أن تكون الصفة في المشبه به أوضح منها في المشبه. وهذا يصطدم مع التشبيه الوارد في قوله تعالى: ﴿الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح﴾[٣].

لأنه يلزم أن يكون نور المصباح أوفى وأعظم من نور الله –ﷻ– وهذا لاينسجم مع التصور الاسلامي[٤] ، ولمّا أحسوا بهذا الاصطدام قسموا التشبيه إلى قسمين: قسم يقصد منه المبالغة وفيه يجب أن تكون الصفة في المشبه به أوضح منها في المشبه. والقسم الثاني يقصد منه مجرد الجمع بين شيئين في مطلق الصورة أو الشكل او اللون[٥]. وبذلك وفقوا بين ما استنبطوه وما ورد في القرآن الكريم.

وربما كان الباعث وراء ادخال مفهوم القرينة في تعريف المجاز: "بأنه الكلمة المستعملة في غير ما وُضعت له في اصطلاح به التخاطب على وجه يصح مع قرينة عدم ارادته"[٦] كان باعثاً دينياً، فالقرينة وسيلة لنفي صفة الكذب عن المجاز.

ولم يكن الباعث الديني وحده وراء اهتمام المسلمين بمعرفة اعجاز القرآن الكريم، إذ رأينا النقاد – من غير علماء الاعجاز ورجال التفسير والأصول– يتلمسون نواحي الجمال في أسلوب القرآن ونظمه وتشبيهاته واستعاراته، وصارت الآيات القرآنية في مقدمة الشواهد الأدبية في كتب النقد والبيان العربي، ووضعوا النص القرآني بازاء النص الأدبي، مقارنين بين النصين، فاستخدموا وسائل النقاد ومقاييسهم في اثبات ذلك؛ ولهذا

---

(١) أحمد مطلوب ، ١٩٨٢، البحث البلاغي عند العرب، منشورات دار الجاحظ للنشر، بغداد، ٣٠، ٣٥.

(٢) السكاكي، مفتاح العلوم، منشورات المكتبة العلمية الجديدة، بيروت، ١٩٩.

(٣) السورة النور، الآية ٣٥.

(٤) مهدي صالح السامرائي، ١٩٧٧، تأثير الفكر الديني في البلاغة العربية، ط١، المكتب الاسلامي، دمشق، ١١٣.

(٥) التفتازاني، المطول على التلخيص، ١٣٣٠هـ، مطبعة أحمد بن كامل، استنابول، ٣٣٤–٣٣٥.

(٦) القزويني، الايضاح في علوم البلاغة، شرح وتعليق وتنقيح محمد عبدالمنعم خفاجي، ١٩٨٤، ط٢، مكتبة الكليات الأزهرية، مصر، ١٢/٥–١٣.

اختلطت مقاييس النقد والدراسات القرآنية[١]؛ ولهذا أصبح للقرآن هدف أدبي لأنه المثل الأعلى في البلاغة والفصاحة، فلا بد من معرفة بمَ يتميز عن غيره من الكلام.

ولهذه الأسباب مجتمعة كان القرآن الكريم الشغل الشاغل للباحثين على مر العصور وسيبقى هكذا إلى أن يرث الله –سبحانه وتعالى– الأرض ومن عليها؛ ولهذا قيل: البلاغة العربية من العلوم التي لم تحترق ولم تنضج؛ لأنها أحد مفاتيح الاعجاز القرآني والجمال الأدبي؛ ولهذا ستبقى الحاجة للبلاغة قائمة وماسة، فالعرب وغيرهم من دارسي اللغة العربية وآدابها بحاجة إلى إتقان هذا المعيار البلاغي أو الإلمام به[٢]؛ ولهذا سيكون للبلاغة أكبر الأثر في حياتنا على مر العصور لارتباطها بالقرآن الكريم الذي تعهد –سبحانه وتعالى– بحفظه. والبلاغة إحدى الوسائل التي نستعين بها لفهم مضامين القرآن الكريم.

وشاءت الأقدار أن يبقى القرآن الكريم مشعل هداية في حياة المسلمين على مر العصور، وكما ساهم الدين الاسلامي الذي عماده القرآن الكريم. في إحداث ثورة شاملة في حياة الأمة العربية في الماضي، ساهم أيضاً في إقالة هذه الأمة من عثرتها، وايقاظها من سباتها الذي جعلها تنقطع عن أسباب العلم والمعرفة لفترة من الزمن. ونهض بهذه المهمة أعلام أفذاذ حملوا على كاهلهم مسؤولية النهوض بحال الأمة الفكرية. فرنوا ببصرهم نحو كتب التراث للاستفادة مما ورد فيها. وكانت الكتب البلاغية من ضمن تلك المؤلفات فقاموا بتحقيقها ونشرها ودراسة ما فيها وإبراز جهود القدماء في هذا المجال؛ لتكون المنارة التي نهتدي بضوئها. وكانت الكتب التي تحدثت عن بلاغة القرآن في طليعتها.

ورأى فريق آخر أنّ نهضة هذه الأمة لن تكون إلا بما صلُح به حالها أول الأمر أي بالقرآن الكريم، فلا بد من دراسة معانيه، وتأمل ما ورد فيه، وهذا يتطلب تفسيره بطريقة عصرية تتناسب مع ظروف عصرنا، لتقوية صلتنا به، فجاء محمد عبده الذي رأى أنّ القرآن الكريم أحدث ثورة كبرى في حياة المسلمين فيما مضى، وتابعه في ذلك تلاميذه وشكلوا مدرسة في التفسير جعلت من القرآن الكريم منهجاً تربوياً للأمة الاسلامية؛ ليبعث مقوماتها، ويثير أمجادها، ويطالب بالتحلي بما في القرآن الكريم من

---

(١) عبدالرحمن منصور، اتجاهات النقد الأدبي، ٩٣، ١٢٦.

(٢) محمد بركات أبوعلي، ١٩٨٣، البلاغة عرض وتوجيه وتوضيح وتفسير، ط١، دار الفكر للنشر والتوزيع، عمان، ٨.

الشجاعة، والجرأة بالرأي ومحاربة الظلم والتعاون على الحق[١] ومثل هذه الأمور لايمكن للقارئ العادي أن يدركها بسهولة فلا بد من تيسير ايصالها إليه، وتفسيرها له، حتى تصبح قراءته للقرآن الكريم ذات مغزى، فلابد من التطرق إلى بلاغة القرآن الكريم، والأساليب التي لجأ إليها القرآن الكريم للتعبير عن مضامينه، ولا بد من تجنّب الأخطاء التي وقع فيها القدماء في أثناء تفسيرهم للقرآن الكريم.

وبما أنّ بعض أبناء العصر الحاضر –لضعفهم العام باللغة والبلاغة– لم يعد لديهم القدرة على تذوق بلاغة القرآن الكريم، وإدراك مظاهر اعجازه، ضاعف من المسؤولية الملقاة على عاتق الباحثين الذين عليهم الأخذ بيد القارئ ومساعدته للارتقاء بذوقه عن طريق بيان ما في القرآن الكريم من بلاغة، فأخذت الدراسات التي تبحث في بلاغة القرآن الكريم تترى وستبقى هكذا إلى ما شاء الله.

ثم حمل الراية أمين الخولي الذي نادى بالدراسة الأدبية للنص القرآني؛ لاظهار مواطن الجمال فيه؛ لأنّ الاتجاه الأدبي أقدر من غيره على إبراز مواطن الاعجاز في القرآن الكريم، وجاء تلاميذه من بعده وساروا على نهجه، وكان من أبرزهم الدكتورة عائشة عبدالرحمن التي طبقت هذا المنهج في تفسيرها لقصار السور في كتابها "التفسير البياني للقرآن الكريم" الذي تكون من جزئين.

ولا يمكنني اغفال دور سيد قطب في هذا المجال إذ كان له نظرات مهمة في بيان الاعجاز البلاغي في القرآن الكريم، فقد توصل إلى نظرية التصوير الفني ومن خلالها فسر لنا الاعجاز القرآني تفسيراً جمالياً فنياً.

ثم تتابعت دراسات المعاصرين كل واحد منهم ينظر إلى القرآن الكريم ليظهر مواطن الاعجاز فيه، حسب مواهبه وامكانات عصره، مستفيداً من امكانات البحث المتيسرة في عصرنا الذي تميز بكثرة المؤلفات البلاغية التي أُلفت به، حتى أصبح القرن الرابع عشر الهجري يُعَد عصر الاعجاز الثاني على اعتبار أنّ القرن الخامس الهجري يمثل العصر الذهبي الأول[٢]؛ لكثرة المؤلفات البلاغية في هذين القرنين؛ ولتعدد الاتجاهات الفكرية والمذهبية التي نظرت في بلاغة القرآن الكريم.

---

(١) عبدالله محمود شحاته، ١٩٨٤، منهج الامام عبده في تفسير القرآن، مطبعة جامعة القاهرة، المقدمتر ١٩٥ وعبدالمنعم النمر، ١٩٨٥، علم التفسير، ط١، دار الكتاب المصري ودار الكتاب اللبناني، ١٣٠، ١٣٥.

(٢) صلاح عبدالفتاح الخالدي، ١٩٨٩، البيان في اعجاز القرآن، دار عمار، عمان، ١٠٨، ١٢١.

وبعد أن نظر المعاصرون في دراسات القدماء لبلاغة القرآن الكريم، رأوا أن يتمموا ما بدأ به القدماء، عن طريق اختيار قضية بلاغية لم تنل حظها من الاهتمام والدراسة، أو تيسير عرض بعض المباحث البلاغية، وتقريبها لأبناء عصرنا عن طريق تخليصها مما علق بها من كثرة التفاصيل، وتشعب الأراء، والاغراق في الفلسفة أو النحو او غير ذلك مما كانت تزدحم به بعض كتب البلاغة في القديم والاستفادة من نتائج آخر الدراسات في علوم اللغة والجمال والنفس والاجتماع في ايضاح قضية بلاغية وتسليط الأضواء عليها.... إلخ.

وما ستقوم به هذه الدراسة هو العرض لأبرز التوجهات العامة التي سار عليها المعاصرون في أثناء دراستهم لبلاغة القرآن الكريم، لنرى مقدار التطور الذي حدث في التفكير البلاغي العربي، وكذلك معرفة بِمَ تميّز المعاصرون في أثناء بحثهم لبلاغة القرآن الكريم، وما الاضافات التي أضافوها مما سنجده في ثنايا هذه الدراسة.

الفصل الأول

دراسات للمعاصرين

حول مصنفات القدماء لبلاغة القرآن الكريم

الفصل الأول

دراسات المعاصرين حول مصنفات القدماء لبلاغة القرآن الكريم

لقد تعددت الدراسات البلاغية المعاصرة التي نظرت في دراسات القدماء لبلاغة القرآن الكريم؛ ولكثرتها ولتنوعها، لجأت إلى اختيار نماذج منها على اعتبار أنها تمثل شريحة من الشرائح التي تناولت هذا الجانب من البحث، وهذه المرحلة من التأليف لابد منها حتى يتسنى لنا الاطلاع على الفكر البلاغي العربي وتطوره عبر العصور، وبعد الاطلاع على هذه المؤلفات قمت بتقسيمها إلى أقسام عدة سأعرض لها في هذا الفصل.

دراسات تؤرخ لنشأة البلاغة ٤٧٢٩٠٤

وهدف هذه الدراسات التتبع التاريخي لنشأة البلاغة وأثر القرآن الكريم في ذلك، ولم تخصص هذه الكتب لبحث بلاغة القرآن الكريم بشكل خاص. ولكنها عرضت لهذا الجانب إذ لايمكننا فعل غير ذلك؛ لأنه لايمكننا الفصل بينهما؛ لأنّ القرآن الكريم كان هو الأساس الذي انبثقت عنه الدراسات البلاغية. وميزة هذه الكتب أنها تتحدث عن مراحل التطور التي مرت بها البلاغة حتى أصبحت علماً، ودور القرآن الكريم في ذلك، وتبين المناهج التي سار عليها القدماء وتوجهاتهم العامة. وقد تبرز دور باحثين في البلاغة لم تُسلط الأضواء على جهودهم. ومن هذه الدراسات:

دراسة الدكتور بدوي طبانة البيان العربي:

وهي دراسة في تطور الفكرة البلاغية عند العرب، مناهجها، ومصادرها الكبرى. وكما هو واضح من العنوان، فقد قام بتتبع الخطوات التي خطاها البيان – وهو يرادف عنده معنى البلاغة– ورصد مراحل نموه وتطوره منذ أن كان كلاماً يرد في ثنايا مؤلفات العلوم الأخرى، مروراً بالمؤلفات الخاصة به وانتهاء بالعصر الحديث، معتمداً على المنهج التاريخي، الذي تخللته الدراسة الفنية التي تقوم على النقد لما في هذه المؤلفات[1] دونما تعصب أو تحميل للنص فوق ما يتحمله.

---

(١) بدوي طبانة، البيان العربي: ٣، ٨.

وفي البداية عالج علاقة البيان بفكرة الاعجاز، وتتبع الآثار التي تركها الباحثون في البيان القرآني ووجوه الاعجاز في القرآن الكريم(١)؛ ولهذا بدأ كتابه بالحديث عن مبحث المجاز، الذي احتل منزلة واضحة في الدراسات القرآنية منذ أول ظهورها، وفي الوقت نفسه يُعد المجاز من أهم ما تُعنى ببحثه البلاغة، والسبب وراء ذلك احساس العرب بالحاجة إلى تفهّم الأساليب التي كثُر ورودها في القرآن، وفي كلام العرب أيضاً(٢)؛ ولهذا قام بدراسة الكتب التالية: "مجاز القرآن" لأبي عبيدة، و"تأويل مشكل القرآن" لابن قتيبة و"تلخيص البيان في مجازات القرآن" للشريف الرضي.

وفيما يتعلق بالكتاب الأول فقد بيّن أنّ مقصود أبي عبيدة من المجاز في كتابه الممر أو المعبر، أي طريق الوصول إلى فهم المعاني القرآنية(٣) ، وهذا المفهوم مغاير لما اتفق عليه علماء البلاغة فيما بعد.

وكان عنوان الكتاب مضللاً؛ ولهذا اختلف الباحثون في أمر تصنيفه فبعضهم عده كتاب بلاغة اعتماداً على عنوانه الذي يحمل اسم مصطلح بلاغي، ومن نظر في طريقته في التحليل عده كتاب تفسير؛ لأنه اتبع طريقة المفسرين، اذ كان يعرض لسور القرآن بالترتيب، فيستخرج من كل سورة ما يعتقد أنه بحاجة إلى تفسير فيفسره مستعيناً بثقافته الواسعة التي كان يغلب عليها الطابع اللغوي فانعكس ذلك في تحليله إذ أحياناً كان يكتفي بذكر المدلول اللغوي للكلمة فقط، وفي أثناء ذلك كان يتحدث عن بعض الفنون البلاغية(٤). وأحياناً كان يوفق في عرضها، وكان أحياناً يضطرب مدلولها عنده.

ثم توقف الباحث عند كتاب "تأويل مشكل القرآن" وميزة هذا الكتاب تكمن في كونه يمثل رأي أهل السُنة في قضية الاعجاز القرآني وبخاصة رأيه في المجاز واكثاره من الأمثلة القرآنية وتخريجه لها تخريجاً مجازياً -بالمفهوم الذي رأيناه عند المتأخرين- فهو إذن يقر بوجود المجاز في القرآن الكريم، راداً بذلك على من قالوا إنّ المجاز كذب مستنداً إلى ما ورد في كلام العرب أنفسهم، ومستعيناً بالحجة والبرهان العقلي(٥) ، وقد

---

(١) بدوي طبانة، البيان العربي، ٦.

(٢) السابق، ٢٤.

(٣) السابق،٢٧ ومصطفى الصاوي الجويني،١٩٧٥،البلاغة والنقد بين التاريخ والفن،الهيئة المصرية العامة للكتاب، الاسكندرية، ٦. وأحمد مطلوب، ١٩٨٧، معجم المصطلحات البلاغية، مطبعة المجمع العلمي العراقي، ٣/١٩٣-١٩٤.

(٤) أبو عبيدة، مجاز القرآن، تحقيق محمد فؤاد سزكين، ١٩٥٤، ط١، الناشر محمد سامي الخانجي الكتبي، مصر، ينظر على سبيل المثال: ١/٨، ١١-١٦، ٢٤، ١٠٠، ١٥٥، ١٨٦.

(٥) ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، شرح وتحقيق السيد أحمد صقر، دار احياء الكتب العربية، ٩٩، ١٠١.

اكتفى الباحث بنقل نماذج مما قاله ابن قتيبة مركزاً على اظهار المواضع التي أصاب فيها ابن قتيبة والمواطن التي لم يكن رأيه فيها دقيقاً[١] . ويحمد لابن قتيبة المواضع التي أحسن فيها؛ لأنّ البلاغيين من بعده استفادوا مما قاله ويكفي أنه استن سُنّة لهم ألا وهي الابتداء بالاستعارة[٢] في أثناء حديثهم عن فنون البلاغة.

وكان دافعه إلى تأليف كتابه الرد على الطاعنين في النظم القرآني الذين ادعوا أنّ في القرآن الكريم تناقضا وخطأ وزيادات، وبيّن لهم أنّ القرآن الكريم لم يخرج عن مذاهب العرب في نظمها وأساليبها، ولا عن مناحيها في الكلام وأهدافه ولكن قد تخفى بعض معاني القرآن الكريم على العامة الذين لايعرفون إلا اللفظ وظاهر دلالته على معناه؛ ولذلك لايعرف فضل القرآن الكريم إلا من كثر نظره في كتاب الله، واتسع علمه، وفهم مذاهب العرب وإفتنانها في الأساليب[٣]؛ ولهذا قام باستعراض سور القرآن سورة سورة فأبان عمّا فيها من مشكل عن طريق تأويله، وفي أثناء حديثه تحدث عن بعض الفنون البلاغية وسمى بعضها بأسمائها التي عُرفت بها فيما بعد منها: الاستعارة، والتمثيل، والقلب، والتقديم والتأخير، والحذف والتكرار، والاظهار، والتعريف... الخ وبكل هذه المذاهب نزل القرآن[٤] . وبحديثه عن هذه الموضوعات البلاغية التي رتبّها على شكل أبواب فهناك باب للمجاز، وآخر للاستعارة... إلخ يكون قد بدأ مرحلة جديدة في تاريخ البلاغة العربية.

وكان مفهومه للمجاز متسعاً حيث شمل كل ما يبعث على فهم معاني القرآن مما خفيت معاني بعض ألفاظه[٥] . وهذا المفهوم انعكس على طريقة تناوله لمادته البلاغية في كتابه.

وتكمن قيمة هذا الكتاب في كونه يشكل حلقة الوصل بين ملاحظات الجاحظ البلاغية المتناثرة في ثنايا كتبه وكتاب "البديع" لابن المعتز، على خلاف ما كان شائعاً بين الباحثين أنّ طفرة قد حدثت في تطور البلاغة منذ الجاحظ الى عصر ابن المعتز، وبهذا يكون لهذا الكتاب قيمة تاريخية كبرى[٦] .

---

(١) بدوي طبانة، البيان العربي، ٤٢-٤٨.

(٢) ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، ١٠١.

(٣) السابق، ٧-٩، ١٠، ٦٢، ٧٧-٧٨، ٨٠-٨١، ١٠٢-١٠٤.

(٤) السابق، ١٦.

(٥) بدوي طبانة، البيان العربي، ٣٩.

(٦) السيد أحمد صقر، مقدمة تحقيق تأويل مشكل القرآن، ٦٤.

واستكمالاً لبيان أثر الدراسات القرآنية في البلاغة العربية تحدث عن كتب الاعجاز القرآني، وقد أثنى على هذه المؤلفات؛ لأنّ مؤلفيها استطاعوا خدمة البلاغة من خلال مباحثهم الكلامية؛ لأنهم نهجوا في دراساتهم منهجاً موضوعياً جديداً، يعتمد اعتماداً كبيراً على أسلوب للموازنة بين النصوص المأثورة وبين الأسلوب القرآني؛ ولهذا استطاعوا استخراج فنون بيانية جديدة أضافوها الى جهود الذين سبقوهم من الشعراء والرواة والنقاد، وأهم ميزة لهم اهتمامهم بالدراسات التطبيقية(١). التي تساهم في ابراز الفكرة وايصالها إلى القراء بصورة أفضل، وتحليلهم لهذه النصوص ينمي الذوق الأدبي لدى القراء مما يجعلهم يتذوقون بلاغة القرآن.

دراسة الدكتور علي عشري زايد البلاغة العربية:

تحدث فيها عن البلاغة العربية: تاريخها ومصادرها ومناهجها. وقام فيها بالتتبع التاريخي لمراحل التطور التي مرت بها البلاغة منذ كانت أفكاراً وملاحظات عامة متناثرة على هامش العلوم الأخرى، حتى استقرت علماً متميزاً مستقلاً بمؤلفاته ومؤلفيه(٢). مركزاً في حديثه على دور ما أسماه "العلوم القرآنية" في نشأة البلاغة العربية في مراحل نموها المختلفة. وهو يقصد بالعلوم القرآنية "مجموعة العلوم التي اهتمت بالنص القرآني سواء من ناحية شرحه وتفسيره كعلم التفسير، أو من ناحية بيان وجوه اعجازه كعلم الكلام(٣) ".

ولو نظرنا إلى أوائل الكتب التي تطرقت إلى القضايا البلاغية القرآنية كمجاز القرآن لأبي عبيدة ومعاني القرآن للفراء، فإننا نجدها قد اتبعت طريقة المفسرين فهي تتبعت آيات القرآن الكريم آية آية محاولة تفسيرها والاشارة إلى ما فيها من قضايا بلاغية.

وفي مرحلة لاحقة في أثناء نمو البلاغة العربية نجد أنّ الأثر الأكبر كان لكتب اعجاز القرآن الكريم التي بحثت في كثير من القضايا البلاغية القرآنية بالاضافة إلى المباحث الكلامية الواردة فيها.

---

(١) السيد أحمد صقر، مقدمة تحقيق تأويل مشلك القرآن ، ٧١.

(٢) علي عشري زايد، ١٩٧٧، البلاغة العربية: تاريخها – مصادرها – مناهجها، مكتبة الشباب، ٤.

(٣) السابق، ١٣.

وعلى الرغم من أنّ الباحثين على مختلف العصور تناقلوا: أنّ السؤال الذي وجه لأبي عبيدة عن التشبيه الوارد في قوله تعالى ﴿إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم طلعها كأنه رؤوس الشياطين﴾[١] كان دافعه لتأليف كتابه، إلا أنّ الدكتور محمد رجب البيومي يرى أنّ هذه القصة غيرصحيحة ودليله على ذلك: أنه لم يرَ حديثاً عن الحادثة في مقدمة كتاب مجاز القرآن، ولم يتعرض أبو عبيدة لتفسير هذه الآية في كتابه عندما عرض لسورة الصافات[٢]، وسواء أصحت تلك الرواية أو لم تصح فإنها تعطينا فكرة عن الحملة التي كان يشنها أعداء الدين في ذلك الوقت للتشكيك في بلاغة القرآن الكريم، مما دفع الجاحظ وابن قتيبة وعلماء الكلام في ذلك الوقت للتصدي لهم. وإبراز مواطن البلاغة في النص القرآني ومظاهر اعجازه؛ ولهذا كانت الصلة ومنذ هذه الفترة المبكرة قوية بين البلاغة العربية والدراسات القرآنية.

وفي البداية حدثنا عن كتاب "مجاز القرآن" لأبي عبيدة وعلل اهتمام مؤرخي البلاغة بهذا الكتاب لقيمته التاريخية باعتباره أول كتاب وصلنا يحتوي على بعض الاشارات البلاغية المنهجية، وهو محدود جداً في قيمته العلمية بالقياس إلى أي كتاب متأخر[٣]. واطلاعنا على هذا الكتاب يعطينا تصوراً عن الفكر البلاغي في ذلك الوقت المبكر.

وقد صنّف الدكتور علي عشري الاشارات والملاحظات البلاغية الواردة في الكتاب تحت عنوانين أساسيين الأول: استخدام بعض المصطلحات البلاغية التي تحدد لها فيما بعد مدلول بلاغي علمي. وثانيهما: اكتشاف بعض الفنون والأساليب البلاغية التي جاء علماء البلاغة فيما بعد فوضعوا لها المصطلحات ودرسوها على نحو مفصل[٤]، وتعرض لكل نوع بالنماذج الدالة والممثلة لذلك.

---

(١) السورة الصافات، الأيتان ٦٤-٦٥.

(٢) خطوات التفسير البياني للقرآن، ١٩٧١، الشركة المصرية للطباعة والنشر، ٤٤-٤٥. ومما يزيد رأي الدكتور محمد رجب، اكتفاء ابن قتيبة بتفسير (طلعها) في كتابه تفسير غريب القرآن، ولم يشر إلى هذه الحادثة، تحقيق السيد أحمد صقر، ١٩٥٨، دار إحياء الكتب العربية، ٣٧٢؛ وأبو عبيدة، مجاز القرآن، ١/٥-٧ و ٢/١٦٦-١٧٥.

(٣) علي عشري زايد، البلاغة العربية، ٢٤، وعبدالقادر حسين، ١٩٧٥، أثر النحاة في البحث البلاغي، دار نهضة مصر، القاهرة، ١٧٧.

(٤) السابق، ٢٣.

وعدّ هذا الكتاب ممثلاً لأبرز السمات العلمية للتأليف البلاغي في تلك المرحلة المبكرة في حياة العلوم العربية، وهذه السمات تتمثل في عدم التبويب واضطراب مدلولات المصطلحات العلمية واختلاط القضايا البلاغية بموضوعات العلوم الأخرى، وعدم تميّز علوم البلاغة الثلاثة بعضها عن بعض، وكانت دلالة المصطلحات الواردة فيها عامة، وأقرب ما تكون إلى الدلالة اللغوية(١). وقد علل الدكتور بدوي طبانة هذه الظاهرة بأنّ التحديد الجامع المانع إنما يكون عند اجتماع أطراف المادة وحصر مسائلها على أيدي كثير من رجال المعرفة بعد دربة ومراسة(٢)؛ ولهذا لانستغرب اضطراب مدلولات المصطلحات في كتاب أبي عبيدة وعدم الاهتمام بالتبويب والتفريع والتحديد للمفاهيم والمصطلحات.

أمّا المرحلة الثانية في حياة البلاغة العربية وهي مرحلة التكامل المشترك وخير من يمثلها: "تأويل مشكل القرآن" لابن قتيبة، و"إعجاز القرآن" للباقلاني.

وميزة الكتاب الأول تكمن في افراد ابن قتيبة أبواباً لبحث الأفكار البلاغية واللغوية عن المجاز والحذف والاختصار والكناية... الخ المتناثرة في مؤلفات المرحلة الأولى، ووقف وقفات متأنية لتحليلها وشرحها، وقد غلب ذوقه اللغوي على تحليله لأنه كان لغوياً في الأساس ولم يكن بلاغياً، وهذا الكتاب يمثل نموذجاً بارزاً لدور العلوم اللغوية في تطور البلاغة العربية، فقد اختلط الجانب اللغوي بالجانب البلاغي، مع بقاء كل منهما محتفظاً بملامحه الخاصة(٣). مما مهد السبيل فيما بعد إلى بروز المؤلفات الخاصة بالبلاغة(٤) لأنهم بنوا على ما ورد في أبواب كتاب ابن قتيبة مؤلفات خاصة بتلك الأبواب.

أما كتاب الباقلاني(٥) فيمثل نموذجاً لاختلاط العلوم الأدبية (النقد والبلاغة والأدب) بالعلوم القرآنية والكلامية(٦) . فالمباحث الكلامية تختلط بالمباحث البلاغية اختلاطاً

---

(١) علي عشري زايد ، البلاغة العربية، ٣٤، ٣٧.

(٢) بدوي طبانة، البيان العربي، ٢٩.

(٣) علي عشري زايد، البلاغة العربية، ٦٣-٧٠.

(٤) محمد زغلول سلام، ١٩٦١، أثر القرآن في تطور النقد العربي إلى آخر القرن الرابع، ط٢، دار المعارف، مصر، ٣٦٠.
وحمادي صمود، ١٩٨١، التفكير البلاغي عند العرب، منشورات الجامعة التونسية، ٣٣٦، ٣٤٠، ٣٤١، ٥٩٧.
وعمر محمد عبدالعزيز، ١٩٨٩، تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة، ط١، مركز الأهرام للترجمة والنشر، القاهرة، ٣٧.

(٥) اعجاز القرآن، شرح وتعليق محمد عبدالمنعم خفاجي، ١٩٩١، ط١، دار الجيل، بيروت.

(٦) علي عشري زايد، البلاغة العربية، ٦٢.

متوازناً، وهذا يعني أنّ البلاغة قد بدأت تنضج وتتحدد لها ملامحها الخاصة[١] ، ومن خلال هذا الكتاب يتضح لنا دور العلوم الكلامية في تطور البلاغة العربية في المرحلة الثانية من مراحل نموها.

وإذا ما انتقلنا إلى المنهج التجميعي في البحث البلاغي الذي يقوم على تتبع أمثلة فن بلاغي أو أكثر ورد في القرآن الكريم، ثم وضع المؤلفات الخاصة بذلك الفن[٢] فإننا نجده يتمثل في المؤلفات التالية: "تلخيص البيان في مجازات القرآن" و "تشبيهات القرآن" و "بديع القرآن"** وميزة هذه المؤلفات أنها خلصت للحديث عن فنون البلاغة وقضاياها فقط، ويغلب على مؤلفيها أنهم رجال أدب وبلاغة وليسوا نحاة أو متكلمين أو لغويين كما وجدنا ذلك في مؤلفات المرحلتين السابقتين، مما يجعلنا نعدها نواة للدراسات الأدبية التي تناولت بلاغة القرآن الكريم فيما بعد.

ومن المناهج التي تحدث عنها المنهج التحليلي الفني، واعتبره أنضج مناهج التأليف البلاغي وأكثرها اكتمالاً؛ لأنّ في هذا المنهج يتم الامتزاج بين النظرية والتطبيق. والنص في هذا المنهج هو مصدر القاعدة، والقاعدة تكون في خدمة النص واضاءة جوانبه اضاءة فنية[٣] ومن ثم يكون الانطلاق لتحليل النص تحليلاً أدبياً فنياً.

وخير من يمثل هذا المنهج عبدالقاهر في كتابيه "دلائل الإعجاز" و"أسرار البلاغة" حيث بلغ المنهج ذروة نضجه واكتماله، لأننا نلمس من خلال تحليله للنصوص أنّ النص هو المحور الأساسي الذي ينطلق منه، فهو حين يعرض لقوله تعالى﴿واشتعل الرأس شيباً﴾[٤] يُوجه اهتمامه الأكبر إلى تحليل التركيب اللغوي للآية، وبيان دور هذا التركيب في بلاغة الصورة وروعتها الفنية، ولا يشغل نفسه بتحليل أسلوب الاستعارة فيها[٥] .

---

* يمكن تصنيف كتابه إلى فصول انفردت بالحديث عن البلاغة، وفصول ثانية انفردت بالحديث عن مباحث علم الكلام، وفصول ثالثة مشتركة بين البلاغة وعلم الكلام.

(١) علي عشري زايد، البلاغة العربية، ١٠٢.

(٢) علي عشري زايد، البلاغة العربية، ١٦٠.

** قام ابن أبي الإصبع بتبويب مادته بعد أن جمعها من القرآن حسب الفنون البلاغية التي كانت معروفة حتى عصره، ولم يرتبها حسب ورودها في المصحف، كما كان شائعاً في العصور السابقة له.

(٣) علي عشري زايد، البلاغة العربية، ١٨٧.

(٤) السورة مريم، الآية ٤.

(٥) علي عشري زايد، البلاغة العربية، ١٩٢ وعبدالقاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، تحقيق هـ. ريتر، ١٩٧٩ ، ط٢، دار المسيرة، بيروت ، ٢٥٢.

بالاكثار منهـا بالقيـاس إلـى استشـهاد عبدالقـاهر بالآيـات القرآنيـة ولكنهمـا لايصـلان إلـى مستوى تحليل عبدالقاهر وعمقه[١] .

دراسة الدكتور عبدالقادر حسين – أثر النحاة في البحث البلاغي:

خصصـها للحديث عن أثر النحاة في البحث البلاغي ويمكـن أن تُعدّ هـذه الدراسـة تأريخاً للتقعيد البلاغي منذ طفولته في عصوره الأولـى حتـى نضجه فـي القرنيـن الرابـع والخامس الهجريين مما عكس آثاره الباقية على العصور المتـأخرة وعصرنـا الحـالي[٢] . ولمّا كانت السمة المميزة للعلماء في ذلك الوقت عدم التخصـص فـي علـم واحـد فقد نجـد العالم مفسراً ولغوياً ونحوياً وبلاغياً ومتكلماً في آن واحد. فـلا نستغرب أن يكـون للنحـاة أثر في البحث البلاغي، ولكن قد ينال عـالم شـهرة واسـعة فـي مجـال مـا، فتُنسـى العلـوم الأخرى التي تفوق فيها، كما حدث مع الخليل بن أحمـد وسـيبويه وابـن جنـي الذيـن أكـثر الباحثون مـن الحديـث عـن جهودهـم النحويـة واللغويـة؛ ولهـذا فـإنّ الجـانب البلاغـي فـي مؤلفاتهم لم يُدرس بعناية. وهذا ما حاول الدكتور عبدالقادر بحثه، ومن ثم تسـليط الضـوء على جهود هؤلاء الأعلام فـي البحـث البلاغـي، فربمـا يـأتي بـاحث آخـر فيكمـل مـا بـدأه الدكتور عبدالقادر، وهذا ما قام به أحد الباحثين المعاصرين الـذي رصـد اشـارات بلاغيـة موجزة في لفظها، واضحة في مدلولها ممثلـة لنشـأة الفكـرة البلاغيـة، فـي كتـاب "معـاني القرآن" للأخفش الأوسـط[٣] . وكذلـك أعـد البـاحث أحمـد سـعد محمـد سـعد رسـالة عـن الأصول البلاغية في "الكتاب" لسيبويه، وأبرز جهده في هذا المجال[٤] . وتبـدو قيمـة مثـل هذه الدراسات لبحثها فـي مرحلـة مـن مراحـل نشـأة البلاغـة العربيـة لـم تنـل حظهـا مـن الاهتمام والدراسة. وتسلط الأضواء على جهود الرواد الأوائل واعطاء كل ذي حق حقه.

وقد قام الدكتور عبدالقادر حسين بالبناء على ما قاله ابن جني حول ظاهرة وضـع المثنى موضع الجمع في القرآن الكريم[٥] ، حيـث تتبـع الآيـات القرآنيـة التـي وردت فيهـا

---

(١) علي عشري زايد، البلاغة العربية، ١٨٧-١٨٨.

(٢) عبدالقادر حسين، أثر النحاة في البحث البلاغي، ٦.

(٣) فتحي عبدالقادر فريد، ١٩٨٣، لمحات بلاغية في معاني القرآن للأخفش الأوسط، ط١، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة.

(٤) أحمد سعد محمد سعد، ١٩٩٠، الأصول البلاغية في كتاب سيبويه وأثرها في الدرس البلاغي، ١٩٩٠، رسالة ماجستير، جامعة عين شمس، قسم اللغة العربية وآدابها.

(٥) ينظر على سبيل المثال: السورة البقرة، الآية ٢٢٩ وسورة الملك، الآية ٤ وسورة الحجرات الآية ١٠.

ويُنظر ابن جني، المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والايضـاح عنهـا، تحقيق علـي النجدي ناصف، وعبدالحليم النجار وعبدالفتاح اسماعيل شلبي، ١٣٨٦هـ، المجلس الأعلى للشؤون الاسلامية، مصر، ٢/١٤٥، ٢٧٨-٢٧٩.

وقد قام الدكتور عبدالقادر حسين بالبناء على ما قاله ابن جني حول ظاهرة وضع المثنى موضع الجمع في القرآن الكريم[١] ، حيث تتبع الآيات القرآنية التي وردت فيها الظاهرة السابقة، وحاول الوقوف على السر البلاغي لها مستفيداً مما قاله القدماء في هذا المجال[٢] . وهذا يعني أنّ الباحث المعاصر قد يعثر على بعض القضايا البلاغية القرآنية لم تحظَ بعناية الباحثين، فيمكنه تسليط الأضواء عليها، وفي هذا اغناء للبحث البلاغي القرآني.

وفيما يلي استعراض لأهم النتائج التي توصل إليها الدكتور عبدالقادر حسين من خلال بحثه عن جهود النحاة في البحث البلاغي وبخاصة بلاغة القرآن الكريم.

بيّن الدكتور أنّ الفراء قد تحدث عن "الفصل والوصل" وأن حديثه عنه لم يكن يختلف عن مفهوم المتأخرين له باستثناء اطلاق التسمية عليه، وبذلك تسنى له اثبات أننا نجد حديثاً عن الفصل والوصل في مؤلفات القرن الثاني كمجاز القرآن لأبي عبيدة، ومعاني القرآن للفراء[٣] . وليس كما شاع أنّ الجاحظ هو أول من تحدث عن هذا الموضوع ومثل هذه الملاحظات الدقيقة التي توقف عندها الدكتور تبرز أهمية دراسة كتب هذه المرحلة، وتجنبنا كذلك اصدار الأحكام العامة الناتجة عن قلة استقراء النصوص ذات الصلة بموضوع البحث.

وإذا ما انتقلنا إلى حديث الدكتور عن جهود المبرد البلاغية فإننا نجده قد توقف عند مقارنة المبرد بين نظم القرآن ونظم الشعر؛ ليدلنا على أنّ الشعر مهما ارتقى وبلغ منزلة عالية فإنه لن يصل في بلاغته إلى اعجاز القرآن الكريم[٤] ، وكأنه بذلك قد استن سُنّة سار على نهجه فيها جماعة من المتقدمين والمتأخرين على حد سواء إذ وجدنا نماذج لهذه المقارنة عند ابن ناقيا البغدادي والباقلاني وابن أبي الإصبع، ومن المعاصرين الدكتور أحمد بدوي وقد عرضت لذلك في مواضعه من هذه الدراسة والنتيجة التي لم تكن موضع شك هي تفوق النظم القرآني.

---

(١) ينظر على سبيل المثال: السورة البقرة، الآية ٢٢٩ وسورة الملك، الآية ٤ وسورة الحجرات الآية ١٠.
وينظر ابن جني، المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والايضاح عنها، تحقيق علي النجدي ناصف، وعبدالحليم النجار وعبدالفتاح اسماعيل شلبي، ١٣٨٦هـ، المجلس الأعلى للشؤون الاسلامية، مصر، ٢/١٤٥، ٢٧٨-٢٧٩.

(٢) عبدالقادر حسين، ١٩٨٧، من علوم القرآن وتحليل نصوصه، دار قطري بن الفجاءة للنشر والتوزيع، الدوحة، ١٦٥-١٧٤.

(٣) السابق، أثر النحاة . ١٤٣-١٤٥. والفراء، معاني القرآن، ١٩٨٣، ط٣، عالم الكتب، بيروت ١/٤٣-٤٤ و ٢/٦٨-٦٩.

(٤) السابق، ٢١٨ والسابق، البلاغة، تحقيق وتقديم رمضان عبدالتواب، ١٩٨٥، ط٢، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ٩١-٩٢.

ثم قارن الدكتور بين الموازنات التي قام بها المبرد والباقلاني من بعده فبيّن أنّ طريقة المبرد كانت أقرب إلى الموازنة الصحيحة في محاولة الباقلاني؛ لأنّ المبرد كان يختار البيت والبيتين من الشعر المتفقين في المعنى مع الآية القرآنية، ثم يحلل النصين لبيان ما فيهما من بلاغة. أمّا الباقلاني فكان يكتفي بسوق البراهين على رفعة النص القرآني، وسقوط النص الشعري وإن لم يكن بينهما صلة من حيث المعنى، مما يجعل كلامه أقرب إلى العموم منه إلى التحديد(١) . وكانت طريقة الباقلاني مدار بحث بين الباحثين المعاصرين ما بين مقلّل لقيمة هذه الطريقة وللأحكام النقدية التي توصل إليها من خلال هذه الموازنات وبين منصف حاول أن يجد فيها أحكاماً نقدية يمكن الاستفادة منها(٢)، أمّا طريقة المبرد فلم أعثر -فيما عدت إليه من دراسات- على حديث عن هذه الطريقة، وربما عاد ذلك لاكتفاء الباحثين بالحديث عن جهود المبرد النحوية واللغوية، اضافة إلى أنّ الباقلاني قد أطال الحديث عن هذه القضية. اذ شغلت حيزاً كبيراً في كتابه.

وحظي ابن جني البلاغي باطلالة من الدكتور عبدالقادر حسين إذ توقف عند حديثه عن الالتفات ومحاولته معرفة السر البلاغي من استخدامه في الكلام، مبيناً تفوق نظرته للالتفات على نظرة الزمخشري له(٣)وليس غرضنا المقارنة بين العالمين ولكن هذا الرأي يؤكد أننا قد نعثر على نظرات متميزةللنحاةفي هذه المرحلةمن حياةالبلاغة العربية.

وقد وقع الدكتور فيما يشبه التناقض عندما ساق الدليل تلو الدليل على تميّز الفراء في فهم بعض القضايا البلاغية(٤) ، وإذ به يقول في إحدى صفحات كتابه: إنّ الفراء كان باهت الشخصية في كثير من مسائل البلاغة، وأنه كان ناقلاً لما قاله السابقون دونما محاولة لأن يضيف إلى ما قالوه شيئاً يُعتدّ به في تاريخ البلاغة أو يكون له أثر في تطورها باستثناء ما قاله في الاستعارة(٥) . فهو تارة يثبت له التفوق والأسبقية، وتارة يسلبه هذه الميزة ولا أدري كيف يصدر حكمين مختلفين عن آراء الفراء في موضعين مختلفين في كتابه(٦) . وعلى أي حال فالفراء بذل جهده، وتوصل إلى ما توصل إليه

---

(١) عبدالقادر حسين، أثر النحاة ، ٢١٨-٢١٩.

(٢) ينظر على سبيل المثال: زكي مبارك، النثر الفني في القرن الرابع، دار الجيل، بيروت، ٢/٧٦.
وعبدالرؤوف مخلوف، ١٩٨١، من قضايا اللغة والنقد والبلاغة، مكتبة الفلاح، الكويت، ٢٢٦، ٢٤٣، ٢٩٦. ومحمد زغلول سلام، ٢٨٦-٢٩٦ وعلي عشري زايد، البلاغة العربية، ٥٧-٥٨.

(٣) عبدالقادر حسين، أثر النحاة ، ٢٨٩-٢٩١ وابن جني، المحتسب ١/١٤٥-١٤٦.

(٤) ينظر حديثه عن فهم الفراء للاستعارة والتعريض وبعض فنون البديع كالمشاكلة والتوجيه، أثر النحاة ١٥٩-١٦٤.

(٥) عبدالقادر حسين، أثر النحاة، ١٥٥ والفراء، معاني القرآن، ١/ ٢٣٩ و٢/٩١ و ٣/١٧٧.

(٦) عبدالقادر حسين، أثر النحاة، ١٥٥، ١٦٨-١٦٩.

بذكائه، ولا ينبغي أن نحمله فوق طاقته، وطاقة عصره الذي عاش فيه. ويكفي أنّ له نظرات صائبة في بيان مفهوم المجاز والتشبيه والكناية والالتفات والموسيقى في القرآن الكريم، لابل أنه عرف الاستعارة التهكمية[١] ، وهو لم يذكرها بالاسم لكن توجيهه للآيات يوحي بذلك.

دراسات تؤرخ للاعجاز البلاغي

تختلف هذه الدراسات عن دراسات النوع السابق بأنها قد تخصصت في بحث مبحث بلاغي قرآني واحد، وهو الاعجاز في القرآن الكريم الذي كان له شأن كبير في إثراء البحث البلاغي، وهي تسير في منحيين اثنين:

الأول: منحى التأريخ لنشأة هذا المبحث والعوامل التي أدت إلى تطوره، وعرض نماذج لما قاله القدماء. وخير ممثل لهذا المنحى دراسة نعيم الحمصي التي قام من خلالها بالتتبع التاريخي الشامل لمبحث الاعجاز في القرآن منذ أن كان هذا الموضوع مجرد اشارات عابرة أو متناثرة في المؤلفات إلى أن وُجدت المؤلفات الخاصة بهذا الموضوع.

دراسة نعيم الحمصي - فكرة اعجاز القرآن:

ويمكن اعتبار هذه الدراسة المرجع الأساسي الذي لايمكن لأي دارس للاعجاز في القرآن الكريم أن يغفلها؛ لأنها تظهر لنا مقدار اهتمام علماء المسلمين على مختلف العصور بهذا المبحث القرآني، وعلى مختلف تخصصاتهم إذ نجد آراء للمعتزلة وللأشاعرة وللمتصوفة وللمفسرين والأدباء والبلاغيين؛ ولهذا اختلفت الآراء وتباينت وتعددت وتنوعت؛ ولهذا يصعب على المرء الاحاطة بكل ما قيل حول هذا الموضوع، مما جعل الباحث يلجأ إلى التلخيص قدر المستطاع، والاكتفاء بذكر الطابع العام المميز لكل قرن؛ لأنه قام بدراسة هذا المبحث حسب التطور التاريخي، والاشارة إلى آراء أبرز الأعلام الذي تحدثوا عن هذا الموضوع والمصادر التي يمكننا العودة إليها للإستزادة[٢]، فهو كتاب شامل.

---

(١) الفراء، معاني القرآن، ينظر على سبيل المثال ١/١٧، ١٥٣، ٢٣٩ و ٢/١٥٠-١٥٦، ٣٣٠ و٣/١٦، ١١٨، ١٥٥، ٢١١-٢١٢، ٢٦٠، ٢٦٧، ٢٧٤.

(٢) نعيم الحمصي، ١٩٨٠، فكرة اعجاز القرآن منذ البعثة النبوية حتى عصرنا الحاضر، ط٢، مؤسسة الرسالة، بيروت، ينظر على سبيل المثال، ٥٣، ٥٨، ٦٠، ٦٥، ٩٢، ٩٤، ١٠٧، ٢١٦-٢١٧، ٢٧٩-٢٨١، ٣١٣، ٣٢٧، ٣٤٤.

وكان لضخامة الموضوع الذي تولى البحث فيه، واتساع الفترة الزمنية التي تحدث عنها أكبر الأثر في التقليل من تحليل النصوص، وعوضاً عن ذلك كان يتبع ما يقوله بعض الباحثين بنقد وتعليق[١] .

والمطلع على هذا الكتاب يمكنه تكوين فكرة شاملة عن مفهوم القدماء والمعاصرين للاعجاز القرآني ومظاهره، ولكنه لم يخصصه للحديث عن الاعجاز البياني، ولهذا اخترت الحديث عن دراستي حفني محمد شرف ومحمد بركات أبو علي اللتين تمثلان المنحى الثاني لدراسات المعاصرين الذي كان يقوم على الدراسة النصية لما قاله أبرز الأعلام الذين بحثوا في الاعجاز البياني للقرآن الكريم، والتحليل لما قالوه، والموازنة فيما بينهم.

دراسة الدكتور حفني محمد شرف - اعجاز القرآن البياني

أقام دراسته على مبحثين اثنين[٢] :

الأول: درس فيه فكرة الاعجاز البياني دراسة نظرية تتبع فيه أقوال القدماء والمحدثين حول مفهوم الاعجاز، مبيناً مقدار التطور الذي حدث في نظرتهم للاعجاز البياني متبعاً الترتيب التاريخي.

الثاني: درس فيه فكرة الاعجاز دراسة تطبيقية تحدث فيه عن بعض أسرار القرآن الكريم البلاغية، مبيناً مظاهر اعجازه.

وسأتوقف عند حديثه عن مفهوم القدماء للاعجاز البياني للقرآن الكريم وبخاصة الذين لم أعرض لآرائهم في دراسات النوع الأول، والنوعين الثالث والرابع تجنباً للتكرار.

ومن أبرز الأعلام الذين كان لرأيهم أثر واضح في تطور الدراسات القرآنية لبلاغة القرآن الكريم الجاحظ، على الرغم من عدم وجود كتاب له بين أيدينا مخصص للبحث في اعجاز القرآن الكريم، وقد تناثرت آراؤه في البلاغة القرآنية في مجمل كتبه،

---

(١) نعيم الحمصي، فكرة اعجاز القرآن ، ينظر على سبيل المثال، ١٨٢، ٢١٥، ٣٦٠-٣٦٤، ٤٣٣-٤٨٨.

(٢) حفني محمد شرف، ١٩٧٠، اعجاز القرآن البياني بين النظرية والتطبيق، المجلس الأعلى للشؤون الاسلامية، مصر، ٣.

والكتاب الوحيد الذي يبدو من عنوانه أنه مخصص للبحث في اعجاز القرآن وبلاغته لم يصل إلينا، وقال عنه الجاحظ "ولي كتاب جمعت فيه آياً من القرآن؛ لتعرف بها فضل ما بين الايجاز والحذف، وبين الزوائد والفضول والاستعارات، فإذا قرأتها رأيت فضلها في الايجاز والجمع للمعاني الكثيرة بالألفاظ القليلة على الذي كتبته لك في باب الايجاز وترك الفضول[١] " ثم أورد نماذج لما ذكره في كتابه الضائع.

ويُستدل من قول الجاحظ: "وفي كتابنا الذي يدلنا على أنه صدق: نظمه البديع الذي لايقدر على مثله العباد مع ما سوى ذلك من الدلائل التي جاء بها[٢] " أنه يرى أنّ اعجاز القرآن في نظمه ولكن الاشارات السابقة لاتكفي لتكوين صورة واضحة متكاملة لمقومات النظم عنده.

ومن القضايا البلاغية التي توقف عندها الجاحظ المجاز في اللغة، حيث ردّ على من أنكر وجوده في القرآن الكريم، واستشهد ببعض الآيات مظهراً ما فيها من مجاز وتشبيه ورد على الطاعنين في بلاغة القرآن الكريم[٣] ، ولكن الجاحظ لم يذكر تعريفاً للمجاز أو مفهوماً محدداً له، ولكنه يعني به ما يقابل الحقيقة.

وقصارى القول إنّ الجاحظ بعمله هذا يكون قد أسدى خدمة جليلة إلى بيان القرآن واعجازه وذلك بدراسة أسلوب القرآن تلك الدراسة المبنية على حسن فهم وقوة ادراك، التي كان لها ما بعدها إذ كانت بمثابة المفتاح لكثيرمن الدراسات العربية في حياة البلاغة والنقد[٤] . وكانت دراسات الجاحظ القنطرة التي عبر عليها ابن قتيبة في كتابه تأويل مشكل القرآن.

وإذا ما انتقلنا إلى الباقلاني فإننا نراه يذكر ثلاثة وجوه للاعجاز في القرآن الكريم هي ما تضمنه القرآن من الاخبار بالمغيبات، وهي مما لايقدر عليه البشر ولا سبيل لهم إليه[٥] ولا حاجة للتذكير بأن هذا الوجه لايشمل القرآن كله.

والوجه الثاني: أُميّة الرسول –عليه السلام– فمن أين لرجل لايقرأ ولا يكتب معرفة ما وقع من عظائم الأمور ومهمات السير من حين خلق آدم حتى عصره –عليه السلام– مع

---

(١) الجاحظ، الحيوان، تحقيق عبدالسلام محمد هارون، ١٩٣٨، ط١، مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ٣/ ٨٦.

(٢) السابق، ٤/ ٩٠.

(٣) السابق، ٢/ ١٦، ٥/ ٢٣، ٢٥، ٢٨، ٣٢، ٤٢٥، ٤٢٦ و ٦/٢١٣.

(٤) حفني محمد شرف، اعجاز القرآن، ٢٧.

(٥) الباقلاني، اعجاز القرآن، ٨٣-٨٤، ١٠٠-١٠١.

أنه لايعرف شيئاً في كتب المتقدمين[١] ؟ ولقد صدق الله العظيم حين قال ﴿وما كنت تتلو من قبله كتاب ولا تخطه بيمينك اذاً لارتاب المبطلون﴾[٢] .

الوجه الثالث: -وهو الأهم- إنّ القرآن بديع النظم، عجيب التأليف، متناه في البلاغة إلى حد كبير فوق مستوى البشر أجمعين[٣] . وقد اهتم الباقلاني ببيان المقصود بهذا الوجه؛ ولهذا حدثنا عن عشرة أوجه تميز بها نظم القرآن[٤] ، ولكن هذه الأوجه لم تكن جديدة في فكرتها، إذ كان مسبوقاً في معظمها، ويحسب له براعة العرض وجمال التصوير، وتلك هي الميزة الوحيدة والعظيمة في الآن نفسه لكتابه[٥] . ولكن محقق كتاب اعجاز القرآن له رأي مخالف إذ عدّ هذا الكتاب من أنفع وأجل ما كُتب في دراسات نواحي اعجاز القرآن الكريم، والكشف عن أسراره، ويمتاز الكتاب بجدة منهجه في البحث، وعمق تذوقه للأدب، ودقة فهمه لأصول البيان[٦] . وقد أيده في ذلك الدكتور علي عشري[٧] . والمطلع على هذا الكتاب يجد فيه نظرات قيّمة للباقلاني حول اعجاز القرآن الكريم، وأراء أخرى أثارت ردود فعل بين الباحثين منها:

مجمل الفكرة التي ألح عليها الباقلاني في كتابه إنّ القرآن مخالف في جملته لما اعتاده العرب من الكلام، ونظمه خارج عن جميع وجوه النظم المعتاد في كلامهم، ومباين لأساليب خطابهم[٨] ولكن ما ورد في القرآن الكريم لم يخرج عما اعتاده العرب في كلامهم لتكون حجة الله -جل اسمه- عليهم آكد ولئلا يقولوا: "إنما عجزنا عن الإتيان بمثله لأنه بغير لغتنا، وبغير السُنن التي يسلكونها في أشعارهم ومخاطباتهم ليكون عجزهم عن الاتيان بمثله أظهر وأشهر[٩] " ولو كان القرآن مغايراً لما اعتاد عليه العرب لما كان هناك داع لتحديهم بالاتيان بمثله.

---

(١) الباقلاني، اعجاز القرآن، ٨٥، ١٠١-١٠٢.

(٢) السورة العنكبوت، الآية ٤٨.

(٣) الباقلاني، اعجاز القرآن، ٨٦، ١٠٢.

(٤) السابق، ٨٧-٩٨.

(٥) خلفي حمد شرف، اعجاز القرآن البياني، ٨١.

(٦) محمد عبدالمنعم خفاجي، مقدمة تحقيق اعجاز القرآن، ٥.

(٧) علي عشري زايد، البلاغة العربية، ٥٢.

(٨) الباقلاني، اعجاز القرآن، ١٠٢.

(٩) ابن فارس، الصاحبي في فقه اللغة، تحقيق مصطفى الشُويحي، ١٩٦٣، مؤسسة بدران للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨.

وفي سبيل اثبات فكرته حاول الباقلاني تبيّن جوانب مخالفة القرآن لأساليب العرب، وبذلك يثبت تفوق بلاغة القرآن الكريم على سائر كلام البشر حتى ولو صدر عن أفصح الفصحاء[١] ، ورفض أن يكون للسجع أثر في معرفة اعجاز القرآن الكريم[٢] ، وبيّن الدكتور حفني محمد شرف بطلان هذا الرأي[٣] . ولايمكننا اعتبار أنّ المخالفة الشكلية بين نصين تقرر المفاضلة بينهما، ما لم يكن هناك عوامل أخرى يُحكم من خلالها على بلاغة النص، وهذا ما نبّه إليه القاضي عبدالجبار عندما بيّن أنّ السبق إلى نمط جديد لايعد وجهاً من وجوه الاعجاز، ما لم يكن النظم الذي يُقدّم من خلاله بليغاً أو معجزاً[٤] ، وهذا الأمر لم يتنبه إليه الباقلاني؛ ولهذا لانستطيع اعتبار الشعر الحر مثلاً أفضل من الشعر العمودي لمجرد المخالفة الشكلية، أو اعتبار العمل الروائي أرقى من العمل المسرحي.

وعندما نصل إلى القرن الخامس نجد نجد اتجاهين مختلفين يسيطران على الساحة الأدبية يمثل ابن سنان أولهما ويمثّل عبدالقاهر ثانيهما.

لم يؤلف ابن سنان كتاباً خاصاً باعجاز القرآن الكريم، لكن يمكننا تكوين فكرة عن مفهومه لاعجاز القرآن من خلال آرائه المبثوثة في كتابه "سر الفصاحة" وهو يرى أنّ القرآن معجز بوجهين[٥] فقط:

أولهما: أنه خرق العادة بفصاحته التي وقع التزايد فيها موقعاً خرج عن مقدور البشر.

ثانيهما: أن وجه الاعجاز في القرآن صَرف العرب عن المعارضة.

ولا أدري كيف يجمع ابن سنان بين رأيين لايتفقان لبيان اعجاز القرآن الكريم، وإذا كان الله –ﷻ– قد سلب العرب القدرة على معارضة القرآن الكريم، فما المبرر لمطالبتهم بالاتيان بمثله أو بآية من آياته؟

---

(١) الباقلاني، اعجاز القرآن، ١٨٣-١٩٧، ٢٠١-٢٢٤، ٢٥٨-٢٨٣.

(٢) السابق، ١٥٩-١٦٠، ١٦٢-١٦٤.

(٣) حفني محمد شرف، اعجاز القرآن البياني، ٨٣-٨٤.

(٤) القاضي عبدالجبار، المغني في أبواب التوحيد والعدل، قوّم نصه أمين الخولي، ١٩٦٠، ط١، مطبعة دار الكتب، ٢١٧/١٦.

(٥) ابن سنان، سر الفصاحة، شرح وتصحيح عبدالمتعال الصعيدي، ١٩٦٩، طبعة محمد علي صبيح وأولاده، مصر، ٤.

أما الاتجاه الثاني في القرن الخامس فكان يمثله عبدالقاهر الذي اهتم بموضوع الاعجاز القرآني وقد ألف كتابين لبحثه وهما: "دلائل الاعجاز" و "الرسالة الشافية" التي سأتحدث عنها بعد قليل. وله كذلك شرحان لكتاب محمد بن يزيد الواسطي "اعجاز القرآن في نظمه وتأليفه" ولكن مصير الشرحين لم يكن أفضل حالاً من مصير الكتاب إذ فقدت ضمن ما فُقد من تراثنا. ولا يستبعد الدكتور محمد زغلول سلام أن يكون عبدالقاهر قد تأثر بكتاب الواسطي في كتاباته وبخاصة في "دلائل الاعجاز"(١) ولكنه لم يذكر على ماذا استند عندما قال ذلك. فكتب التراجم هي التي ذكرت لنا أسماء تلك الكتب، ولم تنقل إلينا شيئاً من محتواها، وقد يكون عنوان الكتاب هو الذي دفعه إلى قول كلامه السابق فعنوان كتاب الواسطي يجمع بين الاعجاز والنظم، ونظرية النظم كانت في صلب اهتمامات عبدالقاهر، وبنى عليها فكرة الاعجاز القرآني.

وقد حصر عبدالقاهر اعجاز القرآن الكريم في نظمه وتأليفه، والنظم في نظره توخي معاني النحو وأحكامه فيما بين الكلمة(٢) . وهو لايقصد بالنحو هنا معناه التقليدي الموروث، وإنما معناه عنده أعم من هذا وأشمل(٣) . وتحول النظم عنده إلى مصطلح ذي مفهوم محدد، ينبع من حيوية الدور الذي يقوم به النحو في الكلام، ومن الآيات القرآنية التي توقف عندها مُظهراً دقة النظم فيها ودلالته(٤) . وبلاغة القرآن عنده تقوم على تلازم معانيه في الكلمات المفردة تلازماً يساعد على أداء المعنى العام المقصود في جمال وقوة، ويتم نظم هذه المعاني نظماً مستقيماً متلائماً بفضل علم النحو بمعناه الواسع الذي يشمله(٥)، وتحدث عن الفرق في الدلالة بين الإخبار بالاسم والإخبار بالفعل(٦) ، وبحث كذلك المجاز وبيّن أن حسنه يتضاعف وقيمته الفنية تزداد بالنظر إليه في موقعه في نظم معين، فجمال قوله تعالى﴿واشتعل الرأس شيباً﴾(٧) من خلال النظم(٨) الذي انتظم الكلمات الواردة في هذه الآية.

---

(١) محمد زغلول سلام، أثر القرآن في تطور النقد العربي، ٢٣٤.

(٢) عبدالقاهر الجرجاني، دلائل الاعجاز، ١٩٨٩، تعليق محمود محمد شاكر، ط٢، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ٨١، ٨٧-٨٨، ٣٦٢، ٣٧٠-٣٧١، ٣٩٢-٣٩٣.

(٣) حفني محمد شرف، اعجاز القرآن البياني، ١٠٠.

(٤) عبدالقاهر الجرجاني، دلائل الاعجاز، على سبيل المثال. ١١٣، ١١٤، ١١٨-١١٩، ١٢١.

(٥) السابق، ٣٧٦-٣٨٧، ٣٩٤-٣٩٦، ٤٠١-٤٠٣.

(٦) السابق، ١٧٥.

(٧) السورة مريم، الآية ٤.

(٨) عبدالقاهر الجرجاني، دلائل الاعجاز، ١٠٠-١٠١، ٣٩٣، ٤٠٢-٤٠٣، ٤٠٧-٤٠٨.

وعندما نصل إلى القرن السادس نجد رأياً متميزاً للسكاكي الذي رأى أن اعجاز القرآن الكريم، لايُدرك إلا بالذوق، وطول خدمة علم البلاغة، وممارسة الكلام البليغ، وذلك لأنّ شأن الاعجاز عجيب يُدرك ولا يمكن وصفه كاستقامة الوزن تُدرك ولا يمكن وصفها وكالملاحة[١]. وطبّق ذلك على قوله تعالى ﴿وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي وغيض الماء وقُضي الأمر واستوت على الجوديّ وقيل بعداً للقوم الظالمين﴾[٢] وأطال الوقوف عند مواطن الجمال في الآية السابقة مبيناً وجوه البلاغة المتعلقة بعلمي البيان والمعاني ومن جهة الفصاحة المعنوية والفصاحة اللفظية[٣] ، وليثبت أن مواطن الجمال في النص القرآني لايمكن حصرها قال: "ولا تظنن الآية مقصورة على ما ذكرت، فلعل ما تركت أكثر مما ذكرت"[٤] وهذا صحيح فأسرار النص القرآني لايمكن أن تتوقف عند حد معين، فكل باحث يرى فيه جديداً لم يتوصل إليه من سبقه.

وبعد ذلك تتابعت آراء العلماء والأدباء والمفسرين عبر العصور المختلفة محاولين تعليل اعجاز القرآن الكريم، وبمرور الأيام بدأت الآراء تميل للتجميع، إذ كان الباحث يقوم باستعراض الآراء التي قيلت قبل عصره لتفسير اعجاز القرآن الكريم، ثم كان يختار رأياً من الآراء ويتبناه، وقلما وجدنا جديداً فيما قالوه.

ولو قرأنا ما قاله الأصبهاني* -على سبيل المثال وهو من رجال القرن الثامن- حول مفهومه لاعجاز القرآن، لوجدناه يجمع بين ما قاله عبدالقاهر والسكاكي، مضيفاً إلى ما قالاه اعتبار الصرفة أحد وجوه الاعجاز في القرآن الكريم[٥] ، وهو بذلك يجمع بين رأيين لايمكن قبولهما معاً فالقول إنّ أعجاز القرآن في نظمه وفصاحته يتعارض مع القول إنّ الصرفة أحد وجوه الاعجاز القرآني.

---

(١) السكاكي، مفتاح العلوم، ١٩٦.

(٢) السورة هود، الآية ٤٤.

(٣) السكاكي، مفتاح العلوم، ١٩٧-١٩٨.

(٤) السابق، ١٩٩.

* شمس الدين أبو الثناء محمود بن عبدالرحمن الشافعي الأصبهاني (-٧٤٩هـ)، وله تفسير للقرآن الكريم، ولمزيد من التفاصيل ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، حققه وقدم له محمد سيد جاد الحق، دار الكتب الحديثة، ٥/ ٩٥-٩٦.

(٥) السيوطي، الاتقان في علوم القرآن، ١٩٥١، ط٣، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، ١/ ١٢٠ وحفني محمد شرف، اعجاز القرآن البياني، ١٥٩.

دراسة الدكتور محمد بركات أبو علي في اعجاز القرآن الكريم:

منذ البداية بيّن أنه لم يقصد من عنوان كتابه أن يستوعب دراسات الاعجاز القرآني تاريخياً أو فنياً؛ ولهذا قصر حديثه على كتاب "ثلاث رسائل في اعجاز القرآن" للرماني والخطابي وعبدالقاهر، وغرضه بيان مفهوم الاعجاز القرآني عند هؤلاء البلاغيين؛ ولهذا درس كل رسالة، ووضح قضاياها، وربط ذلك –ما أمكن– بالقضايا البلاغية والنقدية والدراسات القرآنية والنظرات النفسية والتربوية، ثم عقد فصلاً للموازنة بين ما قاله الأعلام الثلاثة متحدثاً عن مواطن الاتفاق بينهم ومن ثم مواطن الاختلاف(١). وهذا ما ينبغي أن يتجه إليه الباحثون في دراستهم فلا يكفي العرض لمضمون الكتب موضوع الدراسة فلا بد من اتباع ذلك بالتحليل والدراسة، والاستفادة من أحدث النظريات الأدبية والنقدية في أثناء دراسة كتب التراث.

وكان مما قاله الدكتور: إنّ الثلاثة أبدوا اهتماماً بابراز ما يسمى بـ "النظم" باعتباره وجهاً للإعجاز البياني في القرآن الكريم(٢) ، والفرق بينهم أنّ عبدالقاهر عدّ النظم هو الوجه الوحيد المقبول للإعجاز القرآني ويعود إليه الفضل في تطوير نظرية النظم وتحديدها، أمّا الخطابي والرماني فتحدثا عن النظم ضمن حديثهما عن الوجوه المختلفة التي قيلت لبيان الإعجاز القرآني.

ويمتاز الرماني باكثاره من الشواهد القرآنية في كتابه، فهو كان يُتبع القضايا البلاغية التي تحدث عنها بما يناسبها من الآيات القرآنية، وكذلك الحال بالنسبة إلى الخطابي، بينما نلاحظ قلة الشواهد القرآنية عند عبدالقاهر، وربما عاد ذلك "لأنه متأخر في دراسته عن الرماني والخطابي، وقد لاحظ اهتمامهما بالشواهد القرآنية من الناحية التطبيقية؛ فلذا وجد أن يقوم بابراز الدور النظري فكان ذلك(٣) ". ولكن قلة استشهاد عبدالقاهر بالنصوص القرآنية كانت من أبرز المآخذ التي أخذها الباحثون على مؤلفات عبدالقاهر بشكل عام، وليس فقط "الرسالة الشافية" وعدّوا ذلك تقصيراً ما كان ينبغي لعبدالقاهر أن يقع فيه. فالنظرية والتطبيق يكمل كل منهما الآخر ولا يمكن لأحدهما أن يسد مسد الآخر.

---

(١) محمد بركات أبو علي، ١٩٨٣، في اعجاز القرآن الكريم، ط١، مؤسسة الخافقين ومكتبتهما، ٧، ١٨.

(٢) السابق، ١٤٦ وعمر الملاحويش، ١٩٧٢، تطور دراسات اعجاز القرآن وأثرها في البلاغة العربية، مطبعة الأمانة، ٣٩١.

(٣) محمد بركات أبو علي، في اعجاز القرآن الكريم، ١٥٠.

والرماني لم يكن يكتفي بالمثال ليطبق به على القاعدة، بل كان يحاول الكشف عن السر البلاغي الدقيق الذي تضمنه المثال ولهذا صنّف الدكتور علي عشري زايد هذا الكتاب ضمن المنهج التحليلي الفني في البحث البلاغي -الذي عده من أنضج مناهج التأليف البلاغي وأكثرها اكتمالاً- لأنّ في هذا المنهج يتم المزج بين القاعدة والتذوق الفني، إذ يكون النص مصدر القاعدة، التي يُستعان بها لاضاءة جوانب النص اضاءة فنية(١) . وهذا الرأي يبرز لنا قيمة هذا الكتاب في الدراسات البلاغية القرآنية ويؤيد ذلك استعانة البلاغيين اللاحقين بما قاله لأصالته.

وقارن الرماني* بين الايجاز الوارد في قوله تعالى:﴿ولكم في القصاص حياة﴾ وقول العرب"القتل أنفى للقتل" وانتهى إلى أنّ ايجاز الآية أبلغ من ايجاز العبارة من وجوه أربعة ذكرها في كتابه(٢) . وأصبحت هذه المقارنة مدار بحث في كتب البلاغيين من بعده حتى عصرنا(٣) وكل واحد منهم يحاول اكتشاف المزيد من أوجه البلاغة في الآية القرآنية السابقة، التي تتسم باعجازها الذي لايصل إليه أفصح العظماء.

وعرض الرماني لقضية كانت موضع بحث فيما بعد بين البلاغيين، وهي "الحقيقة والمجاز" جاء ذلك في أثناء حديثه عن الاستعارة حيث كان يحلل الآية المحتوية على الاستعارة ذاكراً المعنى الحقيقي للفظ ثم المعنى المجازي، مُوضحاً الغاية الكامنة وراء النقل من المعنى الحقيقي إلى الاستعاري لأنّ الاستعارة توجب بياناً لاتنوب منابه الحقيقة، ولو كانت الحقيقة تقوم مقامه لكانت أولى به، ولم تجز الاستعارة(٤) ، ولايمكننا قبول هذا الرأي فالاستعارة ليست أبلغ دائماً بل انّ الحقيقة أبلغ من المجاز الذي لم يتطلبه المعنى أوالموقع(٥) . فلكل مقام مقال، وهذا يتضح في الآيات القرآنية التي تتحدث عن الأحكام التشريعية وأحكام الميراث فقد خلت من المجاز فهل نقول إنها غير بليغة بناء على ما قاله

---

(١) ثلاث رسائل في اعجاز القرآن للرماني والخطابي وعبدالقاهر في الدراسات القرآنية والنقد الأدبي، تحقيق محمد خلف الله، ومحمد زغلول سلام، ١٩٦٨، ط٢، دار المعارف، مصر، ٨٢-٨٥ وينظر تحليله للآيات الواردة في أبواب التشبيه والاستعارة والمبالغة والمحمدي عبدالعزيز الحناوي، ١٩٨٤، دراسات حول الاعجاز البياني في القرآن، ط١، دار الطباعة المحمدية، ١٣٧، ١٥٩، ١٦٦-١٦٨، ١٨٧-١٨٨.

* يرى عبدالقادر حسين، ربما كان المبرد أول من عقد المقارنة بين هذين المعنيين. ينظر أثر النحاة في البحث البلاغي، ٢١٨.

(٢) الرماني، ثلاث رسائل، ٧٧-٨٧.

(٣) شرف الدين الراجي، ١٩٩١، الابتداء بالنكرة في القرآن الكريم، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، ٧٦.

(٤) الرماني، ثلاث رسائل، ٨٦-٨٧.

(٥) محمد بركات أبو علي، في اعجاز القرآن، ١٤٨.

الرماني؟ كما أنّ القول السابق قد يؤدي إلى القول بتفاوت آيات القرآن الكريم من حيث البلاغة، وهذا غير صحيح.

وقام الخطابي بتقسيم دراسته إلى قسمين: نظري عرض فيه لآراء غيره في الإعجاز القرآني. وتطبيقي عرض فيه دراسته وأمثلته وشواهده وقضاياه ومحاكمتها[١] ويتمثل الجانب التطبيقي في كتابه في ردوده على المطاعن التي أثارها الطاعنون على نظم القرآن الكريم في ذلك الوقت.

وبيّن الخطابي في رسالته أنّ الناس قديماً وحديثاً ذهبوا في موضوع الاعجاز كل مذهب من القول ولكنهم لم يصدروا عن ري[٢] ، وهذا المبحث سيبقى مثار اجتهادات البلاغيين والمفسرين إلى ما شاء الله –ﷻ– فمن مظاهر اعجاز القرآن الكريم ألا يتفق الباحثون على رأي واحد، باعتباره الوجه الوحيد المقبول؛ لأننا بذلك نُقفل باب الاجتهاد والنظر في الاعجاز القرآني. الذي يمتاز بتجدده على مر الأيام. وما على الباحثين سوى الكشف عن مظاهر هذا الاعجاز وأسراره.

وقام الخطابي باستعراض الآراء التي قيلت قبله حول بلاغة القرآن الكريم واعجازه ولكنه أخذ على الذين سبقوه أنهم لم يوضحوا علة هذا الاعجاز[٣] ، فاللاحق يردد ما قاله السابق دونما محاولة توضيح أو تفسير؛ ولهذا عالج الموضوع حسبما يراه صواباً فبيّن أنّ الكلام المحمود ثلاثة أقسام: لفظ حامل، ومعنى به قائم، ورباط لهما ناظم، والقرآن معجز لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف مضمناً أحسن المعاني[٤] وهو بذلك يلمح إلى فكرة النظم ثم قام بتحليل بعض الآيات القرآنية بناء على هذا الفهم وهذا التحليل كان تحليلاً فنياً جميلاً يكشف عن ذوق وبصر بمواطن الجمال في الكلام[٥] .

---

(١) محمد بركات أبو علي، في اعجاز القرآن، ١٤٩.

(٢) الخطابي، ثلاث رسائل، ٢١.

(٣) السابق، ٢٤.

(٤) السابق، ٢٧.

(٥) محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام، مقدمة تحقيق ثلاث رسائل، ١٤، وعبدالرؤوف مخلوف، من قضايا اللغة، ٣١٩.

ويُلحظ أنّ الخطابي بعد أن قام باستعراض آراء سابقية ذكر رأيه، وكأنه ترك للمتلقي أن يقارن بين الآراء ثم يختار ما يراه أقرب إلى الصواب، وهذه طريقة تربوية موضوعية لاقناع القارئ والسامع برأيه، وتقديمه أمامه بيسر[١] . واشراك القارئ في التوصل إلى النتائج يجعله يتفاعل أكثر مع النص القرآني.

وقد تنبّه الخطابي لوجه آخر في الاعجاز القرآني وهو التأثير النفسي الذي يتأتى عند سماع آيات من القرآن الكريم؛ لأننا لانسمع كلاماً غير القرآن الكريم إذا قرع السمع خلص إلى القلب، وتستبشر به النفوس وتنشرح له الصدور وهذا الوجه غفل عنه الناس، ودليله على ذلك قصص اسلام بعض العرب بمجرد سماعهم لآيات من الذكر الحكيم[٢] . كما أنّ القرآن الكريم أشار إلى ذلك عندما قال على لسان المشركين﴿وقال الذين كفروا لاتسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون﴾[٣] .

وقد تلقف عبدالقاهر هذه الفكرة فأدار حولها بحثه في كتابه "أسرار البلاغة" و"دلائل الاعجاز" اذ اعتبر مصدر البلاغة في الكلام تأثيره في النفوس[٤] . وكذلك تأثر به دعاة الاعجاز النفسي في وقتنا الحاضر.

---

(١) محمد بركات أبو علي، في اعجاز القرآن، ١٠٣.

(٢) الخطابي، ثلاث رسائل، ٢٥، ٧٠-٧١، والمحمدي عبدالعزيز الحناوي، دراسات حول الإعجاز البياني، ١٣١.
وفتحي أحمد عامر، ١٩٧٥، بلاغة القرآن بين الفن والتاريخ، دار النهضة العربية، القاهرة: ١٧٧.

(٣) السورة فصلت، الاية ٢٦.

(٤) محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام، مقدمة تحقيق ثلاث رسائل، ١٤ ومحمد بركات أبو علي، في اعجاز القرآن، ١١١.

دراسات مقدمات التحقيق لمؤلفات بلاغة القرآن الكريم

وقد تميزت بعض الكتب التي بحثت في بلاغة القرآن الكريم بالمقدمات التي وضعها محققوها. وهذه المقدمات حفلت بالمعلومات الهامة وذات الصلة بموضوع الكتاب موضع التحقيق؛ لأنها تأتي بعد تأويل دقيق لما ورد في هذه الكتب، وبعضهم لم يكتفِ بالحديث عن محتويات الكتاب الذي هم بصدد تحقيقه؛ ولهذا قاموا باعداد مقدمات شاملة تتحدث عن الفن البلاغي الذي دار حوله الكتاب موضع التحقيق ومن هذه الدراسات:

دراسة مقدمة تحقيق كتاب "تلخيص البيان في مجازات القرآن" للدكتور محمد عبدالغني حسن:

حققه وقدّم له محمد عبدالغني حسن الذي تتبع في مقدمته الجهود التي قام بها بعض رجال البلاغة للكشف عن المجاز في القرآن الكريم ودراسته، وتعتبر دراسات أبي عبيدة والجاحظ وابن قتيبة حلقة في سلسلة التطور الذي مرت به البلاغة العربية حتى أصبحت علماً قائماً بذاته. وشكلت هذه الدراسات المهاد التاريخي الذي انطلق منه الشريف الرضي في أثناء دراسته للمجاز في القرآن الكريم.

وبعد ذلك حدثنا المحقق عن القيمة العلمية والأدبية لكتاب تلخيص البيان التي تمثلت في أنه سلك محجة لم تسلك، وطرق باباً لم يُطرق، فهو كتاب قائم بذاته مستقل بنفسه[١] فغرضه الأساسي كان تتبعُ المجاز الوارد في القرآن الكريم حسب وروده في السور القرآنية، ثم تحليل المجاز الوارد في الآية القرآنية، وتبيُّن مواطن الجمال في الآية. فلم تأتِ البلاغة عرضاً غير مقصودة لذاتها كما كان في مؤلفات السابقين، أو مختلطة بأبحاث النحو واللغة والتفسير. فهو تجنّب الخوض في مواضيع بعيدة عن غرضه الأساسي، إلا الذي لم يكن بُدّ من التطرق إليه لايضاح فكرة يريد ايصالها للقارئ.

وعدّ المحقق ما قام به الشريف الرضي يوازي ما فعله الطبري في تفسير القرآن، فتلخيص البيان تفسير للآيات المجازية في كتاب الله[٢] . وكان لايتوقف إلا عند الآيات

---

(١) الشريف الرضي، تلخيص البيان في مجازات القرآن، ١٩٥٥، ط١، دار احياء الكتب العربية، القاهرة، ٢٩.

(٢) السابق، ٣٦، ٥٨ وشفيع السيد، البحث البلاغي عند العرب: تأصيل وتقييم، دار الفكر العربي، القاهرة، ٣٤، ٣٧ ومحمد حسن شرشر، ١٩٨٧، دراسات بلاغية في القرآن والحديث الشريف، دار الطباعة المحمدية، القاهرة، ١٣.

التي فيها مجاز بياني فيحلل ما فيها حسب مفهومه للمجاز، أمّا السور التي لامجاز فيها فكان يقول: "وليس في هذه السورة شيء من غرض كتابنا"[١] أو "لم نجد في هذه السورة شيئاً من المعنى الذي قصدنا إليه"[٢] وهذا يدل على أنه يسير وفق منهج معين وغرض محدد.

وتتضح لنا أهمية هذا الكتاب والدور الذي لعبه في التطور الذي طرأ على دراسة بلاغة القرآن الكريم، من خلال الموازنات التي قام بها محقق الكتاب بين ما قاله الشريف الرضي وأبي عبيدة وابن قتيبة حول الآية نفسها موضع الموازنة[٣] . وخشية أن يُتَهم المحقق بالانحياز إلى الشريف الرضي؛ لأن نتيجة الموازنة ستكون لصالحه وفي ذلك ظلم لأبي عبيدة وابن قتيبة، وهضم لجهودهما في هذا المجال، نبّه المحقق أنّ غرضه من عقد هذه الموازنات معرفة مقدار التطور الذي حدث في النظرة إلى تأويل القرآن الكريم والكشف عن مجازه ووجوه اعجازه[٤] . فالبلاغة كانت في طور النشوء عندما ألف أبو عبيدة كتابه. وخطت خطوة عندما ألف ابن قتيبة كتابه ثم شهدت تطوراً أكثر عندما ألف الشريف الرضي كتابه. لكن تبقى الغاية التي دفعت كل واحد منهم إلى تأليف كتابه مختلفة فالرد على الطاعنين والمشككين في بلاغة القرآن كان الهاجس الأكبر عند أبي عبيدة وابن قتيبة أمّا الشريف الرضي فقد تحلل من هذا الهاجس فتفرغ لبيان مظاهر البلاغة في النص القرآني وتحليله.

وتبقى ظاهرة لافتة للانتباه وهي انّ مفهوم الشريف الرضي للاستعارة اتسع ليشمل ما عُرف فيما بعد بالمجاز المرسل والمجاز العقلي والكناية بل قد يختلط بمفهوم التشبيه البليغ[٥] ، وهذا ما لاحظناه على مفهوم المجاز عند أبي عبيدة ولئن كان السبب معروفاً عند أبي عبيدة ومقبولاً إلاّ أن الأمر ينبغي أن يختلف عند الشريف الرضي الذي توفي في (٤٠٦هـ). وليس هذا فحسب بل لاحظ الدكتور علي عشري أنّ كثيراً من الصور التي اعتبرها ابن قتيبة استعارة -وهي ليست استعارة- اعتبرها الشريف الرضي

---

(١) الشريف الرضي، تلخيص البيان في مجازات القرآن، ٣٦٠.

(٢) السابق، ٣٥٩.

(٣) محمد عبدالغني حسن، مقدمة تلخيص البيان .

(٤) السابق، ٥٠، ٥٢.

(٥) السابق على سبيل المثال: ١١٥، ١١٩، ١٢١، ١٢٧، ١٩٥-١٩٦، ٢٠٠، ٢٢٠، ٢٣٧، ٣٤٣، ٣٥٥-٣٥٦، ٣٦٣-٣٦٤.

بدوره استعارة[١] . ويزداد الأمر غرابة إذا قرأنا تحليله للآيات التي ورد فيها مجاز عقلي بتضح لنا أنه يدرك مفهوم المجاز العقلي على نحو ما حدده البلاغيون فيما بعد، لكنه بحثها في باب الاستعارة[٢] وقد حاول المحقق تعليل هذه الظاهرة بأنّ المسميات والمصطلحات والتفرقة بين المجاز والاستعارة لم تكن قد وُضعت أو عُرفت في عصر الشريف الرضي[٣] . وهذا التعليل يُقبل إلى حد ما، ولكنه لايبرر خلطه بين الاستعارة والتشبيه البليغ مثلاً؛ لأنّ هذه القضية كانت مدار بحث بين البلاغيين الذين بدأوا في التفرقة بينهما منذ زمن مبكر. ولايمكننا نسيان محاولات القاضي الجرجاني[٤] –مثلاً– في هذا المجال، فالشريف الرضي ما زال يستخدم الاستعارة بمفهوم قريب جداً من مفهومها اللغوي العام.

وقد علل الدكتور شفيع السيد هذه الظاهرة بأنّ غاية الشريف الرضي كانت مُنصرِفة إلى رصد ما يراه من قبيل المجاز في القرآن وتفسيره دونما توقف لتمحيص بعض الأساليب ومعرفة مدى انطباق مدلول المجاز أو الاستعارة عليها[٥] . وغاب عن ذهن الدكتور شفيع السيد أنّ الشريف الرضي قد وُفق في تحليله للعديد من الآيات القرآنية التي فيها استعارات، وكان تحليله ينم عن فهم دقيق لهذا المصطلح[٦] . وكذلك تحليله للآيات المحتوية على المجاز العقلي كما قلت قبل قليل.

وعلى العموم فقد حظي هذا الكتاب بتقدير الباحثين المعاصرين، وقد قام الدكتور محمد بركات أبو علي بدراسة التصور البلاغي في كتاب تلخيص البيان[٧] . وهذا هو الكتاب الوحيد –فيما أعلم– قد بحث هذا الجانب في كتاب الشريف الرضي.

---

(١) علي عشري زايد، البلاغة العربية، ١٦١.

(٢) الشريف الرضي، تلخيص البيان، ١٦١.

(٣) محمد عبد الغني حسن، تلخيص البيان في مجازات القرآن، ٥٧.

(٤) الجرجاني، الوساطة بين المتنبي وخصومه، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم وعلي محمد البجاوي. دار القلم بيروت، ٤١.
ومحمود السيد شيخون، ١٩٨٤، الاستعارة: نشأتها –تطورها– أثرها في الأساليب العربية، ط٢، الكليات الأزهرية، القاهرة، ٢١.

(٥) وشفيع السيد، البحث البلاغي عند العرب، ٣٧.

(٦) الشريف الرضي، تلخيص البيان في مجازات القرآن، ١١٩، ١٢١، ١٩٦–١٩٧.

(٧) محمد بركات أبو علي، ١٩٨٦، مقدمة في دراسة البيان العربي، دار الفكر للنشر والتوزيع،عمان، ٧٤–٩٣.

مقدمة تحقيق كتاب "الجمان في تشبيهات القرآن" للدكتور أحمد مطلوب والدكتورة خديجة الحديثي:

في البدء ينبغي الاشارة إلى أنّ بعض الباحثين المعاصرين في تاريخ البلاغة العربية لم يتحدثوا عن هذا الكتاب في مؤلفاتهم اعتقاداً منهم أنّ هذا الكتاب كتاب أدب بالمعنى الواسع لهذه الكلمة، وهو الثقافة المتنوعة[١]؛ ولهذا فإنّ الدرس البلاغي لم يفد كثيراً من هذا الكتاب وإنما جلّ ما في الأمر أنه أثر من آثار العناية بالقرآن الكريم من أحد علماء القرن الخامس الهجري[٢] . وقد يكون الذي دفعهم إلى اصدار الحكم السابق ما وجدوه في كتاب ابن ناقيا من التوسع في بحث موضوعات أخرى لاتمت إلى البلاغة بصلة كحديثه عن الشياطين والغيلان، وقصة ذي الإصبع العدواني مع بناته، ومذهب المحدثين في ذكر ما يكون من الأمطار، وما قيل في الهرم والسقم بعد الشباب والصحة وزوال متاع الدنيا، وصعاليك العرب وأرباب الغارة، وما قيل في الرياح وأسمائها من لغة وشعر، وضرب الأمثال بعطاش الإبل...[٣] الخ وما عرضت له سابقاً هو جزء يسير من الموضوعات الأخرى التي بحثها في كتابه وهي تدل على ثقافته الواسعة، والكتاب أقرب إلى موسوعة من كتاب متخصص في البلاغة. هذا بالاضافة إلى استشهاده بكلام العرب من النثر والشعر من مختلف العصور الأدبية.

أمّا محققا أحمد مطلوب وخديجة الحديثي الكتاب فيريان عكس ذلك ويعتبران هذا الكتاب مصدراً مهماً في دراسة تفسير القرآن، والبلاغة العربية، والأدب الرفيع. ولعل هذا الكتاب يكون منطلقاً لدراسات قرآنية جديدة، وبحوث بلاغية طريفة[٤] إذا ما تيسرت الدراسة المتعمقة له.

وميزة هذا الكتاب تكمن في أنه أول كتاب يبحث في تشبيهات كتاب الله العزيز، -وإن سبقته كتب بحثت في التشبيهات بشكل عام- والتشبيه الوارد في القرآن الكريم أحدها أمّا هو فقد ألف كتابه من أجل بحث هذا الفن في القرآن ورتبه حسب ترتيب السور

---

(١) فتحي أحمد عامر، بلاغة القرآن بين الفن والتاريخ، ٦.

(٢) بدوي طبانة، البيان العربي، ٦٣، ٦٤.

(٣) ابن ناقيا البغدادي، الجمان في تشبيهات القرآن، تحقيق أحمد مطلوب وخديجة الحديثي، ١٩٦٨، دار الجمهورية، بغداد، ينظر على سبيل المثال: ٦٤، ٨٨، ٩٧، ١٠٣، ٢٦٢، ٢٩٥، ٣٢٩.

(٤) السابق، ٣٥.

القرآنية وآياته فكان يقف عند كل آية ورد فيها تشبيه، مفسراً وموضحاً التشبيه ومقارناً ومستشهداً بأشعار العرب، ومن هنا تظهر بوضوح قيمة هذا الكتاب في الدراسات القرآنية والبلاغية[١] . ومن نظر إلى المباحث البلاغية الواردة في الكتاب يقول: إنه كتاب بلاغة، ومن نظر إلى المباحث الأخرى الواردة في الكتاب يقول إنه كتاب أدب، فهو يجمع ما بين البلاغة والأدب والثقافة العامة. وقد صنفه الدكتورعبدالرحيم عبدالجليل ضمن التفاسير البلاغية للقرآن الكريم[٢] .

ولم يحظ هذا الكتاب بعناية الباحثين ولم يحاولوا بيان المواطن التي أجاد فيها أو المواطن التي لم يوفق في عرضها. أما السبب في ذلك فعائد إلى الطابع الموسوعي لهذا الكتاب؛ ولهذا سأحاول التوقف عند بعض المحطات الخاصة بالبلاغة في هذا الكتاب.

والمُطّلع على هذا الكتاب يلاحظ أنه لم يكن يكتفي بتحليل التشبيه الوارد في الآيات القرآنية، بل كان يتبع ذلك بالحديث عن الغاية المستفادة من وجود التشبيه في الآية القرآنية، وتبين قيمة هذا التشبيه ورأيه فيه[٣] . كما أنه كان باستمرار يربط بين التشبيه الوارد في الآية القرآنية موضع الشاهد، وما اعتاد عليه العرب في نظم كلامهم[٤] . وهدفه بيان أنّ القرآن الكريم لم يخالف طريقة العرب في التعبير عن مشاعرهم، وهذا ما بهر العرب في ذلك الوقت.

ولجأ الى الموازنة بين ما ورد في القرآن الكريم من تشبيهات وما اتفق مع معانيها وألفاظها وصورها من أشعار العرب من مختلف العصور الأدبية، فقد يتأثر شاعر ما بما ورد في القرآن الكريم من ألفاظ وصور ومعانٍ، ولكنه لايبلغ شأن القرآن الكريم فشتان بين الكلامين ولله المثل الأعلى[٥] ، والطريف في الأمر أنه قام بالموازنة بين بعض ما ورد في أشعار امرئ القيس من صور ومعان، وبين ما ورد في القرآن الكريم، وكانت النتيجة لفظ القرآن يبقى أفصح وأوضح وأحسن[٦] . وكأنه يريد القول إنّ أفصح فصحاء

---

(١) أحمد مطلوب وخديجة الحديثي، مقدمة تحقيق الجمان في تشبيهات القرآن، ٣٥.

(٢) عبدالرحيم عبدالجليل، ١٩٨١، لغة القرآن الكريم، ط١، مكتبة الرسالة الحديثة. ٥٢٢-٥٢٤.

(٣) ابن ناقيا البغدادي،.الجمان في تشبيهات القرآن، ١٨٨، ٣٧٤.

(٤) السابق، ٢٧٢، ٢٧٤، ٢٨٠، ٢٩٠-٢٩٢.

(٥) السابق، ٥٠-٥٤، ٣٨٢-٣٨٣، ٣٤٩، ٣٥١.

(٦) السابق، ٥٩، ٦٠-٦١، ٣٠٢.

العرب لايستطيع الوصول إلى ما في القرآن الكريم من بلاغة، خشية أن يقول قائل لو نزل القرآن الكريم في عهد الشعراء الأوائل لربما استطاعوا معارضة ما في القرآن.

ويمكنني القول إنّ موازنته أقرب إلى الروح العلمية من موازنة الباقلاني مثلاً؛ لأنه كان يحرص على وجود صلة ما تربط بين الآية القرآنية والنص الشعري موضع الموازنة ليظهر لنا تفوق القرآن.

أما رأيه في اعجاز القرآن الكريم، فقد جاء عرضاً في أثناء تحليله لقوله تعالى ﴿لاالشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون﴾(١) فقد حدثنا في البداية عن عدم مقدرة العرب على مماثلة ما ورد في القرآن الكريم، على الرغم من كونهم أرباب الفصاحة، فكانت القرائح مصروفة عن معارضته والخواطر مفحمة عن مضاهاته والألسنة مكفوفة عن النطق بمثله(٢) . يُفهم من قوله تعالى ﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لايأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً﴾(٣) ولا أدري هل كان يؤمن بالصرفة، أم هي مجرد عبارة ذكرها دونما تنبّه لدلالتها؛ لأنه لم يُذكر اسمه ضمن البلاغيين الذين رأوا في الصرفة وجهاً من وجوه اعجاز القرآن الكريم.

دراسة مقدمة تحقيق كتاب "بديع القرآن" للدكتور حفني محمد شرف:

قام حفني محمد شرف بتحقيق هذا الكتاب، وفي مقدمة تحقيقه قام ببيان مفهوم البديع لغة واصطلاحاً وتتبع ما ورد في كلام العرب شعرهم ونثرهم وله علاقة بالبديع، ثم تحدث عن الآراء البلاغية الخاصة ببديع القرآن وبلاغته المتفرقة في ثنايا الكتب البلاغية الخاصة بالمعتزلة والمفسرين والأدباء. وهدفه من ذلك ابراز الجهد الذي بذله ابن ابي الإصبع في هذا الميدان ومعرفة مقدار التطور الذي حدث لمفهوم بديع القرآن في عصر ابن أبي الإصبع.

وصنّف المحقق هذا الكتاب ضمن الكتب الخاصة بالدراسات القرآنية، وهي التي أُفردت لدراسة بلاغة القرآن التي كانت في السابق عبارة عن عدة آراء متناثرة في المؤلفات البلاغية.

---

(١) السورة يس، الآية ٤٠.

(٢) ابن ناقيا البغدادي، الجمان في تشبيهات القرآن، ٢٤١.

(٣) السورة الاسراء، الآية ٨٨.

ومما يعطي هذا الكتاب ميزة تميزه عن غيره من الكتب السابقة له كما يقول محققه أنه لم يعثر على كتاب أفرده مؤلفه لدراسة الأنواع البديعية في القرآن قبل ابن أبي الإصبع[١] . وهذا الكلام غير دقيق لأنه لايُعقل أن نصل إلى هذا القرن ولا نجد كتابا تحدث عن بديع القرآن الكريم وبخاصة إذا علمنا أنّ ابن أبي الإصبع يطلق البديع ويقصد به البلاغة بمفهومها الواسع، وإلا فأين سنضع كتابي الشريف الرضي وابن ناقيا البغدادي مثلاً؟ التي خُصصت لبحث فن بلاغي قرآني واحد.

وطريقته في تناول الأنواع البديعية الواردة في القرآن الكريم تتمثل في استخراجه من الآية القرآنية الواحدة أكبر عدد ممكن من الأنواع البديعية، مثلاً تحدث عن أربعة عشر نوعاً من البديع[٢] ورد في قوله تعالى ﴿ليهلك من هلك عن بيّنه ويحيى من حيّ عن بيّنة﴾[٣] وتحدث عنها في باب الاستدراك.

واستخرج من قوله تعالى ﴿وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء اقلعي وغيض الماء وقُضي الأمر واستوت على الجودي وقيل بُعدا للقوم الظالمين﴾[٤] واحداً وعشرين ضرباً من البلاغة، وتحدث عنها في باب الإبداع[٥] . وهذه الآية كانت موضع اهتمام البلاغيين على مر العصور وكل واحد يحاول تبيّن مواطن اعجاز جديدة فيها. ويوجد رسالتان خصصهما مؤلفاهما للحديث عن مواطن الجمال في هذه الآية[٦] فقط.

وهذه الطريقة التي اتبعها لها محاذير فقد تؤدي إلى نوع من التكلف والتمحّل، وتقسيم الفن البلاغي الواحد إلى عدة أقسام؛ لأنّ الهاجس الأكبر يصبح المقدرة على اكتشاف أكبر عدد ممكن من الفنون البديعية في الآية الواحدة.

وقد أثنى المحقق على الجهد المبذول في هذا الكتاب وقال عنه: "إنه نسيج وحده فيما جاء في آيات الذكر الحكيم من الأنواع البديعية التي جمعها عن السابقين والتي

---

(١) ابن أبي الإصبع، بديع القرآن، تحقيق حفني محمد شرف، ١٩٥٧، ط١، مكتبة نهضة مصر، الفجالة، ١/٤٥ .

(٢) السابق، ٢/١١٧.

(٣) السورة الأنفال، الآية ٤٢.

(٤) السورة هود، الآية ٤٤.

(٥) ابن ابي الإصبع، بديع القرآن، ٢/٣٤٠.

(٦) محمد جمال الدين القاسمي، ١٩٩٤، تفسير القاسمي المسمى محاسن التأويل، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي، ط٢. مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، ٩/٣١٠ ومحمد رشيد رضا، تفسير القرآن الكريم، الشهير بتفسير المنار، دار المعرفة، بيروت، ١٢/١٠٠.

اخترعها هو، فإنه أتى فيه بالعجب العجاب، ليدلل بذلك على أنّ الأنواع البلاغية والمحسنات البديعية غير مقصورة على شعر الشعراء ونثر الكتاب، بل هي موجودة في القرآن[١] " وهذا صحيح لأنه قام بجمع آراء من سبقوه إلى التأليف في علم البديع. وزاد عليها، ورتبها ونقدها بحيث قام بتغيير تسمية بعض الفنون التي لم يُعجَب باسمها، أو التي شعر أنّ الاسم غير مناسب لمسماه[٢] ، وهذا يدل على أنه قام بدراسة وافية للمؤلفات التي سبقته وأنه لم يكن مجرد ناقل لما قاله السابقون.

واعتبر الدكتور بدوي طبانة هذا الكتاب كتاباً فريداً في بابه، لأنّ مؤلفه جاء في فترة سبقها نضج في الدراسات البيانية وتنوعها، فحاول المؤلف أن يفيد من جهود سابقيه في البلاغة والنقد، وأن يجعل كتابه تطبيقاً لآيات القرآن على ما عرفه من فنون البيان والبديع[٣] ، ومع ذلك تميّز في طريقة تناوله للمادة، وبرزت شخصيته المستقلة في تحليله للآيات القرآنية. وفيما أضافه من فنون بديعية.

وسمّى الدكتور علي عشري زايد المنهج الذي اتبعه ابن أبي الإصبع في كتابه "المنهج التجميعي في البحث البلاغي" لأنه بوّب المادة البلاغية التي جمعها، وما أضافه إليها من فنون، حسب الفنون البلاغية التي تنتمي إليها، ودرس كل فن في ذاته وعرفه وحصر أقسامه وحدوده، مستشهداً بالأمثلة المناسبة من الآيات القرآنية ثم بالشعر والنثر[٤]. وبهذا المنهج يكون قد اختط لنفسه أسلوباً خاصاً خلافاً لما سار عليه سابقوه ممن تتبعوا فناً بلاغياً ورد في القرآن الكريم.

ولجأ ابن أبي الإصبع إلى أسلوب الموازنة بين الآيات القرآنية والأبيات الشعرية -وهو لم يكن منفرداً بهذه الطريقة على أية حال- إلاّ أنه كان يختار الآيات القرآنية والأبيات الشعرية التي تتفق في الفن البلاغي. ليكشف عن بلاغة القرآن وحسن بديعه. ومن الأمثلة على ذلك مقارنته بين حسن التقسيم الوارد في قوله تعالى ﴿والذين يؤمنون بما أُنزل إليك من قبلك وبالآخرة هم يوقنون﴾[٥] وقول زهير بن أبي سلمى الذي يعد أجلّ بيت لصحة التقسيم وأبلغه وهو:

---

(١) ابن أبي الاصبع، بديع القرآن، ٦١/١.

(٢) السابق، ٢٩٩/٢، ٢٣١.

(٣) بدوي طبانة، البيان العربي، ٦٦.

(٤) علي عشري زايد، البلاغة العربية، ١٦٠.

(٥) السورة البقرة، الآية ٤.

وأعلم ما في اليوم والأمس قبله ولكنني عن علم ما في غد عم[١]

ثم قارنه بحديث للرسول -عليه السلام- وبقول لعلي بن أبي طالب. وكانت النتيجة تقصير بيت الشعر عن الوصول إلى مستوى البلاغة الكامن في المثل الأعلى للفصاحة في القرآن وكلام الرسول -عليه السلام-[٢] .

وقد سار على المنهج نفسه الدكتور أحمد بدوي عندما قام بالموازنة بين ما ورد في قوله تعالى ﴿والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم﴾[٣] وبين ما قاله بعض الشعراء في وصف القمر، وانتهى في موازنته إلى أنّ القرآن الكريم يتفوق على ما ورد في الشعر[٤] وبيّن تفوق القرآن الكريم في حديثه عن الغزوات على ما قاله الشعراء عن الموضوع نفسه[٥] . ووعد أن يتابع هذا الموضوع.

---

(١) زهير بن أبي سلمى، شرح الديوان، صنعة ثعلب، نسخة الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ٢٩.

(٢) ابن أبي الإصبع، بديع القرآن، ٢/٧٠-٧٢.

(٣) السورة يس، الآية ٣٩.

(٤) أحمد بدوي، ١٩٥٠، من بلاغة القرآن، ط٢، مكتبة نهضة مصر ومطبعتها، ٣٣٨-٣٩٦.

(٥) السابق، ٣٩٩-٤٠٠.

دراسات حول علم من أعلام بلاغة القرآن

وهذا هو النوع الأخير من الدراسات البلاغية المعاصرة التي توقفت عنده، وهذه الدراسات تقوم على البحث في الفكر البلاغي لأحد الأعلام الذين بحثوا في بلاغة القرآن عن طريق النظر المتعمق في مؤلفاتهم وتبرز جهودهم البلاغية التي قد لايتسنى ابرازها من خلال المؤلفات التي تتحدث عن بلاغة القرآن الكريم بشكل عام. ومن هذه الدراسات:

دراسة الدكتور عبدالفتاح لاشين بلاغة القرآن في آثار القاضي عبدالجبار:

خصصها للحديث عن جهود القاضي عبدالجبار البلاغية، وفي البداية حدثنا عن الدوافع التي دفعته إلى اختيار هذه الشخصية لدراستها وهي خلو المكتبة العربية من الدراسات التي تتناول جهود المعتزلة في البلاغة والاعجاز وبخاصة المتقدمين منهم. وأمّا المتأخرون منهم فقد دُرسوا وبُحثوا؛ ولهذا يُعد هذا البحث أول دراسة لعلم من أعلام البلاغة والاعجاز المغمورين، كما أنه يُعد -لأول مرة- عرضاً أميناً لتفسير المعتزلة وتوجيهاتهم من خلال مؤلفاتهم أنفسهم[١] . ومن هنا تأتي ميزة هذا الكتاب الذي يعرض لوجهة نظر المعتزلة في التفكير البلاغي صافياً كما ورد في مؤلفاتهم.

وفي هذه الدراسة سلّط الدكتور عبدالفتاح الأضواء على الجهود التي بذلها القاضي لإبراز بلاغة القرآن الكريم واعجازه، وأثبت أنّ كثيراً من البلاغيين القدماء قد استفادوا مما قاله ولكن قلة منهم اعترفت بفضله منهم الشريف الرضي والرازي[٢] أمّا الذين أخذوا عنه ولم يقروا بفضله فمنهم الشريف المرتضى، والزمخشري، وعبدالقاهر الجرجاني[٣] . ولم يقل الدكتور الكلام السابق إلا بعد أن عرض نماذج مما قاله كل واحد منهم ليأتي بالدليل القاطع على تأثر هؤلاء البلاغيين بفكر القاضي، وخشية أن يُظن أنّ تأثر هؤلاء بالقاضي كان تأثراً عاماً، أكثر الدكتور من النصوص للموازنة بينهما؛ ليصل القارئ معه إلى النتائج التي توصل إليها[٤] وحاول تلّمس الأسباب التي دفعتهم إلى اغفال ذكر فضل القاضي عليهم[٥] على الرغم من وضوح تأثرهم به. وهذه الظاهرة فعلاً تستحق الدراسة والبحث فهي جديرة بذلك، فهي ظاهرة قديمة جديدة في آن واحد، ومما يثير الدهشة قيام

---

(١) عبدالفتاح لاشين،١٩٧٨،بلاغة القرآن في آثار القاضي عبدالجبار وأثره في الدراسات البلاغية،دار الفكر العربي. القاهرة، ٦-٨.

(٢) السابق، ٤٨٨، ٥٣٢، ٥٣٦، ٥٧٠.

(٣) السابق، ٦٧، ٤٨٦، ٤٨٧، ٥٠٨، ٥٦٧، ٧٨٥.

(٤) السابق، على سبيل المثال: ٥٠٨-٥٢٧، ٥٦٧-٥٩٥، ٦٥٤-٦٥٩.

(٥) السابق، ٥٩٦، ٧١٤-٧١٥.

الدكتور عبدالفتاح لاشين ببحث هذه الظاهرة، ولو قارنا بين ما ورد في كتابه وما قاله عبدالكريم الخطيب في كتابه "اعجاز القرآن في دراسات السابقين" القسم الأول: نجد مواضع كثيرة في الكتابين متشابهة لابل تكاد تصل إلى درجة النقل الحرفي. وبالصياغة نفسها، والاعتماد على النصوص نفسها التي أخذت من المصادر الأصلية لدراستها[١] وتحليلها.

وبعد أن استعرض الدكتور المباحث البلاغية التي تحدث عنها القاضي في مؤلفاته توصل إلى أنّ القاضي قد عرف ما سُمّي فيما بعد بالاستعارة التهكمية الأصلية والتبعية والاستعارة في الحرف، من خلال تأويله لبعض الأبيات المحتوية على الاستعارة، وشرحه لها، واكثاره من الشواهد وتحليله ولم يبقَ لمن بعده إلاّ اطلاق التسمية، وقد عرض الدكتور النماذج الكثيرة الدالة على ذلك[٢] . وبذلك يكون قد أنصف القاضي عن طريق ابراز جهوده في هذا الميدان، وهذا قد يدفعنا إلى اعادة النظر في بعض ما شاع بين الباحثين في هذا المجال.

وقد أثبت أنّ القاضي عبدالجبار قد سبق الزمخشري في إضافة العلاقات التالية الى المجاز المرسل: تسمية الشيء باسم جزئه، واعتبار ما يؤول إليه، والمسببية، مستنتجاً ذلك من تحليل القاضي للآيات القرآنية المحتوية على المجاز المرسل[٣] . وهذه النتائج تفيدنا عندما نؤرخ للتفكير البلاغي عند العرب فلا بد من اعطاء كل ذي حق حقه.

وتميز القاضي عبدالجبار في حديثه عن المجاز العقلي[٤] ، حتى جاز لعبدالفتاح لاشين اعتباره المؤسس الأول للمجاز العقلي؛ لأنه كشف عن أسراره بما لم يُسبق به.

---

(١) سأذكر أرقام الصفحات من الكتابين موضع المقارنة والرقم الأول من كتاب الدكتور عبدالفتاح لاشين والرقم الثاني من كتاب عبدالكريم الخطيب، ١٩٧٥، اعجاز القرآن في دراسات السابقين، ط٢، دار المعرفة للطباعة والنشر ، لبنان، الجزء الأول، ٤٣٥، ٤٣٦، ٤٤٢، ٤٥٨، ٤٥١، ٤٦٨، ٤٦٩، ٤٧٠ و١/١٧٧، ١٨٢، ١٩٤، ٢٠٤، ٢٢٤، ٢٢٥، ٢٣٣-٢٤٤، ٣٦٧-٣٦٨.

(٢) القاضي عبدالجبار، تنزيه القرآن عن المطاعن، دار النهضة الحديثة، بيروت، ١٠٨، ١٧٨، ٣٠٨، ٤٤٠-٤٤١ ومتشابه القرآن، تحقيق عدنان محمد زرزور، ١٩٦٩، دار التراث. القاهرة، ١/٦٣، ١٦٨، ١٧٤-١٧٥، ١٧٩، ٢٠٥، ٣٠٥. وعبدالفتاح لاشين، بلاغة القرآن في آثار القاضي، ٢٨٧-٢٨٨، ٢٩٠-٢٩٨.

(٣) القاضي عبدالجبار، التنزيه، ٧٨، ٨٠، ١٨٥، ٢٢٠، ٢٧٨، ٣١٢، ٣٢١-٣٢٢، ٣٥٣، ٤٦١ والمتشابه، ١/ ١٠٥، ١٦١ و ٢/٦٣٧-٦٣٨، ٦٧٣-٦٧٤، ٦٦٧. وعبدالفتاح لاشين، بلاغة القرآن في آثار القاضي، ٣١٥، ٣٢١، ٣٢٣، ٣٢٧، ٣٢٩، ٣٣٠.

(٤) السابق، ١٩٩٠، ٢٠٧ والسابق١/٦٠، ٦٩، ٨٩-٩٠، ١٨٤-١٨٥ و ٢/٤٧٥، ٥٤٣، ٥٢٥ السابق، ٧٨٣.

ولو تساءلنا عن كيفية معالجة القاضي للمصطلحات البلاغية فإننا نقول: من الصعب اطلاق التسميات أو المصطلحات والتفريعات في ذلك العصر المبكر في تاريخ تطور البلاغة العربية لأنّ ذلك يتم في مرحلة نضج العلوم، ولذلك لم نجد الاكثار من اطلاق المصطلحات البلاغية فيما كتبه القاضي ولاعجب في ذلك، لكن من المستغرب عدم تسمية القاضي الاستعارة باسمها في أثناء حديثه عنها وكان يقول بدلاً منها التوسع في اللغة أو التمثيل أو المجاز[١] على الرغم من شيوع هذه التسمية في عصره، وانتشارها في مباحث المتقدمين له ممن تحدث عنها. وحديث القاضي عنها لايقل دقة عمن سماها باسمها، وقد علل الدكتور عبدالفتاح ذلك؛ بأنّ الشغل الشاغل للقاضي كان تأويل الآيات المتشابهة، ولم يدر بخلده أن يضع لتوجيهاته تلك وتفسيراته هذه التسمية الاصطلاحية وهي الاستعارة[٢] . ولم يكن القاضي وحده الذي فعل ذلك فأصحاب الدراسات القرآنية – على ما يبدو – لم يهتموا بالمصطلحات وتسمياتها[٣] ، فالباقلاني لم يحاول تعريف السجع مثلاً أو البديع الذي نفى أن يكون من الوسائل التي يُعرف من خلالها الاعجاز القرآني[٤]

ونحن : نطالبهم بما لم يكن متيسراً لهم، لكن في الوقت نفسه لانقبل منهم أن يهملوا ذكر المصطلحات التي عُرفت واستقرت في الأذهان بين الناس وعلى العموم تبقى هذه الظاهرة تستحق الدراسة والبحث.

دراسة الدكتور مصطفى الصاوي الجويني منهج الزمخشري في تفسير القرآن وبيان اعجازه:

تحدث في دراسته عن المنهج الذي اتبعه الزمخشري في أثناء تفسيره للقرآن الكريم، الذي كان يقوم على توظيف قدراته اللغوية والعقلية في تحليله للآيات القرآنية ليظهر مواطن الجمال فيها، مبرزاً في أثناء ذلك مواطن الاعجاز في القرآن الكريم على الرغم من ميله إلى فكره الاعتزالي وتوجيهه الآيات توجيهاً ينسجم مع فكره، وهذا من أبرز المآخذ التي أُخذت على تفسيره[٥] وعلى الرغم من ذلك فإنه يبقى من أهم التفاسير

---

(١) القاضي عبدالجبار، التنزيه، ١٤٥، ٢٠٠، ٢٢٢، ٢٦٢-٢٦٤ والمتشابه، ١/٥١، ٥٤، ٥٨-٥٩، ١٣٣، ١٩٧-١٩٨ و ٢/٤١٣، ٤٦٦-٤٧٧، ٥٢٥-٥٢٦، ٥٦٥، ٦٠٢، ٦١٧، ٦٧٧.

(٢) عبدالفتاح لاشين، بلاغة القرآن في آثار القاضي عبدالجبار، ٢١٨، ٢١٥، ٢٨٧.

(٣) علي مهدي زيتون، ١٩٩٢، اعجاز القرآن وأثره في تطور النقد الأدبي من أول القرن الخامس إلى نهاية القرن السابع، دار المشرق، ٤٢.

(٤) الباقلاني، اعجاز القرآن، ١١٠-١٢٠، ١٥٩، ١٦٢-١٦٣.

(٥) مصطفى الصاوي الجويني، منهج الزمخشري في تفسير القرآن وبيان اعجازه، دار المعارف، مصر، ٢٩٥-٢٩٦.

التي اعتمدت على البلاغة[١] بالدرجة الأولى في التفسير، وكتابه تطبيق عملي لما قاله عبدالقاهر في كتبه.

وقد حظي الزمخشري باهتمام الباحثين الذين تحدثوا عن منهجه في التفسير وعن كيفية توظيفه للبلاغة في تفسيره. وأثره في اللاحقين وغير ذلك من القضايا[١] التي بحثها المعاصرون في دراسات مخصصة للزمخشري[٢] بالاضافة إلى الدراسات التي كانت تتحدث عنه في معرض حديثها عن بلاغة القرآن الكريم، وعن مفسري القرآن الكريم، ولهذا سأكتفي هنا بالحديث عن فكرتين اثنتين جديرتين بالتوقف عندهما وهما:

الأولى: التشابه الكبير الذي وجده مصطفى الصاوي الجويني بين تفسير الزمخشري وتفسير الرماني الذي لم يبق منه إلا جزء "عم" واتضح له كذلك أنّ الزمخشري سار على نهجه، وذكر أمثلة من التفسيرين تثبت هذا التأثر[٣] . وعلل الباحث هذه الظاهرة بأنّ من عادة القدماء في التأليف النقل عمن يعجبون به دون اسناده لصاحبه، إمّا لشهرة القول أو لأن العلم ملك للجميع يُؤخذ منه ما يُؤخذ ويُترك ما يُترك ما دامت شخصية الناقل تسيطر على ما تنقل بعلمها ومعرفتها[٤] ، ولكن هذه الطريقة تسلب الباحثين جهدهم وتميزهم، وهذه سمة ما زالت حتى وقتنا الحاضر، إذ لاحظت التأثر الواضح عند الباحثين المعاصرين بما قاله سيد قطب –مثلاً– ولكن قسماً منهم لم يشر إليه إطلاقاً[٥] .

---

(١) الزمخشري، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، رتبه وضبطه مصطفى حسين أحمد، دار الريان للتراث، القاهرة. ودار الكتاب العربي، بيروت. يُنظر على سبيل المثال: ١/١٣–١٤، ٤٣–٤٤، ٦٦، ٩٥، ٧٠–٧٢، ١١٩و ٢/٣٣٤، ٧٢٥، ٣/٥٢، ٣٦٠، ٤٣٧ و ٤/٥٣٠، ٦٨٠.

(٢) منها على سبيل المثال:

درويش الجندي، ١٩٦٩، النظم القرآني في كشاف الزمخشري، مطبعة نهضة مصر ومحمد أبو موسى، البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري وأثرها في الدراسات البلاغية، دار الفكر العربي، القاهرة وأحمد محمد الحوفي، ١٩٦٦، الزمخشري، ط١، دار الفكر العربي.

(٣) مصطفى الصاوي الجويني، منهج الزمخشري في تفسير القرآن، ٨٥–٨٨.

(٤) السابق، ٨٧.

(٥) ينظر هذه الدراسة.

وقد لمس القدماء تأثر الزمخشري بما قاله الرماني ومنهم ابن تغري بردي حين قال: إنّ الزمخشري سلك مسلك الرماني، ونهج نهجه في التفسير[١] ولو لم يكن الأمر لافتاً لما توقف عنده ابن تغري بردي.

والثانية: عدم اهتمام الزمخشري بالبديع في أثناء تفسيره وقلّما توقف عنده، وهذه سمة مميزة للمتكلمين الذين نظروا في بلاغة القرآن الكريم بدءاً بالباقلاني ومروراً بعبدالقاهر، إذ رأيناهم ينحّون البديع عن مباحث أسرار البلاغة في الذكر الحكيم، ولا يرونه داخلاً في قضية الاعجاز القرآني؛ لأنّ كثيراً من ألوانه مستحدث، وما جاء منه في القرآن إنما جاء دون تأتٍ له وتكلف، ومضى الزمخشري على هذا الهدى لايُعنى بما جاء في الآيات الكريمة من بديع إلا عرضا[٢] ومن أبرز الذين اهتموا بالبديع ابن المعتز عندما قام بتأليف كتابه الذي كان يبحث في هذا الفن ومصطلحاته، ونبّه في مقدمته إلى أنّ هذا الفن لم يكن من اختراع المحدثين بل عرفه القدماء ، ودليله على ذلك وروده في القرآن الكريم وأحاديث الرسول –عليه السلام– وكلام الصحابة والأعراب والأشعار، ولكن المحدثين شُغفوا به وأكثروا من استخدامه[٣] ، وربما يعود الاكثار من البديع للتطور الذي حدث في الحياة الاجتماعية في العصور اللاحقة حيث ظهر التأنق في المأكل والملبس والمسكن، وانعكس فيما نُظم من أشعار، فبدا فيها الاهتمام بالزخرفة والتنميق، وتحسين الكلام، وكلما جاء جيل أضاف لبنة جديدة في هذا البناء، فقد تكون هذه اللبنة على شكل اختراع فنون بديعية جديدة لم تكن معروفة من قبل، أو اشتقاق أنواع جديدة من نوع كان معروفاً، مما جعل الباحثين في ذلك الوقت يحذّرون من نتائج الاسراف في استخدامه[٤]. وقد اشترط أبو هلال العسكري شرطين إذا توفرا في البديع كان في غاية الحسن ونهاية الجودة وهما: إذا سلم من التكلف أو برئ من العيوب[٥] . ولو لم يكن للسجع ميزة في الكلام لما لجأ القرآن الكريم

---

(١) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، تقديم وتعليق محمد شمس الدين، ١٩٩٢، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ٤/١٧٠.

(٢) حفني محمد شرف، الصور البديعة بين النظرية والتطبيق، مكتبة الشباب، ١/ ٣٢١. وعبدالعزيز عتيق، ١٩٧٤، علم البديع، دار النهضة العربية، بيروت، ٢٩، وشوقي ضيف، ٢٦٥.

(٣) ابن المعتز، البديع، نشر كراتشقوفسكي، ١٩٨٢، ط٣، دار المسيرة، بيروت، ١.

(٤) القاضي الجرجاني، الوساطة بين المتنبي وخصومه، ١٩. ٣٤. وعبدالقاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ٨-٩.

(٥) أبو هلال العسكري،كتاب الصناعتين،تحقيق علي محمد البيجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم،١٩٥٢،ط١،دار احياء الكتب العربية، ٢٦٧.

في بيانه القرآني الأعلى إلى هذه الوسيلة البلاغية، وأكثر منها بخاصة في السور المكية التي لا تكاد تخلو منه[١] ، وفي هذا ابراز لقيمته في الكلام إذا تطلبه المعنى.

ثم تعالت أصوات[٢] أبي هلال العسكري وابن الاثير وابن أبي حديد لبيان فضل بعض فنون البديع في الكلام، وما تكسبه من حسن وميزة وبخاصة في القرآن الكريم، ثم قاموا بتحليل نماذج من الآيات القرآنية مبرزين دور البديع في اكسابها حسناً وبهاء وتابعهم عددمن المعاصرين[٣]الذين أرادوا انصاف البديع واحلاله مكانه اللازم في علوم البلاغة.

دراسة الدكتو ماهر مهدي هلال "فخر الدين الرازي بلاغيا":

استعرض فيها الجهود التي بذلها الرازي في ارساء قواعد البلاغة العربية من خلال كتابه "نهاية الايجاز" وتفسيره الكبير "مفاتيح الغيب" وتكمن أهمية دراسة الرازي لأنه يمثل نهاية مرحلة في البحث البلاغي حيث قام بتلخيص كتابي عبدالقاهر "دلائل الاعجاز" و"أسرار البلاغة" وبداية جديدة في البحث البلاغي حيث فتح الطريق أمام السكاكي ومدرسته الكلامية في البحث البلاغي.

وما يهمنا من هذه الدراسة الفصل الأول من الباب الثاني حيث عرض فيه الباحث لكيفية تناول الرازي للاعجاز في القرآن الكريم، الذي قام بذكر الآراء السابقة له التي قيلت في بيان وجه الاعجاز في القرآن ثم فندها واحداً تلو الآخر إلى أن خلص للقول بأنّ القرآن معجز بفصاحته فقط[٤]؛ ولهذا جعل الفصل الثاني من مقدمة كتابه "نهاية الايجاز" لبيان شرف الفصاحة[٥] . وبذلك يكون الباحث قد أبان عن الرأي الذي آمن به

---

(١) محمود أحمد نحلة، ١٩٨١، لغة القرآن الكريم في جزء عمّ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ٣٦٥-٣٦٦.

(٢) أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين، ٢٦٠، ٢٦١، ٣٠٩ وابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، حققه أحمد الحوفي وبدوي طبانة، ط١، ١٩٦٢، مكتبة نهضة مصر، ١/٢٧١-٢٧٢، وابن أبي حديد، شرح نهج البلاغة تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، ١٩٥٩ مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، ١/١٢٦-١٣٠.

(٣) أحمد ابراهيم موسى، ١٩٦٩، الصبغ البديعي في اللغة العربية، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة وعبدالقادر حسين، ١٩٨٣، فن البديع، ط١، دار الشروق وعبدالواحد علام، ١٩٩٢، البديع بين القيمة والمصطلح، مكتبة الشباب، مصر ومصطفى الصاوي الجويني، ١٩٩٣، البديع لغة الموسيقى والزخرف، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية.

(٤) ماهر مهدي هلال، ١٩٨٧، فخر الدين الرازي بلاغيا، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٠٧ والرازي، نهاية الايجاز في دراية الاعجاز، تحقيق وتقديم إبراهيم السامرائي ومحمد بركات أبو علي، ١٩٨٥، دار الفكر للنشر والتوزيع، عمان، ٣٣-٣٤.

(٥) السابق، ٣٤-٣٥.

الرازي ليكون مكمن اعجاز القرآن فيه، ولمزيد من الايضاح قام الباحث بتتبع ما قاله الرازي حول هذا الموضوع في تفسيره. الذي كان مثار لبس بين الباحثين حيث فهم بعضهم منه أنّ الرازي يقول بالصرفة كوجه من وجوه الاعجاز في القرآن(١) . ثم قام بمناقشة النصوص التي فهم منها أنه يميل إلى الصرفة، ثم نقل لنا نصوصاً أخرى تؤكد ايمان الرازي بالفصاحة في اعجاز القرآن من خلال تحليله للعديد من الآيات القرآنية الدالة(٢) . وإذا كان الرازي يقول بالصرفة فما الذي يدفعه إلى محاولة الكشف عن مواطن البلاغة في القرآن الكريم، وتوقفه عند كثير من الفنون البلاغية الواردة في الآيات القرآنية طالما أنه يؤمن بالصرفة!

وخصص الباب الثالث من كتابه لتطبيقات الرازي البلاغية في تفسيره، حيث قام بالاستقصاء في أجزائه الاثنين والثلاثين لاستخلاص الصور البيانية في القرآن الكريم التي تحدث عنها الرازي، ومن ثم بيان مدى استفادته من مصطلحات البلاغة في تفسيره للآيات المتضمنة لتلك الصور ومنها: الاستعارة والتشبيه والأمثال والغاية من ضربها في القرآن الكريم، والكناية ووجودها(٣) وغير ذلك من المباحث التي تنفي عنه عدم اهتمامه بالبلاغة في أثناء تفسيره للقرآن الكريم.

وممـا ميّز تفسير الرازي التفاته إلى ترابط نهايات بعض السور بأوائل ما بعدها -متوخياً بذلك النظر إلى أنّ القرآن الكريم وحدة مترابطة في نظم الآيات والسور- فهو كان يقوم بدراسة ترتيب الآيات وتحليلها وبيان أسباب مجيئها على صورتها، والاستدلال بذلك على اعجاز القرآن الكريم، وقد أكثر من الالتفات إلى هذه الظاهرة في تفسيره(٤) ، وقد قال عن ذلك "إنّ أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط"(٥) ، وهذا ما سأعرض له في الفصل الثالث من هذه الدراسة.

---

(١) محسن عبدالحميد، ١٩٧٤، فخر الدين الرازي مفسراً، دار الحرية للطباعة، بغداد، ٢٣٤.

(٢) الرازي، التفسير الكبير، ط٣، دار احياء التراث العربي، بيروت، ١١٥/٢-١١٦ و ١٩٦/١٠-١٩٧، ١٩٥/١٧ و ١١٨/٢٠. وماهر مهدي هلال، فخر الدين الرازي بلاغياً، ١٩٢-١٩٨.

(٣) الرازي، التفسير الكبير، ٢٦/٣، ١٦٠، ١٨٧، ١٩٨ و١٨٧/١٠، ٢١٥، ٣٢٥ و ١٦٥/٣١-١٦٦، ١٧٣ و ١٩/٣٢، ٦٤ وماهر مهدي هلال، فخر الدين الرازي بلاغياً، ١٣٩-١٤١، ٢٠٦، ٢١٥.

(٤) الرازي، التفسير الكبير، ٢٣٦/٣ و ١٦٦/٧-١٦٧ و٢٠٥/١٠-٢٠٦ و ٦١/١١-٦٢ و ٤/٣١، ٣٨، ٥٧، ٨٧ و ٦/٣٢-٧.

(٥) السابق، ١٤٠/١٠ و ٦٤/١٣-٦٥ و ١٧٦/٢٤.

وقد أخذ الرازي على المفسرين السابقين له اغفالهم الحديث عن هذه القضية التي عدّها من مظاهر الاعجاز في القرآن الكريم وعدم انتباههم لها[١] . وقد أيده الباحث في ذلك وبيّن أنّ عبدالقاهر لم يصرح بذلك ولا الزمخشري الذي كان من أبرز مفسري القرآن من وجهة نظر البلاغة، والذي يعد كتابه تطبيقاً عملياً على نظرية النظم[٢] . ثم ذكر لنا الباحث نماذج مما قاله الرازي في هذا المجال[٣] ليدعم رأيه السابق وبذلك يكون الباحث قد نفى التهمة التي كانت تُوجه إلى الرازي –أنه ساهم في جمود البلاغة– لأنه تنبّه إلى أمور لم ينتبه إليها كبار الأعلام في البحث البلاغي.

---

(١) الرازي، التفسير الكبير، ١٢٨/٧.

(٢) ماهر مهدي هلال، فخر الدين الرازي بلاغياً، ٢٣٥-٢٣٦.

(٣) الرازي، التفسير الكبير، ١٣٣/٢-١٣٥ و ١٤٢/٣-١٤٣، ١٨٧، ١٩٨ و١٣٥/٧ و٢١٣/١٠ و ٣٤/١٢ و١٣٣،٢٧ و ٨٦/٣١.
وماهر مهدي هلال، فخر الدين الرازي بلاغياً، ٥٧.

دراسات حول بلاغة القرآن وبعض مقاييس البلاغيين

لاخلاف بين الباحثين أنّ القرآن الكريم يمثل ذروة البلاغة العربية، وأنه سبحانه تحدى العرب –وهم أرباب البلاغة– على الاتيان بمثله، أو بآية من آياته، ولكنهم لم يستطيعوا وأقروا بعجزهم. على الرغم من أنّ القرآن الكريم كان جارياً على أساليب العرب في الكلام؛ لأنه لو كان مغايراً لأساليبهم، لما أصبح هناك ضرورة للتحدي.

وقد استنبط النقاد مقاييس البلاغة العربية من كلام العرب –شعره ونثره– وقننوا هذه المقاييس في قواعد وعدوها مواصفات الكلام الفصيح، ومن خالفها ففي كلامه ضعف وقصور. ولكن عند تطبيق بعض هذه المقاييس على القرآن الكريم نلاحظ أنها ينتابها القصور مع كلام الله وتفقد شمولها؛ لأنها من نتاج الفكر الإنساني الذي يخطئ ويصيب مما يؤكد تفرد القرآن الكريم بأسلوبه المتميز الذي لايستمر في السير على قاعدة معينة[١]. وفيما يلي استعراض لأبرز الفروق بين فنون البلاغة في القرآن الكريم وكلام العرب وقواعد البلاغيين.

يعد البلاغيون التنافر من العيوب التي تخل بفصاحة الكلمة، وأنها إذا وردت في كلام أخرجته من دائرة الفصاحة وهم يمثلون لذلك بقول أبي تمام:

كريم متى أمدحه أمدحه والورى معي وإذا ما لمته لمته وحدي[٢]

وهذا التنافر يؤدي إلى صعوبة في النطق لأنّ مخارج الحروف تكون متقاربة، ولكن لو قرأنا ﴿ومن الليل فسبحه وادبار النجوم﴾[٣] لم نتعثر في نطقها على الرغم من التقارب في المخارج بين الحاء والهاء في (فسبحه) وهما الحرفان نفسهما اللذان وردا في بيت أبي تمام؛ ولهذا نرى أنّ الذوق هو الذي يحكم بالتنافر أو التلاؤم[٤] .

---

(١) فتحي عبدالقادر فريد، ١٩٨٤، فنون البلاغة بين القرآن وكلام العرب، مكتبة النهضة المصرية، ٢٧ وعفت الشرقاوي، ١٩٨١، بلاغة العطف في القرآن، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ١٥.

(٢) ديوان أبي تمام، شرح الخطيب التبريزي، تحقيق محمد عبده عزام، ط٢، دار المعارف، مصر، ١١٦/٢.

(٣) السورة الطور، الآية ٤٩ وينظر في سورة يس، الآية٦٠ وسورة البقرة، الآية ٢٤٩.

(٤) الشحات محمد أبو ستيت، ١٩٩١، مقاييس البلاغيين في فصاحة الكلمة، ط١، مطبعة الأمانة، مصر، ٣٣.

وفي قوله تعالى ﴿قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك﴾[١] نجد تكراراً لحرف الميم، والبلاغيون يقولون تكرار الحروف وبخاصة المتشابهة يُخرجها من دائرة الفصاحة لأنه يصعب نطقها مجتمعة، ومع هذا نرتل الآية ولا نحس أنّ هناك حرفاً ثقيلاً قد تكرر تكراراً غير مألوف[٢]؛ ولهذا لانسلم بأنّ تكرار الحروف يؤدي إلى تنافر الكلمات[٣] . وكذلك نجد في الآية السابقة تتابعاً في حرف الجر (عليك وعلى) وهم يعدّون توالي حروف الجر في الكلام من الشروط المُخلة بفصاحة الكلام ولكنه ورد في عدد من الآيات القرآنية، كما في قوله تعالى ﴿قل إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به إليه أدعو وإليه مآب﴾[٤] وازاء ذلك قرر البلاغيون أنّ تكرار حروف الجر إذا كان يفيد معنى جديداً فهو مقبول؛ لأنه يؤدي إلى تأسيس معنى جديد في الأثر الأدبي، وإلا فهو مردود[٥] وكأنهم بهذا الشرط قد وجدوا مخرجاً لأنفسهم. وبذلك يوفقون بين قواعدهم وبين النص القرآني.

وقد عدّ البلاغيون أنّ طول الكلمة أو تتابع الحركات في بعض الألفاظ، من العيوب التي ينبغي تجنّبها؛ لأنّ طول الألفاظ يخرجها عن الأوزان المعتادة (الثلاثية والرباعية) وتتابع الحركات يجعلها صعبة وثقيلة. ولكننا نجد هذين الأمرين قد وردا في القرآن الكريم. كما في قوله ﴿وعدالله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم﴾[٦] وفي قوله تعالى ﴿ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنُذُر﴾[٧] والطريف في الأمر أنّ هذه الكلمة قد وردت إحدى عشرة مرة في سورة القمر، ولم تكن ثقيلة في اللفظ أو على السمع، فلو كانت كما يقولون لما وردت هذا العدد في سورة واحدة.

---

(١) السورة هود، الآية ٤٨.

(٢) عبدالكريم الخطيب، اعجاز القرآن ٢٧٤/٢. ومصطفى الصاوي الجويني، ١٩٨٣، جماليات المضمون والشكل في الاعجاز القرآني، منشأة المعارف، الاسكندرية، ١٢٣.

(٣) عبدالقادر حسين، ١٩٨٤، فن البلاغة، ط٢، عالم الكتب، بيروت، ٦٧.

(٤) السورة الرعد، الآية ٣٦ وفي سورة يس، الآية ٣٤.

(٥) محمد بركات أبو علي، ١٩٨٣، فصول في البلاغة، دار الفكر للنشر والتوزيع، عمان ١٠٩.

(٦) السورة النور، الآية ٥٥ وينظر سورة البقرة، الآية ١٣٧ وفي سورة ابراهيم، الآية ١٤ وسورة القمر، الأيتان ٣٦، ٣٧.

(٧) السورة القمر، الآية ٣٦.

وقد قام مصطفى صادق الرافعي بتحليل هذه الآيات وبيّن أنّ هذه الألفاظ في القرآن الكريم من أعذب الألفاظ وأخفها تركيباً[١] . وهذه ميزة تؤكد تفوق القرآن الكريم على كلام البشر.

وإذا ما انتقلنا إلى الحديث عن غرابة الألفاظ التي عدّها البلاغيون من العيوب التي تُخرج الكلام عن دائرة الفصاحة فإننا نلاحظ أنّ القرآن الكريم قد آثر استخدام كلمة ضيزى في قوله تعالى﴿ألكم الذكر وله الأنثى تلك اذاً قسمة ضيزى﴾[٢] على الرغم من غرابتها وعدم تداولها، لغرابة الموقع الذي وُضعت فيه وهو زعم الكفار أنّ الملائكة بنات الله فكانت غرابة اللفظة أشد الأشياء ملاءمة لغرابة هذه القسمة التي أنكرها. وهذه الكلمة لم يستعملها عربي فيما وصل إلينا من أقوالهم وأشعارهم ومع ذلك فإننا نجد لها من الحسن في القرآن أضعاف ما نرى لها من القبح[٣] ، وهي وقعت فاصلة للآية فانسجمت مع ما قبلها وما بعدها وكان لها ذلك الايقاع الجميل[٤] . والقصد من استعمالها هنا لفت الانتباه إلى فظاعة ما ادعاه المشركون في زعمهم الباطل.

وفي قوله تعالى ﴿يلبسون من سندس واستبرق متقابلين﴾[٥] أُستعملت هذه الكلمة للاحتياج إليها وعدم وجود ما يسد مسدها من ألفاظ اللغة العربية؛ لأنه لو أُريد الاستغناء عنها لاحتيج إلى كلمتين فقيل: الديباج الثخين والكلمة أولى من الكلمتين[٦] . ولذلك يقول السيوطي: "لو اجتمع فصحاء العالم وأرادوا أن يتركوا هذه اللفظة ويأتوا بلفظ يقوم مقامها في الفصاحة لعجزوا عن ذلك"[٧] وغرابة هذه الكلمة تكمن في مجيئها من بيئة غير عربية، ولكنها متى ما عُربّت وعُرفت دلالتها فإنها تصبح مألوفة لنا.

وعندما تكون الكلمة المعربة غير منسجمة مع فصاحة القرآن فإنه لايستعملها وإنما يذكر دلالتها كما في قوله تعالى﴿وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من اله غيري فأوقد لي يا هامان على الطين فاجعل لي صرحاً لعلي أطلع إلى اله موسى وإني لأظنه

---

(١) مصطفى صادق الرافعي، ١٩٩٠، اعجاز القرآن والبلاغة النبوية، دار الكتاب العربي، بيروت، ٢٢٧-٢٢٨.

(٣) عبدالعظيم المطعني، ١٩٩٢، خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية، مكتبة وهبة، مصر. ٢٤٨/١.

(٤) مصطفى صادق الرافعي، اعجاز القرآن، ٢٣٠. وفتحي عبدالقادر فريد، فنون البلاغة، ٣٤.

(٥) السورة الدخان، الآية ٥٣ وينظر في سورة الرحمن، الآية ٥٤ وسورة الإنسان، الآية ٢١ وسورة الكهف، الآية٣١.

(٦) فتحي عبدالقادر فريد، فنون البلاغة، ٣٥ وأحمد بدوي، من بلاغة القرآن، ٩٤.

ومصطفى صادق الرافعي، ١٩٤٠، تاريخ آداب العرب، ط٢، مطبعة الاستقامة، ٥٨/٢.

(٧) السيوطي، معترك الأقران في اعجاز القرآن، تحقيق علي محمد البجاوي، ١٩٦٩، دار الفكر العربي، ١٩٧/٢، والاتقان في علوم القرآن، ١٣٦/١-١٣٧.

من الكاذبين﴾[١] لم نجد كلمة الآجُرّ أو مرادفتها القَرمد. وإنما ذكرت دلالتها بـ (اشعال النار على الطين، لعدم ائتلافهما وصعوبة انسجامهما مع نظم القرآن الكريم، فالقرآن لايستعمل من هذه الألفاظ إلا ما كان منسجماً مع بنائه ونظمه، وهذا أعلى مراتب الفصاحة[٢] ؛ لأنّ من بلاغة القرآن الكريم الدقة في اختيار ألفاظه، وهو المثل الأعلى لنا للسير على منهجه.

وقال البلاغيون إنّ تتابع الاضافات من عيوب الكلام ويمثلون له بالقول المشهور:

حمامة جرعى دومة الجندل اسجعي فأنت بمرأى من سعاد ومسمع[٣]

وورد في قوله تعالى ﴿ذكر رحمة ربك عبده زكريا﴾[٤] وفي أحاديث للرسول -عليه السلام- كما في قوله -عليه السلام- في الحديث القدسي "أنا عند ظن عبدي بي" وكان في غاية الحسن والخفة[٥] ؛ مما جعل بعض البلاغيين يطالبون باعادة النظر فيما قالوه؛ لأنّ تتابع الإضافات ورد في القرآن الكريم الذي يمثل ذروة الفصاحة وفي أحاديث الرسول -عليه السلام-[٦] وهو المشهود له بالفصاحة مما يؤيد ما دعوا إليه شريطة عدم المبالغة في تتابع الاضافات في الكلام.

ونجد في قوله تعالى ﴿هو الله الذي لاإله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون هو الله الخالق البارئ المصّور له الأسماء الحسنى يسبح له ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم"[٧] تكراراً لصفات الله -سبحانه وتعالى- المتتابعة بدون حرف العطف، وجاءت على أحسن وجه من السهولة والخفة

---

(١) السورة، القصص، الآية ٣٨.

(٢) فتحي عبدالقادر، فنون البلاغة، ٣٥.

(٣) عبدالرحيم بن أحمد العباسي، معاهد التنصيص على شواهد التلخيص، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، عالم الكتب، بيروت، ٩٥/١.

(٤) السورة مريم، الآية ٢ وفي سورة غافر، الآية ٣١ وفي سورة الشمس، الآيتان ٧-٨ وفي سورة الإسراء، الآية ١٠٠ وفي سورة الأنعام، الآية ٥٨.

(٥) فتحي عبدالقادر فريد، فنون البلاغة، ٣١.

(٦) كقوله عليه السلام وقوله عليه السلام "موضع سوط أحدكم في الجنة خير من الدنيا وما فيها".

(٧) السورة الحشر، الآيتان ٢٣-٢٤.

لحسن التأليف وجودة السبك[١] ، ومن الأمثلة التي ذكرها البلاغيون لهذا النمط من الكلام قول المتنبي[٢] :

دانٍ بعيدٍ مُحبٍّ مُبغضٍ بَهِجٍ ... أغَـــــرَّ حُلوٍ مُمَرٍ لَيِّنٍ شَرِسِ
نَدٍ أبيّ غرٍ وافٍ أخي ثقـةٍ ... جعدٍ سَرِيٍ نَهٍ نَدْبٍ رضَى نَدْسِ

ونلاحظ الصعوبة التي يواجهها القارئ عند قراءة النص السابق، وفهم دلالة الكلمات الواردة منه. بمقابل السهولة واليسر في فهمه النص القرآني وحديث الرسول -عليه السلام-.

وهناك ألفاظ حُسنت في القرآن الكريم وعيبت في غيره كما في كلمة "مقاعد" التي عابها النقاد في قول الشريف الرضي[٣]:

أعزز عليّ بأن أراك وقد خلت ... مـن جانبيك مقـاعد العُـوّاد

وقد وردت هذه الكلمة في قوله تعالى ﴿وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً﴾[٤] وكانت مستحسنة.

ومن ذلك أيضاً كلمة "تؤذي" فقد عابوها في قول المتنبي[٥]

تلذ له المروّة وهي تؤذي ... ومـن يعـشق يلذ لـه الغرام

ولكنها وردت في قوله تعالى ﴿فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث إنّ ذلكم كان يؤذي النبي فيستحي منكم﴾[٦] فكانت أجمل من (تؤذي) في بيت المتنبي، والحكم في ذلك للأذن الموسيقية. وهذا يبين أنّ نظم الكلام لايقوم على اختيار الكلمات من

---

(١) فتحي عبدالقادر فريد، فنون البلاغة، ٣١.

(٢) المتنبي، الديوان، شرح أبي البقاء العكبري، ضبط وتصحيح مصطفى السقا وابراهيم الابياري وعبدالحفيظ شلبي. دار المعرفة. بيروت. ١٨٩/٢-١٩٠.

(٣) الشريف الرضي، الديوان، شرح يوسف شكري فرحان، ١٩٩٥، ط١، دار الجيل، بيروت، ٣٥٦/١ وفي نسخة الديوان مقاود وليس مقاعد كما في سر الفصاحة، ٧٥.

(٤) السورة الجن، الآية ٩ وفي سورة آل عمران، الآية ١٢١.

(٥) المتنبي، الديوان، ٧٥/٤.

(٦) السورة الأحزاب، الآية ٥٣.

ناحية معانيها فقط، بل للناحية الفنية دور في اختيارها فقد تأتلف كلمة مع كلمة ولا تأتلف مع أخرى[١] . وقد تحسُن اللفظة في موضع ولا تحسن في غيره.

ومما سبق ذكره يتضح لنا أنّ النص القرآني لاتحدّه قواعد البلاغيين أو مقاييسهم لأنها من وضع البشر، وتبقى قدرات البشر محدودة، فكيف نقيد اللامحدود بالمحدود؛ لأننا عندئذ سنضطر إلى جدل ومحاكمات عقلية، تحول دون تأمل مواطن الجمال في النص القرآني وبيان مظاهر بلاغته. وبدلاً من ذلك عليهم اعادة النظر في بعض المقاييس والقواعد التي وضعوها[٢]؛ ليتناسب ذلك مع بلاغة القرآن الكريم. الذي يمثل أنقى نبع للبلاغة العربية ومنه ينبغي أخذ المقاييس، فهو النموذج والمثل الأعلى لنا في الفصاحة.

وينبغي التذكير أنّ معظم ما ورد في القرآن الكريم ينسجم مع ما ورد في قواعد البلاغيين، ولا يعني ما ذكرته سابقاً أننا نجد انفصالاً تاماً بينهما، فنحن لانستطيع انكار جهود البلاغيين لاظهار مواطن الجمال في النص القرآني، وما يتوصلون إليه من مقاييس نستعين بها ونستخدمها كوسائل لتقريب معنى كلام الله تعالى إلى الناس، وتفسيره وتوضيحه[٣] . وبعض فنون القول التي يجري عليها القياس الصرفي أو الميزان النحوي أو أي لون من ألوان البيان، لايتحقق أحياناً في كلام الله، وهذا وجه من وجوه الاعجاز البياني، إذ اللغة العربية لغة العرب في الكلام هي المستخدمة في كلام الله، وما يجري عليها في تراكيبها، يختلف في بعض تطبيقها على كتاب الله تعالى. وذلك لاختلاف المنشئ في كل منهما[٤] . وبهذا التفسير نستطيع أن نحل الإشكال في عدم موافقة ما ورد في القرآن الكريم مع بعض المقاييس التي استنبطها البلاغيون وجعلوها مواصفات الكلام الفصيح والمقبول.

---

(١) أحمد أمين، ١٩٦٣، النقد الأدبي، ط٣، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١/٥٥-٥٦.

(٢) السيد أحمد خليل، ١٩٦٨، المدخل إلى دراسة البلاغة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ٣٤.

(٣) محمد بركات أبو علي، دراسات في البلاغة، ١٠٩.

(٤) السابق، مقدمة في دراسة البيان العربي، ١٠، ٨٥، ٧١-٧٢.

الفصل الثاني

دراسات للمعاصرين حول

بلاغة القرآن

الفصل الثاني

دراسات للمعاصرين حول بلاغة القرآن

وبعد أن عرضت للدراسات البلاغية المعاصرة التي تناولت كيفية فهم القدماء لبلاغة القرآن الكريم، يهمنا أن نتعرف الآن كيف تناول المعاصرون بلاغة القرآن الكريم ولنرى بمَ امتازوا عن القدماء؟ وما الجوانب التي تناولوها، وما المباحث البلاغية التي مازالت بحاجة إلى دراسة وبحث؟

وبادئ ذي بدء ينبغي التذكير بأنّ دراسات المعاصرين في هذا المجال لايكاد يحصرها العدّ، فبلاغة القرآن الكريم منهل عذب مهما شرب منه الإنسان فلا يرتوي، ومهما دارت حولها من دراسات فإنها لن تفيها حقها، فبلاغة القرآن الكريم كانت ومازالت وستبقى قبلة للباحثين كل يحاول أن يدلي بدلوه لعله يظفر بكشف جديد يلقي ضوءاً على فن من فنون بلاغة القرآن الكريم؛ ولهذا سأختار نماذج لما قاله المعاصرون في هذا المجال، وهذه النماذج بالضرورة تمثل عينة ممثلة لدراسات المعاصرين.

وبعد اطلاعي على الدراسات البلاغية المعاصرة التي بحثت في بلاغة القرآن الكريم قمت بتصنيفها إلى ثلاثة أنواع: الأولى: جاءت تحت عنوان اعجاز القرآن الكريم والثانية: كانت دراسات بلاغية شاملة تحدثت عن بلاغة القرآن الكريم بشكل عام.
والثالثة: كانت دراسات تناولت ظاهرة بلاغية قرآنية محددة ومن خلالها أظهرت الاعجاز في القرآن الكريم، وفيما يلي استعراض للخطوط العريضة لتلك الدراسات مع عرض نماذج تطبيقية لبعض ما ورد فيها.

دراسات حول اعجاز القرآن الكريم

وهذه الدراسات كانت تتكون من قسمين، القسم الأول كان يُعنى بالجانب التاريخي للاعجاز في القرآن الكريم، وذلك ببيان مفهوم الاعجاز عند القدماء، وأبرز الرجال الذين تحدثوا عنه، واستعراض لآرائهم المبثوثة في مؤلفاتهم، ومن ثم تصنيفهم إلى فئات حسب انتماءاتهم الفكرية -مثلاً- أدباء ومفسرين وعلماء وبلاغيين. أو تقسيمهم حسب عصورهم التي برزوا فيها -مثلاً- رجال القرن الثالث والرابع والخامس، وهكذا مقارنين في أثناء ذلك بين هؤلاء الباحثين، ومبرزين مواطن الاعجاز البلاغي التي تحدث عنها هؤلاء

الباحثون مؤيدين حيناً، ومعارضين حيناً آخر، وهذا ما تم الحديث عنه في الفصل الأول في هذه الدراسة؛ ولهذا فلا موضع له هنا.

أما القسم الثاني من الدراسة نفسها، فكان يُعنى بالدراسة الموضوعية التي تبحث في مفهوم الاعجاز عند المعاصرين، وأين يكمن؟ وبم كان القرآن معجزاً وينظرون في أساليب القرآن وفي مفرداته وتراكيبه ومضمونه ومعانيه، محللين في أثناء ذلك النصوص القرآنية حسبما يرونه مناسباً، محاولين الاستدراك -ما أمكنهم ذلك- على ما قاله القدماء، مسلطين الأضواء على المباحث التي غابت عنها أذهان القدماء، مستفيدين من تقدّم العلوم الإنسانية واللغوية في عصرنا. وهذا ما سأعرض له في هذا الفصل.

ومما هو جدير بالذكر أنّ المعاصرين -كما القدماء- آمنوا باعجاز القرآن الكريم، ولكنهم لم يتفقوا على وجه واحد للاعجاز في القرآن الكريم، فمنهم من اكتفى بالاعجاز البياني وجعله هو الوجه الوحيد للاعجاز؛ لأنه هو الذي تحدى به الله -ﷻ- المشركين حين نزول القرآن لأول مرة[1]. وحجتهم في ذلك أنّ القرآن الكريم نزل مُنجَماً ولم ينزل دفعة واحدة، فبِمَ بهر الناس عندما سمعوه لأول مرة؟ لاشك أنه الاعجاز البياني الذي كان شاملاً لكل آية من آياته. وأن الله -ﷻ- عندما طالبهم بالاتيان بمثله أي في أسلوبه وألفاظه البليغة ومعانيه.

ومنهم من أضاف وجوهاً أخرى للاعجاز في القرآن الكريم، وصنفوا المؤلفات الخاصة بهذه الوجوه[2] ومنها: الاعجاز الغيبي والعلمي والتشريعي والنفسي والعددي وغير ذلك من الوجوه. ولكن غاب عن أذهان هؤلاء أنّ القرآن الكريم لم ينزل في أمة العرب وهم علماء تاريخ أو فلاسفة أو علماء فلك وكيمياء أو أطباء، بل نزل في أمة

---

(١) عائشة عبدالرحمن، الاعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق، دار المعرفة، مصر، ١٠٠-١٠٣.
وصلاح عبدالفتاح الخالدي، البيان في اعجاز القرآن، ١٤٣.
ورشدي عليان قحطان وعبدالرحمن الدوري وكاظم فتحي الراوي، ١٩٨٠، علوم القرآن، مؤسسة دار الكتب للطباعة والنشر، ١٢٤-١٢٧.
وعودة أبو عودة، ١٩٩٦، شواهد في الاعجاز القرآني، ط١، دار آفاق للنشر والتوزيع، عمان، ٣٨، ٤١، ٤٤، ٤٨.
وسعد الدين السيد صالح، ١٩٩٣، المعجزة والاعجاز في القرآن، ط٢، دار المعارف، مصر ٨٥-٨٦.

(٢) مصطفى الصاوي الجويني، جماليات المضمون والشكل، ١١٨ وصلاح الدين بسيوني رسلان، ١٩٨٥، القرآن الحكيم رؤية منهجية جديدة لمباحث علوم القرآن ، نهضة الشرق، القاهرة، ٢٤٣ وأمين الخولي، ١٩٦١، مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب، ط١، دار المعرفة، مصر، ٩٩-٢٠٤، ٣٣٠.

مشهود لها بالفصاحة والبلاغة، والله -سبحانه وتعالى- كان يختار معجزة كل رسول من جنس ما يتفوق به قومه؛ ليتحداهم ويعترفوا بعجزهم، ويدركوا أنه مُرسَل من عندالله -سبحانه وتعالى-.

وبعضهم وقف موقفاً متوسطاً بين الطرفين، هم يؤمنون بالاعجاز البلاغي ولكنهم يضيفون إليه وجوهاً أخرى، منهم:

مصطفى صادق الرافعي تحدث عن اعجاز القرآن بنظمه وأسلوبه وبلاغته وتاريخه المعجز وبموسيقاه[١] .

وتحدث سيد قطب عن وجوه متعددة للاعجاز وهي:

الاعجاز في التأثير وفي الأداء الموضوعي والتشريعي والحركي والمطلق فهو ليس اعجاز اللفظ والتعبير وأسلوب الأداء وحده. ولكنه الاعجاز المطلق الذي يلمسه الخبراء، وفي النّظم والتشريعات والنفسيات[٢] وما إليها، ثم حدثنا عن مظاهر هذا الاعجاز.

أمّا الدكتور محمد عبدالله دراز فرأى أنّ نواحي الاعجاز ثلاث وهي: الاعجاز اللغوي والعلمي والتشريعي والاصلاحي التهذيبي الاجتماعي[٣] ، ولا خلاف بين هؤلاء أنّ مناط التحدي كان بالوجه البلاغي ولكن حديثهم عن وجوه أخرى للاعجاز لايتعارض مع رأيهم في الاعجاز البلاغي.

وإذا ما انتقلنا إلى المفسرين فإننا نجد محمد رشيد رضا يعرض لأهم وجوه الاعجاز في القرآن الكريم من وجهة نظره، وهي اعجاز القرآن بأسلوبه ونظمه، وببلاغته، وبما فيه من علم الغيب وبسلامته من الاختلاف، وبعلومه الدينية وتشريعاته، وبعجز الأزمان عن ابطال شيء منه، وبتحقيق مسائل كانت مجهولة للبشر[٤] اي الاعجاز العلمي، وهو يرى أنّ اعجاز القرآن بالعلوم الدينية من أظهر وجوه الإعجازإذ كيف

---

(١) يُنظر ٦٣-٦٤ هذه الدراسة.

(٢) سيد قطب، ١٩٧١، في ظلال القرآن، ط٧، دار احياء التراث العربي، بيروت، ١١/٤٢٠-٤٣٠ وصلاح عبدالفتاح الخالدي، ١٩٨٦، المنهج الحركي في ظلال القرآن، ط١، دار المنارة للنشر والتوزيع، السعودية ٣٧٠-٤١٦ ونظرية التصوير الفني عند سيد قطب، ١٩٨٣، ط١، دار الفرقان ٢٨٥-٣٢٠ والبيان في اعجاز القرآن، ١٣٠-١٣١.

(٣) محمد عبدالله دراز، ١٩٥٧، النبأ العظيم: نظرات جديدة في القرآن، دار القلم ، الكويت، ٧٩.

(٤) محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ١/١٩٨-٢١٣ و ١٢/٣٧-٣٧٣.

يمكن لأميّ في وسط مجتمع جاهل أن ينبغ في العلوم مثلاً، ويتحدث عن مسائل كانت مجهولة للبشر[١] وأثبت العلم الحديث صحتها.

وأشرك غير المسلمين في ادراك بلاغة القرآن الكريم عندما قال: "عرف كل من ذاق طعم البلاغة العربية من مؤمن وكافر أنّ القرآن أبلغ الكلام وأفصحه، لم يكابر في ذلك مكابر ولم يجادل فيه مجادل[٢]" وفيما يتعلق باعجاز القرآن عن طريق تأثيره في القلوب والعقول قال: "اهتدى إلى هذا النوع من اعجازه بعض حكماء أوروبا... فقال: ما معناه إنّ محمداً كان يتلو القرآن مُولهاً مُدلهاً، خاشعاً متصدعاً فيفعل في جذب القلوب إلى الايمان به، فوق ما كانت تفعل جميع آيات الأنبياء من قبله"[٣] ثم يتابع محمد رشيد رضا كلامه: وقد رأينا وروينا عن بعض أدباء هذه اللغة من غير المسلمين أنهم يذهبون في بعض ليالي رمضان إلى بعض بيوت معارفهم من المسلمين؛ ليسمعوا القرآن ويمتعوا ذوقهم العربي وشعورهم الروحاني الأدبي بسماع آياته المعجزة[٤] وما ذكره هنا يؤكد لنا ما كانت قد روته كتب السيرة عن تأثّر المشركين بما كانوا يستمعون إليه من آيات الذكر الحكيم.

وبيّن أنّ كبار العلماء في كل عصر عندما يقومون بتأليف أحد الكتب، فإنهم يعيدون النظر فيما يكتبون، ويبذلون قصارى جهودهم في التدقيق، ومع ذلك يعثرون على الأخطاء فيما يكتبون، إلا القرآن الكريم[٥] ، على الرغم من نزوله طيلة ثلاثة وعشرين عاماً، وعلى تباعد الفترات الزمنية حتى في نزول السورة الواحدة.

وقد عدّ محمد رشيد رضا سلامة القرآن الكريم من الاختلاف وجهاً من وجوه اعجاز القرآن الكريم، ولكنه يرى أنّ هذا الوجه من الاعجاز لايظهر إلا في السور الطويلة؛ ولهذا فإنّ سلامة السورة القصيرة من ذلك لايُعدّ أمراً معجزاً يُتحدى به[٦] . ولا

---

(١) محمد رشيد رضا، تفسير المنار ، ١/ ٢٠٧.

(٢) السابق، ١/ ٧٨-٧٩.

(٣) السابق، ١/٢٠٣ و ٩/٣٢٨.

(٤) السابق، ١/ ٢٠٣.

(٥) السابق ١/٢٠٥.

(٦) السابق، ١/ ٢٠٦.

يمكننا قبول هذا الرأي لأنّ القرآن كله يمستوى واحد من الفصاحة والبلاغة، كما أنّ التحدي كان بالقرآن كله، وليس بسور معينة.

وعلى ما يبدو أنّ للقرآن الكريم قد تعرض لحملات طعن مختلفة في بداية هذا القرن؛ وتصدى محمد رشيد رضا لهؤلاء الطاعنين بكل ما أُوتي من قوة لبيان بطلان رأيهم، وتهافت حجتهم(١)، مركزاً على اظهار مواطن الاعجاز في النص القرآني.

ومما سبق ذكره يتضح لنا أنّ بعض الباحثين المعاصرين لايعتبرون الوجه البلاغي الوجه الوحيد للاعجاز في القرآن الكريم؛ ولهذا رأيناهم يتحدثون عن وجوه أخرى للاعجاز القرآني(٢). وحجتهم في ذلك كيف يمكننا اقناع غير العربي بالاعجاز البلاغي الذي يمكن للعربي أن يدركه أمّا غير العربي الذي لايعرف اللغة العربية أو يعرف قسطاً منها، فكيف يمكننا اقناعه بالاعجاز البلاغي في القرآن الكريم، كما أنهم يتحدثون -بأسى وحزن- عن عصرنا الذي تميز بضعفنا البياني، وانحدار السليقة العربية، وقلة تذوق عامة الناس من العرب والمسلمين لمواطن البلاغة في القرآن الكريم؛ ولهذا وجدوا من المناسب أن نبحث عن وجوه أخرى للاعجاز القرآني وتمتاز بشمولها للقرآن الكريم كله، ومنها:

الحديث عن الصدق المطلق المصفى الذي نجده في القرآن الكريم، ولا تعلق به ذرة من شك او ارتياب، وعلو الجهة المنزل منها، وتأثيره في النفوس وسطوته، وفي روحانية القرآن الكريم، وفي موضوعية التوجيه فيه، والربط بين موضوعية التوجيه فيه وقيام الحضارة الإنسانية، وفي مقدرته على النهوض بالأمة العربية واصلاح شأنها واخراجها من الظلمات إلى النور وفي هدايته(٣).

ونحن لاننكر أن يكون للقرآن الكريم وجوه اعجاز أخرى غير الوجه البلاغي، ونحن لانعتبره الوجه الوحيد لاعجاز القرآن الكريم، لكننا لانرضى أن تكون تلك الوجوه

---

(١) محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ١/٧٩-٨٢، ٢٢٨ و ٩/١٣٥.

(٢) محمد علي الصابوني، ١٩٧٠، التبيان في علوم القرآن، ط١، دار الارشاد للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٠٠، ١٠٣.

(٣) عبدالكريم الخطيب، اعجاز القرآن الكريم ،١/٣٤٤-٣٤٥، ٣٤٨-٣٥٠.

وعبدالعظيم المطعني، خصائص التعبير القرآني، ١/١٦٨-١٧٠.

ومحمد البهي، ١٩٨٦، نحو القرآن، ط٢، مكتبة وهبة ومطابع المختار، ٤، ٧، ١٠، ٤٦.

ومحمد صادق عرجون، ١٩٦٦، القرآن العظيم: هدايته واعجازه في أقوال المفسرين، مكتبة الكليات الأزهرية، ١٠-١٢، ١٣٣، ١٣٩، ١٤٦-١٥١.

كالاعجاز العلمي، والعددي والرياضي والاقتصادي.... الخ بديلة له، فهذه ليست شاملة لكل آية من آيات القرآن الكريم كما هو الاعجاز البلاغي وهذه الوجوه لايمكن ادراكها إلا عند دراستنا للقرآن دراسة كلية أي بعد أن لكتمل نزوله، بينما أدرك العربي الاعجاز البلاغي بمجرد أن طرقت مسمعيه أول آية قرآنية أي قبل اكتمال نزول القرآن الكريم.

ونقول أيضاً إذا عجز العربي المعاصر عن ادراك الاعجاز في القرآن الكريم بالفطرة، فما على الباحثين إلا مواصلة جهودهم في هذا المجال لتقريب بلاغة القرآن الكريم إلى المعاصرين وعرضها بطريقة فنية تؤثر في العقل والوجدان، لعلنا بذلك نرتقي بالإنسان العربي المعاصر وندفعه إلى التعطش للبحث عن مواطن الاعجاز في القرآن الكريم.

وإذا ما عرفنا أنّ الذين زاولوا فن التعبير، والذين لهم بَصَر بالأداء الفني، يدركون أكثر من غيرهم مدى ما في الأداء القرآني من اعجاز في هذا الجانب[١]، فإننا نطالبهم بالمزيد من الدراسات التي تكشف لنا عن مواطن الاعجاز في القرآن الكريم، والأخذ بأيدينا لعلنا ندرك بعض أسرار الاعجاز في القرآن الكريم.

وإذا ما تساءلنا عن الجديد في الدراسات البلاغية المعاصرة الخاصة باعجاز القرآن الكريم، فسنجد على رأس هؤلاء سيد قطب الذي سجّل في كتابه "التصوير الفني" اكتشافاً فريداً، واعتبره الباحثون رائداً لنظرية جديدة في فهم الاعجاز البياني[٢] ، وعبّر عن هذا الاعجاز بمصطلح سماه "سحر القرآن"[٣] أي تأثيره في سامعيه، وهو يرى أنّ مكمن الاعجاز في بيان القرآن وفي أسلوبه ونسقه البياني وتصويره الفني، وموضوعات القرآن قد عُرضت بطريقة التصوير؛ فهو يعبّر بالصورة المحسّة المتخيّلة عن المعنى الذهني والحالة النفسية، وعن الحادث المحسوس، والمشهد المنظور، وعن النموذج الإنساني والطبيعة البشرية، فالتصوير هو الأداة المفضّلة في أسلوب القرآن الكريم، ولهذا هي تمثّل لنا مرحلة ادراك الخصائص العامة الموحّدة للجمال الفني القرآني، التي فات القدماء تبنيها والوصول إليها[٤] . فهو بذلك يكمل ما بدأه القدماء في هذا المجال وفتح آفاقاً جديدة في فهم الاعجاز القرآني.

---

(١) صلاح عبدالفتاح الخالدي، البيان في اعجاز القرآن، ١٣٠.

(٢) السابق، نظرية التصوير الفني عند سيد قطب، ٥-٦، ١٣-١٤.

(٣) سيد قطب، ١٩٦٥، التصوير الفني، دار المعارف، مصر، ١٧-٢٣.

(٤) السابق، ٣٤-٣٥.

وقد استفاد الباحثون المعاصرون من كتابه الذي بنوا على ما فيه من أفكار ومبادئ ويكفي أنّ الدكتور صلاح الخالدي أحصى استفادة خمسة عشر باحثاً من كتاب سيد قطب، ولئن اعترف بعضهم بفضله، فإنّ عدداً آخر تأثروا به ولم يشيروا إليه[١] . لأسباب شتى.

وعلى الرغم من أهمية هذا الكتاب فلن أطيل الحديث عنه هنا؛ لأنه سيتم الحديث عن منهجه الأدبي في تفسير القرآن الكريم الذي كان الثمرة الطبيعية والترجمة العملية لما قاله في كتابه مما يعني أنّ هذه المؤلفات يكمل بعضها بعضاً. وأشعر أنني لن أستطيع أن أفيه حقه في هذه العجالة كما فعل الدكتور صلاح الخالدي الذي خصص دراسة في أكثر من ثلاثمئة صفحة للحديث عن كتابه "التصوير الفني". إذ يمكن العودة إليها لمزيد من التفاصيل.

ومن جديد الدراسات البلاغية المعاصرة التي بحثت في وجوه اعجاز القرآن الكريم، الأساليب التي لجأ إليها هؤلاء الباحثون لإبراز مواطن الجمال في النص القرآني، ومظاهر الاعجاز البلاغي فيه، وفي كيفية تحليلهم للنصوص القرآنية مستفيدين من نتائج آخر الدراسات في علم الاجتماع والنفس والجمال وعلم اللغة وقد عبر عبدالكريم عن هذا الرأي عندما قال: "وإن يكن لنا جديد في هذا الذي قلناه عن اعجاز القرآن فعرض ما قيل من قبل بصوت جديد ونغم جديد، من شأنه أن يجدد لسالك هذا الطريق نشاطاً، وأن يفتح له مسلكاً جديداً إلى كتاب الله، وفهماً مجدداً لآياته وعجائبه"[٢] وهذا ما تحقق في دراسة الدكتورة عائشة عبدالرحمن التي بحثت في كتابها فيما خاض فيه الأدباء والباحثون في أسلوب القرآن الكريم وبلاغته واعجازه وتناولوها في كتبهم ودراساتهم، ولكنها عرضت لها بأسلوب جديد وبطريقة تقوم على الاستقصاء للظاهرة القرآنية موضع الدراسة كما وردت في القرآن الكريم. وقد وصلت إلى نتائج أكثر دقة من نتائج السابقين، وأكثر انسجاماً مع بلاغة القرآن. ولن أطيل الحديث عن جهودها هنا؛ لأنني سأتحدث بتفصيل عن ذلك في الفصل الثالث من هذه الدراسة.

وبقيت نقطة أخيرة أحب الاشارة إليها باختصار وهي أنّ بعض الباحثين المعاصرين في أثناء بحثهم لوجوه الاعجاز في القرآن الكريم وقعوا في بعض الأخطاء، ما كان ينبغي لهم أن يقعوا فيها، بعد أن ارتقت العلوم والفنون في عصرنا، وتحددت

---

(١) صلاح عبدالفتاح الخالدي، نظرية التصوير الفني، ٣٢١-٣٥٢.

(٢) عبدالكريم الخطيب، اعجاز القرآن، ٢٤٣/٢.

معالم كل فن من الفنون وحدوده وتقسيماته، فلم يعد هناك مجال للخلط بينهما، وإن وقع القدماء في هذا الخطأ فلهم عذرهم في ذلك؛ لأنهم اجتهدوا وفق معطيات عصرهم ومواهبهم الذاتية. أمّا في عصرنا فلا نرضى من الدكتور محمد أبي زهرة في أثناء حديثه عن اعجاز القرآن أن يقسم وجوه الاعجاز إلى ما يتعلق بالمنهاج البياني، وبما اشتمل عليه من الاخبار عن الغيب[١]، فهذا الوجه -كما اتضح بالدليل- أنه لايشمل آيات القرآن كلها؛ لهذا لانعدّه وجهاً من وجوه الاعجاز وإنما نعتبره دليلاً على المصدر الرباني للقرآن الكريم.

ولا نقبل أن يكون موقف القرآن من العلوم الكونية، وسياسته في الاصلاح وأنباء الغيب فيه، ومظهر النبي -عليه السلام- عند هبوط الوحي -عليه السلام- وعجز الرسول عن الاتيان بمثله وغير ذلك من الأوجه التي اعتبرها محمد عبدالعظيم الزرقاني من أوجه الاعجاز في القرآن الكريم[٢] ، فبعضها دليل على صدق الرسول -عليه السلام- وأن الرسالة ليست من عنده. ولا علاقة لهذه الأمور باعجاز القرآن الكريم الذي ينبغي أن يكون نابعاً من نص القرآن الكريم.

ويُستغرب قول الدكتور محمد البهي: إنّ وجه التحدي بالقرآن ما فيه من مبادئ، وأهداف سامية صالحة للبشرية، وليس في أسلوبه أو ألفاظه أو نظمه، ودليله أنّ مشركي مكة قد رفضوا الدخول في الاسلام بمجرد استماعهم إلى القرآن الكريم، وهم قد تسرّعوا في موقفهم هذا، إذ لو استمعوا إلى القرآن كاملاً لربما غيّروا رأيهم[٣] ، بدليل قوله تعالى ﴿أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولمّا يأتهم تأويله﴾[٤] وقد لا يُقبل هذا الرأي؛ لأنّ القرآن الكريم لم يطالب العرب بالاتيان بما في القرآن من مبادئ وأهداف وقوانين وتشريعات لأنّ هذه الأمور فوق طاقتهم، ولم يُعرف عن العرب براعتهم بمثل هذه الأمور[٥]، فالمعجزة لاتكون إلا من جنس ما برع به قوم الرسول وإلا فما جدوى التحدي.

---

(١) محمد أبو زهرة، ١٩٧٠، المعجزة الكبرى، دار الفكر العربي،٩١، ٩٣.

(٢) عبدالعظيم الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، دار الفكر، ٢/٣٥٣-٤٠٥.

(٣) محمد البهي، نحو القرآن، ١١.

(٤) السورة يونس، الآيتان ٣٨-٣٩.

(٥) سعدالدين صالح، المعجزة والاعجاز في القرآن، ٧١.

ولايُقبل ما قاله محمد عبدالله دراز في أثناء حديثه عن مظاهر اعجاز القرآن الكريم – "ولذلك نسميه ايجازاً كله لأننا نراه في كلا المقامين لايجاوز سبيل القصد، ولا يميل إلى الاسراف"(١) فالقرآن الكريم لايكون ليجازاً كله؛ لأنّ للباحثين قد أثبتوا بالدليل النصي أنّ في القرآن الكريم ليجازاً واطناباً ومساواة(٢). وليس الايجاز محموداً في كل موضع، ولا مختاراً في كل كتاب، بل لكل مقام مقال، ولو كان الايجاز محموداً في كل الأحوال لجرّده الله تعالى في القرآن الكريم، أي لجعله ايجازاً كله ولم يفعل الله ذلك، ولكنه أطال تارة للتوكيد وحذف تارة للايجاز وكرر للإفهام(٣). ولو قرأنا قصة آدم الواردة في سور(٤): الكهف والحجر وص للاحظنا أنه تم الحديث عنها في آية واحدة فقط في سورة الكهف بينما تمّ ذكر تفاصيل أخرى في سورة الحجر وص وهذا يؤكد مصداق ما قلته سابقاً من انّ القرآن فيه الاطناب وفيه الايجاز حسبما يقتضيه سياق السورة.

ويزداد الأمر غرابة عندما نجد أحد الباحثين المعاصرين يعدّ الصرفة وجهاً من وجوه الاعجاز في القرآن الكريم(٥)، وهذا المبحث قد تجاوزه الزمن. فالقدماء قد ردوا على هذا الوجه بما لايدع مجالاً للمزيد من الآراء لبيان بطلان هذا الوجه وبيان عدم منطقيته، وإن كان لهذا الرأي فضل فما مضى تمثّل في شحذ همم القدماء وأقلامهم للرد عليه، ومن ثم بيان وجه الاعجاز في القرآن الكريم، فما المبرر لاعادة الحديث عنه ثانية في عصرنا.

وبعد أن عرضت لمجمل الآراء المعاصرة التي قيلت لبيان مفهوم الاعجاز في القرآن الكريم، وأين يكمن وما وجوه هذا الاعجاز؛ وبما أن الدراسات البلاغية المعاصرة التي تناولت هذه القضية لايكاد يحصرها العد؛ لأن هذا الموضوع كان مدار بحث منذ القديم وما زال حتى وقتنا الحاضر مثار اجتهادات الباحثين، وسيبقى هكذا إلى أن يرث الله –ﷻ– الأرض ومن عليها؛ لهذا سوف أختار دراسة الرافعي لتكون نموذجاً لما قالوه.

---

(١) محمد عبدالله دراز، النبأ العظيم، ١٢٧.

(٢) عبدالعظيم المطعني، خصائص التعبير القرآني، ١/١٦٤، وعبدالقادر حسين، فن البلاغة، ١٤–١٥، ٢٣.

(٣) ابن قتيبة، أدب الكاتب، حققه محمد الدالي، ١٩٨٢، ط١، مؤسسة الرسالة، ١٩.

(٤) سورة الكهف، الآية ٥٠، وسورة الحجر، الآيات ٢٨–٤٢، وسورة ص، الآيات ٧١–٨٥.

(٥) صلاح الدين بسيوني رسلان، القرآن الحكيم رؤية منهجية جديدة، ٢٣٣–٢٣٤.

دراسة مصطفى صادق الرافعي اعجاز القرآن والبلاغة النبوية:

اخترت هذه الدراسة؛ لأنها تشكل حلقة الوصل بين عصرنا ودراسات القدماء؛ ولهذا تُعتبر هذه الدراسة من الأعمدة التي ارتكز عليها الباحثون المعاصرون؛ لأنهم وجدوا في هذا الكتاب عرضاً لخلاصة آراء القدماء في هذا المجال، وقد عُرضت بأسلوب عصري، مما شجعهم على العودة إلى أمهات الكتب التي تحدثت عن اعجاز القرآن الكريم. وتحدث عنها الرافعي، وكان له فضل ريادة هذا الباب في وقتنا الحاضر، مما ميزه عن غيره من الدراسات.

وبعد أن استعرض الرافعي آراء القدماء في هذا المجال، بيّن أنه سيتناول الاعجاز القرآني من غير الجهة التي مضى عليها الأقدمون، ولكنه لم يستطع الخروج عما قالوه، لأنّ الاعجاز عنده يكمن في أسلوب القرآن ونظمه وتأليفه، وهذا هو المفهوم من قوله : وهذا الأسلوب، إنما هو مادة الاعجاز العربي في كلام العرب كله، ليس من ذلك شيء إلا وهو معجز... وهو الذي قطع العرب دون المعارضة واعتقلهم عن الكلام فيه، وضربهم بالحُجّة، من أنفسهم وتركهم على ذلك يتكأون[١] وقال أيضاً: "ورد عليهم من طرق نظمه، ووجوه تركيبه، ونسق حروفه في كلماتها، وكلماته في جملها، ونسق هذه الجمل في جملته، وما أذهلهم عن أنفهسم من هيبة رائعة وروعة مخوفة[٢]" وهذانِ النصان ينصان على أنّ اعجاز القرآن في نظمه وهذا الرأي لاجديد فيه[٣] بالقياس إلى ما قاله القدماء في هذا المجال.

وعلى الرغم من ايمانه بالنظم إلا أنه لم يعتبره الوجه الوحيد للاعجاز في القرآن ولهذا أحصى الدكتور عبدالعظيم المطعني خمسة عشر وجهاً من وجوه الاعجاز تحدث عنها الرافعي. والرافعي لم يتحدث عن هذه الوجوه بهذه التقسيمات، ولكن الدكتور عبدالعظيم استوحاها مما قاله الرافعي. وهذه الأقسام يمكن دمجها معاً والتقليل من عددها

---

(١) مصطفى صادق الرافعي، اعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ١٨٨، ٢١١.

(٢) السابق، ١٨٩.

(٣) مصطفى الدباغ، ١٩٨٥، وجوه الاعجاز القرآني، ط٢، مكتبة المنار، الاردن، ٣٠.

والشحات محمد أبو ستيت، ١٩٩١، بحوث في البلاغة والنقد، ط١، مطبعة الأمانة، مصر ٣٣. ومهدي صالح السامرائي، تأثير الفكر الديني في البلاغة العربية، ٢٦٠ وعبدالكريم الخطيب، اعجاز القرآن، ١/٣٤٠.

فبعضها تفريعات لنقطة واحدة[١]. وهذا مثل على الطريقة التي اتبعها في تأليفه. حيث كان يشوبها الاستطراد والتكرار واعادة الحديث في أكثر من موضع.

وعلى الرغم من ذلك فإنّ كتابه لايخلو من عمق نظر وجدة وطرافة تتمثل فيما أسماه بصوت النفس وصدق الحس وصوت العقل، وهذه الأصوات الثلاثة لابدّ منها في تركيب النسق البليغ، حتى يستجمع الكلام بها أسباب الاتصال بين الألفاظ ومعانيها وبين هذه المعاني وصورها النفسية، فيجري في النفس مجرى الارادة، ويذهب مذهب العاطفة، وينزل منزلة العلم الباعث على كلتيهما"[٢] وكذلك فيما أسماه "الاقتصاد في التأثير على الحس النفسي"[٣] الذي جعله أصلاً في بلاغتنا. ولكنه لم يذكر لنا أمثلة تدعم فكرته، أو على الأقل لتجعلها أكثر وضوحاً في ذهن القارئ، وهذه واحدة من المآخذ التي أُخذت على كتابه.

وطغى الاهتمام بالتنظير في كتابه، وقلّما أتبع ذلك بالتطبيق العملي على الرغم من أنه كان يتحدث عن الاعجاز في القرآن الكريم الذي يتطلب تحليل النصوص، وهو لم تكن تنقصه القدرة على التحليل، فهو يملك ناصية اللغة، ويمتلك حساً لغوياً وذوقاً مدرباً، وعقلية نيّرة، وكنت أتمنى لو وظف هذه المهارات في تحليل النصوص القرآنية وبيان ما فيها من جمال، كما فعل عندما حدثنا عن البلاغة في بعض الآيات القرآنية[٤]، ولكنها كانت قليلة جداً بالقياس إلى عدد صفحات كتابه.

ولاحظت كذلك غموض بعض عباراته وهو لم يوضح لنا مقصده منها مما يجعلها تحتمل تفسيرات عدة مثلاً نفيه اعتماد القرآن على الخيال الشعري[٥]، فإن كان قصده من ذلك صور المجاز والتمثيل والتشبيه. فقد حالفه التوفيق. ومما زاد الأمر غموضاً انه لم يُتبع ذلك بأمثلة تبين مقصده. وكذلك الأمر بالنسبة الى قوله بأن القرآن معجز في تاريخه[٦]. حيث فهم منها عبدالكريم الخطيب أنّ القرآن الكريم نزل خالياً من صفة

---

(١) عبدالعظيم المطعني، خصائص التعبير القرآني، ١/١٥٦-١٥٩ ومصطفى صادق الرافعي، اعجاز القرآن، ٢٠١-٢٤٩.

(٢) السابق، ١/١٦٠ والسابق، ٢٢٠-٢٢٤.

(٣) مصطفى صادق الرافعي، اعجاز القرآن، ٢٢٤.

(٤) السابق، ٢٢٦-٢٣٥.

(٥) السابق،٢٢٣،وعبدالعظيم المطعني، خصائص التعبير القرآني، ١/١٦١ والشحات محمد أبو ستيت، بحوث في البلاغة والنقد،٧.

(٦) السابق، ١٥٦.

الاعجاز واكتسب هذا الاعجاز بمرور الزمن أياماً ودهوراً[١]. ولكن الدكتور عبدالعظيم المطعني حمل كلام الرافعي على أنّ تلك الوجوه المعجزة التي أفاض في الحديث عنها لم ينتقض منها وجه على مر الأيام والدهور، وبهذا للفهم لايكون لعبدالكريم حجة في نقده[٢]. ولو كانت عبارات الرافعي وهو –المتمكن من اللغة– دقيقة لما أثارت هذه الخلافات بين البلحثين، وعلى الباحث اختيار العبارات الدقيقة وبخاصة إذا كان يتحدث عن اعجاز القرآن الكريم.

(١) عبدالكريم الخطيب، اعجاز القرآن، ١/ ٣٣١-٣٣٣.

(٢) عبدالعظيم المطعني، خصائص التعبير القرآني، ١/ ١٦٢.

دراسة الدكتور عبدالعظيم المطعني: خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية:

تتحدث هذه الدراسة عن بلاغة القرآن بشكل عام. وفي أثناء ذلك تطرق المؤلف إلى مظاهر اعجاز القرآن الكريم، وبيان مواطن الجمال فيه، من خلال الاستعراض الشامل لمباحث بلاغية وردت في القرآن الكريم.

وميزة هذه الدراسة تكمن في أنها تلفت الأنظار إلى مظاهر البلاغة في القرآن الكريم، وتعرض لها بصورة عامة؛ لتكون بمثابة ومضات واشارات قد يتلقفها باحث ما، ثم يتتبع هذه الظاهرة كما وردت في القرآن الكريم، فيدرسها دراسة مُعمقة، ويحللها كاشفاً عن مواطن الجمال فيها، وبذلك يبني اللاحق على ما قاله السابق ثم ينميه حسب قدراته ومواهبه الخاصة.

وسأتوقف عند دراسة الدكتور عبدالعظيم المطعني باعتبارها من أفضل الدراسات التي تناولت بلاغة القرآن الكريم؛ لثرائها ولضخامتها حيث قاربت ألف صفحة في جزئين، تنقّل فيهما الباحث بين مختلف روائع الاعجاز القرآني وبلاغته، بحيث كان كل مبحث من مباحث كتابه يصلح لدراسة مستقلة مُوسّعة حول بلاغة القرآن كما أنه قام بطباعة كتابه عام ١٩٩٢. وهذا يعني أنه قد واكب آخر ما استجد من الدراسات في العلوم المختلفة وبالتالي استفاد منها بمقدار ما رآه مناسباً لدراسته.

وتمتاز هذه الدراسة بتتبع الظاهرة البيانية في القرآن الكريم، مع سوق الدليل عليها، وعدم الاكتفاء بالتعميم، ومجرد التمثيل على الفن البلاغي دونما تحليل له وتقوم على الاعتماد على القرآن نفسه في استنتاج ما أمكن استنتاجه بالنظر في طرق الصياغة، والاستعانة بأسباب النزول وزمانه ومكانه لإلقاء الأضواء على النص القرآني، والالتفات إلى الدلالة اللغوية للألفاظ، والسياق الذي وردت به ، والمقام الذي اقتضاها[١]. وهذا هو المنهج الذي ينبغي أن يسير عليه الباحث في بلاغة القرآن لتكون آراؤه صحيحة، ومنسجمة مع بلاغة القرآن الكريم.

وتميّزت دراسته كذلك بعمق تحليلاته، فهو لم يكن يأخذ كل ما قاله الباحثون كحقائق مُسلّم بها، تمثّل ذلك في مناقشاته لآراء من تحدثوا عن الاعجاز في القرآن الكريم

---

(١) عبدالعظيم المطعني، خصائص التعبير القرآني، ١/٩.

من القدماء والمعاصرين على حد سواء، موافقاً حيناً، مخالفاً حيناً آخر معتمداً في كل ذلك على النظر المتعمّق في النص القرآني، وعلى ذوقه وحسه المرهف، والأدلة والبراهين العقلية؛ لتكون نتائجه أقرب إلى الصواب، وإلى بلاغة القرآن الكريم.

وهو لم يكن يناقش آراء البلاغيين فقط بل كان يقارنها بآراء غيرهم من الباحثين كالمفسرين والمتكلمين والنقاد الذين تحدثوا عن الظاهرة نفسها، مبيناً أين أحسنوا وأين قصّروا، فقد عرض لآراء الواسطي والخطابي والرماني وعبدالقاهر الجرجاني والزمخشري والزركشي والاسكافي والسيوطي، وابن طباطبا وأبي هلال العسكري والقاضي الجرجاني وابن حزم والنظام، ثم عرض لآراء الرافعي والدكتورة عائشة عبدالرحمن، ومحمد أبي زهرة، ومحمد دراز وعبدالكريم الخطيب، والزرقاني[1] . وكل واحد من هؤلاء الأعلام غني عن التعريف، وله مكانة سامية في مجال دراسة بلاغة القرآن الكريم، ولكن من أبرز المآخذ التي تُوجّه إليه أنه لم يتحدث عن سيد قطب ودوره -الذي لايستطيع أحد انكاره- في مجال الدراسات القرآنية وبخاصة نظرية التصوير التي توصل إليها، وتفسيره الضخم للقرآن الكريم، ولا أدري لماذا أغفل دوره؟

وفي مبحث التشبيه والتمثيل في القرآن الكريم، قام باستقصاء النصوص القرآنية المحتوية على هذه الظاهرة، ثم قسّمها إلى مجموعات أربع حسب الموضوعات التي تناولها الأولى: كانت في شأن الكافرين. والثانية: في شأن المؤمنين والثالثة: في مظاهر القدرة الإلهية، والرابعة: باقة من الزهور، بحث فيها نصوصاً كثيرة لارابط بينها سوى ورود التشبيه والتمثيل فيها. ذاكراً الأمثلة القرآنية المناسبة لكل مجموعة، ومحللاً لها، ثم مبرزاً مواطن الجمال فيها، ومتوقفاً عند الصور التي وردت بها في القرآن الكريم، وأخيراً منبهاً على بعض الأخطاء التي وقع فيها بعض المعاصرين في أثناء تحليلهم لبعض الآيات القرآنية، داعماً كل ما توصل إليه بالدليل المقنع حتى[2] لاتكون مجرد مخالفة لما قالوه.

ومن أهم ما توصل إليه في هذا المبحث حديثه عن نوع جديد من التشبيه كثر وروده في القرآن الكريم، أسماه التشبيه السلبي، وعدّه نوعاً جديداً توصل إليه ولهذا قام

---

(١) عبدالعظيم المطعني، خصائص التعبير القرآني، ١/٧٤، ١٥٢، ١٥٦، ١٦٢، ١٦٥، ١٦٨، ١٧،٢٢، ٧٥، ٩١، ١٠٢، ١٢٤، ١٣٥، ١٥٩.

(٢) السابق، ٢/٢٠٥-٢٦٥.

بتعريفه وبيان دلالته[١]، وذكر النصوص القرآنية الممثّلة له، وبيّن لماذا كان هذا النوع من أخص خصائص القرآن الكريم.

وميزة هذا التشبيه توسّط الأداة بين طرفي التشبيه على الرغم من عدم وجود شبه بينهما، فقد يكونان ضدين أو كالضدين، ويكثر هذا النوع من التشبيه في القرآن الكريم عندما يتحدث عن الهدى والضلال، والكفر والايمان، والطاعة والمعصية[٢]. ومن أمثلته قوله تعالى ﴿أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار﴾[٣] .

ونجد في هذا التشبيه جدة وجزالة، ومن النادر أن نجد مثالاً له في الشعر، حتى وإن وُجد فإنه لايصل إلى مستوى التشبيه الوارد في القرآن الكريم[٤] ومثاله قول المتنبي[٥]

ما الذي عنده تُدار المنايا كالذي عنده تُدار الشمول

ولم ينسَ الحديث عن بديع القرآن. وكان هدفه من هذا المبحث التدليل على أصالة "البديع" في القرآن سواء المعنوي واللفظي، وقام بدراسة خمس آيات من ثلاث سور مختلفة[٦]، وأحصى ما ورد فيها من صور البديع -بعد حذف المكرر- فبلغت واحداً وأربعين نوعاً، وهذا يعني أنّ الآيات القرآنية التي اختارها قد حفلت بصور البديع - وهو يذكرنا بصنيعه هذا بابن أبي الإصبع في "بديع القرآن" وفي هذا ردّ على من يحاولون التقليل من قيمة البديع في اللغة العربية؛ ولهذا كان النقاد يحذرون من الإكثار منه في غير القرآن، وهم يشترطون لذلك جري البديع مع الطبع، والاقلال منه، ليأمن الأديب الزلل، والشرط الأول توفر في القرآن الكريم أما الشرط الثاني فلا مجال له فيه[٧]،

---

(١) عبدالعظيم المطعني، خصائص التعبير القرآني، ٢/٢٧٠-٢٧١، ٢٩٠-٢٩١.

(٢) السابق، ٢/٢٧٣.

(٣) السورة ص، الآية ٢٨ وفي سورة التوبة، الآية ١٩ وسورة الأنعام، الآية ١٢٣ وسورةالزمر، الآية ٩ وسورة الرعد، الآية ١٩ وسورة السجدة، الآية ١٨.

(٤) عبدالعظيم المطعني، خصائص التعبير القرآني، ٢/ ٢٧٣.

(٥) المتنبي، الديوان، ٣/١٥٧.

(٦) السورة البقرة، الآيتان ٢٦-٢٧ وفي سورة هود، الآية ٤٤ وسورة يوسف، الآيتان ٢٦-٢٧، وينظر عبدالعظيم المطعني، ٢/٤٥٦-٤٦٨.

(٧) عبدالعظيم المطعني، خصائص التعبير القرآني، ٢/ ٤٦٩.

ويمتاز بديع القرآن بوفائه بحق اللفظ والمعنى. وهذا هو الفارق بين القرآن في بيانه المعجز وبين غيره من الآداب الرفيعة[١]، ومع ذلك فهو لايرى فائدة في الاكثار من تعداد أنواع البديع لأنّ ادارك جمال التعبير في القرآن لايحتاج إلى أكثر من الذوق وصفاء النفس فلا داعي لكثرة التقليب والتنويع[٢] . فالمهم تحليل النصوص وادراك مواطن البلاغة فيها، وهو بذلك يكون من الباحثين المعاصرين الذين أنصفوا البديع.

وقد عرضت لآرائه بصورة موجزة، وذلك لأنّ هذه المباحث سيتم الحديث عنها بصورة مُفصّلة في النوع الثالث من الدراسات البلاغية المعاصرة؛ لأنّ الدراسات البلاغية الشاملة، وجدت صدى حسناً في نفوس الباحثين، مما جعلهم يُفردون لهذه المباحث دراسات مستقلة.

---

(١) عبد العظيم المطعني، خصائص التعبير القرآني، ٢/ ٤٦١.

(٢) السابق، ٢/ ٤٧٧.

دراسات لظواهر بلاغية قرآنية

أمّا النوع الثالث من الدراسات البلاغية المعاصرة للقرآن الكريم فكان يتمثل في اختيار ظاهرة بلاغية مُحددة، ثم تتبعها في القرآن، وتحليل الآيات القرآنية المُمثّلة لها؛ للكشف عن مواطن الجمال فيها، والاعجاز البلاغي وتمتاز هذه الدراسات بأنها تجمع بين خصائص دراسات النوع الأول والثاني التي عرضت لها قبل قليل. وهي تعتبر مُكمّلة لما ورد في الدراسات السابقة.

كما أنها تمتاز بدقة نتائجها؛ التي يستخلصها الباحث بعد الدراسة المتخصصة والمتعمقة للظاهرة البلاغية التي اختارها لتكون موضوع دراسته، بينما نتائج الدراسات السابقة تكون عامة؛ لأنها تعرض لعدة فنون بلاغية في كتاب واحد، وبلاغة القرآن الكريم يصعب دراستها في كتاب واحد. مهما بلغت صفحاته؛ ولهذا سيضطر الباحث إلى الاختصار قدر المستطاع، وإصدار الأحكام العامة.

ومعظم دراسات المعاصرين كانت تكتفي بتناول ظاهرة بلاغية قرآنية وتعرض لها من جوانبها المختلفة، وامتازت بكثرتها وتنوعها بحيث يعجز الباحث عن الاحاطة بكل ما قالوه؛ ولهذا سأقوم باختيار الدراسات التي شعرت أنّ لها صلة مباشرة ببحثي لأسلّط الأضواء عليها؛ ولبيان المنهج الذي اتبعه المعاصرون في أثناء تحليلهم لبلاغة القرآن. وفيما يلي استعراض لبعض هذه الدراسات:

ألفاظ القرآن الكريم:

وقد حظيت هذه القضية باهتمام الباحثين المعاصرين، وقلمّا نجد دراسة بلاغية معاصرة خلت من الاشارة إليها؛ لأنّ الألفاظ تُشكّل اللبنة الأولى في بناء النص القرآني، منها يتشكّل وعليها يقوم، فهي عماد الأسلوب.

ولعل دراسة الدكتور عبدالعظيم المطعني من أغنى الدراسات في هذا المجال؛ لأنه توصل في أثناء دراسته لخصائص التعبير في القرآن الكريم إلى نظرية سماها "منهج الالتزام" ولهذه النظرية عدة جوانب: فمن التفرقة الدقيقة بين الألفاظ، استخدام (مرض) في مواضع بصورة مجازية، واستخدام المعنى الحقيقي للمادة نفسها في موضع آخر[1]. وقد تقع تلك التفرقة الدقيقة بين الألفاظ في استعمالات المادة الواحدة، كأن يختص

---

(١) عبدالعظيم المطعني ، خصائص التعبير القرآني ١/٣١٠-٣١٣، ورد لفظ (مرض) في ١٣ موضعاً بالمعنى المجازي وفي ١٠ مواضع بالمعنى الحقيقي. ماعدا قوله تعالى ﴿وإذا مرضت فهو يشفين﴾ حيث تحتمل الحقيقة والمجاز.

استعمالها فعلاً في معنى ويطرد ذلك الاستعمال فيه ويختص استعمالها اسماً في معنى آخر. كما في مادة (ختم) يستخدمها القرآن إذا كانت "فعلا" في مواضع الذم والتهديد، وإذا كانت (اسماً) يستخدمها في مقام المدح والترغيب(١) .

وكذلك التزام الجمع(٢) في كلمة فلا تأتي مفردة في القرآن الكريم، أو التزامها مفردة(٣) دون أن يستعملها مجموعة، والتزام التعريف في بعضها(٤) والتنكير في بعضها الآخر(٥)، وقد ذكر لنا الآيات القرآنية المناسبة والدالة على ذلك ولكنه لم يعلل لنا سر مجيئها على هذه الصور بينما فسّر الدكتور عبدالقادر حسين سرّ إفراد الأرض والنور في القرآن الكريم وجمع السموات والظلمات(٦). وهذه الظاهرة تستحق المزيد من الدراسات والتحليل.

ولكن هذه النظرية لاتنطبق على جميع ألفاظ القرآن الكريم، إذ نلاحظ مجيء بعض الألفاظ في القرآن الكريم، مفردة تارة ومجموعة تارة أخرى في الآية نفسها كلفظ الجنة الذي ورد مفرداً ومثنى وجمعاً في القرآن الكريم، وبالمقابل وردت النار مفردة فقط(٧)، وكذلك لفظا اليمين والشمال جاءا بالإفراد تارة وبالجمع تارة(٨) ، والغريب في الأمر أنّ اللفظة قد تأتي في الآية الواحدة مفردة ويأتي مقابلها جمعاً كما ورد في قوله تعالى ﴿أولم يروا إلى ما خلق الله من شيء يتفيؤا ظلاله عن اليمين والشمائل سُجداً لله وهم داخرون﴾(٩) وقد علل ذلك الدكتور عبدالقادر حسين: "لمّا كانت الشمال جهة أهل الباطل وهم أصحاب الشمال جُمعت"(١٠) فكأنه يريد القول إنّ طريق الحق والخير محدد

---

(١) عبدالعظيم المطعني، خصائص التعبير القرآني، ١٨٠١٩/١ وردت (فعلا) في ٥ مواضع و(اسماً) في ٣ مواضع.

(٢) منها: الظلمات وردت في ٢٣ آية والألباب في ١٦ آية والأرائك في ٥ آيات والأرجاء في آية واحدة.

(٣) منها: الأرض في ٤٦١ آية والنهار في ٥٧ آية والنور في ٤٣ آية والشمس في ٣٣ آية والقمر في ٢٧ آية والضحى في ٧ آيات.

(٤) منها: الناس في ٢٤ آية. والصدور في ٣٤ آية.

(٥) منها: شيء وردت في ٢٧٩ آية.

(٦) عبدالقادر حسين، من علوم القرآن، ١٤٥-١٤٨.

(٧) ورد لفظ الجنة في ٧٠ موضعاً مفرداً و ٦٩ موضعاً جمعاً و في ٨ مواضع مثناة بينما ورد لفظ النار في ١٤٥ موضعاً مفردا فقط.

(٨) ورد لفظ اليمين في ٤١ موضعاً جمعاً وفي ٣ مواضع مفرداً بينما ورد لفظ الشمال في ٨ مواضع مفرداً وفي موضعين اثنين جمعاً.

(٩) السورة النحل، الآية ٤٨ وفي سورة الشعراء، الآية ١٠١.

(١٠) عبدالقادر حسين، من علوم القرآن، ١٤٩ وأحمد بدوي، من بلاغة القرآن، ١٤٠.

ومعروف فلا مجال للتشعب فيه، بينما للباطل والشر طرائق متعددة ومتشعبة لذلك جُمعت.

وكذلك نلاحظ مجيء السمع مفرداً في القرآن والأبصار جمعاً في جميع آي القرآن الكريم[١] ما عدا قوله تعالى ﴿ولاتقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا﴾[٢] فقد وردت كلمة (البصر) مفردة أيضاً، فما سر المخالفة هنا؟ الله أعلم[٣].

والأمثلة السابقة تبين لنا أن هذا الموضوع غني ويمكن للباحث أن يتتبع المزيد من الألفاظ في القرآن الكريم ثم يبيّن الحكمة من مجيئها مفردة أو مُثناة أو مجموعة ولا يكتفي بذكر عدد مرات مجيئها وإنما يحلل لنا النصوص القرآنية ويقارن فيما بينها.

ونلاحظ أنّ القرآن الكريم التزم النفي في الفعل (يشعرون)[٤] كما في قوله تعالى ﴿يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون﴾[٥] ونضيف وكذلك الأمر بالنسبة إلى أفعال[٦] (تشعرون) و(يشعركم) و(يشعرنّ) وهذا النفي كثيراً ما يأتي في مواضع الذم، بينما التزم القرآن الكريم الاثبات في كلمة (طبع)[٧] كما في قوله تعالى ﴿وطبع الله على قلوبهم فهم لايعلمون﴾[٨] ولكن الباحث لم يقم بتعليل هذه الظاهرة، ولا يكفي مجرد لفت الانتباه إليها، أو وصفها كما وردت في القرآن الكريم.

وهناك وجه آخر لهذه النظرية وهو أنّ القرآن الكريم يُفَرق بين الكلمتين المتشابهتين في المعنى فيستعمل كلاً منهما في موضع ولا يستعمل الثانية فيه، مع أننا في استعمالنا لانكاد نلمس فرقاً بينهما، وكان الجاحظ قد فطن إلى هذا الملحظ الدقيق في ألفاظ القرآن الكريم[٩] . وتلقف الدكتور هذه الملاحظة ثم تتبعها في القرآن الكريم وتوصل إلى

---

(١) محمد فؤاد عبدالباقي، ١٩٨٦، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، دار الحديث، القاهرة، مادة (سمع) و (بصر).

(٢) السورة الاسراء، الآية ٣٦.

(٣) ابراهيم السامرائي، ١٩٨٤، من بديع لغة التنزيل، ط١، دار الفرقان، عمان، ومؤسسة الرسالة، بيروت، ٢٣٤.

(٤) ورد في ٢١ موضعاً.

(٥) السورة البقرة، الآية ٩.

(٦) السورة السابقة، الآية١٥٤ وفي سورةالشعراء، ١١٣ وسورة الزمر، الآية ٥٥ وسورة الحجرات، الآية ٢ وسورة الأنعام ، الآية ١٠٩ وسورة الكهف، الآية ١٩.

(٧) وردت في ١١ موضعاً، ينظر محمد فؤاد عبدالباقي مادة (طبع).

(٨) السورة التوبة، الآية ٩٣.

(٩) الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق وشرح عبدالسلام هارون، ١٩٦٠، ط٢، مكتبة الخانجي، مصر، ومكتبة المثنى ببغداد، ١/٢٠-٢١.

ما كان الجاحظ قد لفت إليه، وبما أنّ القارئ سيدرك مقدار التشابه الكبير بين ما قاله الدكتور في كتابه وما قالته الدكتورة عائشة عبدالرحمن حول هذه الظاهرة -وهذا ما سأعرض له في الفصل الثالث من هذه الدراسة- قام الدكتور بلفت انتباهنا إلى أنه قد سبق الدكتورة بقرابة ست سنين في بحثه لهذه الظاهرة؛ لأنه عندما تقدّم ببحثه لرسالة الماجستير الذي كان بعنوان "سحر البيان في مجازات القرآن" كتب فيه فصلين كبيرين حول هذه القضية، وبالتالي هو متأثر بالجاحظ الذي -كما قلت- يعود إليه الفضل في التنبّه لهذه الظاهرة[١] ، فهل اطلعت الدكتورة على بحثه -ولم تشر إلى ذلك- وهذا مُستبعد لما تتمتع به الدكتورة من خلق وأدب وتواضع تشهد بذلك مؤلفاتها في بلاغة القرآن. وبالتالي يكون التشابه بين الدراستين من باب توارد الخواطر، وتطوير لما قاله الجاحظ، ودليل آخر على أنه يمكن لباحثين أن يتوصلا إلى النتائج نفسها إذا ما اتبعا المنهج العلمي في الدراسة والتحليل.

وتنبّه إلى هذه الظاهرة الدكتور إبراهيم السامرائي جاء ذلك في معرض حديثه عن دلالة لفظتي (الشك والريب) في القرآن الكريم، فقد لفته مجيء كلمة (الشك) موصوفة بـ (مريب) كما في قوله تعالى ﴿قالوا ياصالح قد كنت فينا مرجُوّاً قبل هذا أتنهانا أن نعبد مايعبد آباؤنا وإننا لفي شك مما تدعونا إليه مريب﴾[٢] وقلّما تنبّه المفسرون لهذا الوصف، ورجّح الدكتور أن يكون الشك أضعف من الريب وإلا لما وُصف ولهذا وردت كلمة (الريب) عندما يكون الحديث عن وقوع القيامة والبعث وعن المصدر الرباني للقرآن الكريم، ولم ترد في هذا المقام لفظة الشك[٣] كما في قوله تعالى ﴿آلم تنزيل الكتاب لاريب فيه من رب العالمين﴾[٤] بينما تأتي لفظة (الشك) في المواضع التي تدل على التردد وعدم اليقين كما في قوله تعالى ﴿بل ادّارك علمهم في الآخرة بل هم في شك منها بل هم منها عمون﴾[٥] فكل لفظة لها موقعها الخاص بها ولا تحل إحداهما مكان الأخرى.

---

(١) عبدالعظيم المطعني، خصائص التعبير القرآني، ١/١٧٥، ٢٨٣-٢٩١، وأحمد بدوي، من بلاغة القرآن، ٥٧-٥٨.

(٢) السورة هود، الآيتان ٦٢، ١٠٩ وفي سورة ابراهيم، الآية ٩ وفي سورة سبأ، الآية ٥٤ وفي سورة فصلت، الآية ٤٥ وفي سورة الشورى، الآية ١٤.

(٣) ابراهيم السامرائي، من بديع لغة التنزيل، ١١.

(٤) السورة السجدة، الآيتان ١-٢، وفي سورة الكهف، الآية ٢١ وفي سورة الحج، الآيتان ٥-٧ وفي سورة الشورى، الآية ٧ وفي سورة الجاثية، الآية ٢٦.

(٥) السورة النمل، الآية ٦٦ وفي سورة يونس، الآيتان ٩٤، ١٠٤ وفي سورة إبراهيم، الآية ١٠ وفي سورة سبأ، الآية ٢١ وفي سورة ص، الآية ٨.

وتتمة لجوانب نظريته فقد لاحظ الدكتور عبدالعظيم توارد المعاني على اللفظ الواحد في القرآن الكريم، الذي كان يستخدم اللفظ الواحد في مواضع متعددة، وكل موضع يُراد به معنى غير الذي أُريد به في الموضع الآخر(١) ومن ذلك كلمة (هدى) وما اشتق منها، فقد وردت في سبعة عشر موضعاً وفي كل مرة كان يُراد بها معنى مختلفاً(٢) . والأمرنفسه يقال في كلمة (السوء) فقد بلغت المعاني التي استخدم فيها القرآن هذه المادة عشرين وجهاً(٣) وباعتراف الدكتور فإنه لايمكن ادراك الفروق بين هذه المعاني إلا بالتأمل الدقيق(٤) ، والتفرقة بينها تقوم على اعتبارات دقيقة، ولا يمكن تبيّنها لأول وهلة.

وتمتاز بعض الألفاظ باحتمالها لمعان متعددة، وكلها تبدو صحيحة ومقبولة ويحتملها النص القرآني مالم تتعارض(٥) . ومن أمثلة ذلك قوله تعالى ﴿والله يرزق من يشاء بغير حساب﴾(٦) فكلمة حساب، هنا تحتمل المعاني التالية:

إنّ الله يرزق من يشاء من عباده دون أن يحاسبه أحد لماذا رزقه؟ وقد يكون إنّ الله يرزق من يشاء بغير محاسبة لنفسه، خشية نفاد ما بيده لأنه غني، أو إنّ الله يرزق من يشاء، بحيث لايكون في حسبان المرزوق جهة الأرزاق وكيفيتها؛ لأنّ ذلك قد اختصّ الله به، أو أنّ الله يرزق من يشاء بغير معاقبة أو محاسبة له على عمله، لأنه يغفر لمن يشاء، ويعذب من يشاء لامُعقّب لحكمه. وأخيراً قد يكون المعنى إنّ الله يرزق من يشاء رزقاً كثيراً، لايدخل تحت حساب أو حصر(٧) . فهذه خمسة معان احتملتها هذه اللفظة ولا نستطيع أن نجزم أيها المقصود بها هنا، فكلها يمكن قبولها.

---

(١) وقد خصص أحمد الحوفي كتاباً لدراسة معاني السماء والأرض في القرآن الكريم، مؤسسة الخليج العربي، القاهرة، ٩-٢٤، ٦٣-٩٠ .

(٢) عبدالعظيم المطعني، خصائص التعبير القرآني، ١/ ٣٦٩. وتحدث هارون بن موسى القارئ عن هذه المعاني في كتابه الوجوه والنظائر في القرآن الكريم، تحقيق حاتم الضامن، ١٩٨٨، دار الحرية للطباعة، العراق، ٢٨-٣٢.

(٣) عبدالعظيم المطعني، ٣٧٣/١. وردت (السوء) في ٥٩ موضعاً ولكنها احتملت عشرين معنى والأمر نفسه يقال في كلمة الوحي إذ وردت في القرآن الكريم بمعان متعددة ذكرها محمد طه الباليساني في كتابه "القول المنصف في تفسير سورة يوسف" مطبعة وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، بغداد، ٥١-٥٢. وفتحي فريد، ١٩٨٥، من أخلاق القرآن وبلاغته في سورة النور، دار مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ٦٠-٦١.

(٤) عبدالعظيم المطعني، خصائص التعبير القرآني، ٣٧٣/١.

(٥) حسن محمد موسى، ١٩٦٦، قاموس قرآني، مطبعة خليل ابراهيم، الاسكندرية، ٢٥.

(٦) السورة البقرة، الآية ٢١٢.

(٧) عبدالعظيم المطعني، خصائص التعبير القرآني، ٣٧٤/١ ومحمد عبدالله دراز، النبأ العظيم ، هامش ١١٧-١١٨.

ونلاحظ أنه اكتفى بذكر المثال الذي ذكره من قبل محمدعبدالله دراز والشرح الذي ذكره -بتصرف- وكان يجدر به - وهو صاحب نظرية الالتزام كما قال أن يأتي بمزيد من الأمثلة ومنها: قوله تعالى﴿ذلك اليوم الحق فمن شاء اتخذ إلى ربه مآبا﴾(١) فمآب وزنها الصرفي مَفْعل، وهذا الوزن صالح لأن يكون اسم زمان والمعنى فمن شاء اتخذ وقتاً يرجع فيه إلى الله بالتوبة. وصالح لأن يكون اسم مكان والمعنى فمن شاء اتخذ طريقاً للرجوع إلى الله بالعمل الصالح، وقد يكون مصدراً ميمياً على معنى الرجوع(٢) كما في قوله تعالى ﴿وإليه مآب﴾(٣) والطريف في الأمر أنّ الصيغ السابقة كلها تصلح للتفسير ولايمكننا ترجيح صيغة على صيغة وهذا مظهر من مظاهر بلاغة القرآن المعجزة.

ومن مظاهر اعجاز القرآن الكريم أننا نجده يعبّر عن المعنى الواحد بصور تعبيرية مختلفة(٤) كما في استخدام القرآن الكريم للألفاظ: نسلخ ويولج ويكور ويغشى وتجلّى(٥) للتعبير عن تعاقب الليل والنهار فهذه الألفاظ لكل منها دلالتها الخاصة، إلا أنها أُستخدمت للدلالة على تعاقب الليل والنهار.

ولاحظ الدكتور عبدالقادر حسين أنّ بعض الألفاظ كثيرة الدوران في القرآن الكريم(٦) ولكنها تحمل خصوصية، تُفهم من السياق الذي وردت فيه، فلفظ "فَعَل" يأتي للتعبير عن أفعال متعددة، وفائدته الاختصار كما في قوله تعالى ﴿كانوا لايتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون﴾(٧) فهذه الكلمة تحمل في طياتها التعبير عن أفعال كثيرة قام بها اليهود ولذلك استحقوا لعنة الله عليهم. وإذا ما أُسندت هذه اللفظة إلى الله -سبحانه وتعالى- فإنها تعني الوعيد الشديد كما في قوله تعالى ﴿وسكنتم في مساكن الذين ظلموا

---

(١) السورة النبأ، الآية ٣٩.

(٢) محمد أحمد نحلة، ١٩٨٨، دراسات قرآنية في جزء عم، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، ١٨٠.

(٣) السورة الرعد، الآية ٣٦.

(٤) مصطفى الصاوي الجويني، جماليات المضمون والشكل، ١٢٨.

(٥) ينظر مثلاً السورة يس، الآية ٣٧ وسورة الزمر، الآية ٥ وسورة الحديد، الآية ٦. وسورة الليل، الآية ١ وسورة الشمس، الآية ٤.

(٦) عبدالقادر حسين، من علوم القرآن، ١٢٥-١٢٧.

(٧) السورة المائدة، الآية ٧٩ وفي سورة النساء، الآية ٦٦ وفي سورة البقرة الآية ٢٤.

أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال﴾[١] فاللفظ (فعلنا) اختصر لنا كل مظاهر العذاب التي حلّت بالأقوام التي استحقت عذاب الله -سبحانه وتعالى-.

ويكثر في القرآن الكريم الإخبار عن ذات الله وصفاته بلفظ (كان) وقد ورد هذا اللفظ في سورة النساء وحدها في سبعة وأربعين موضعاً، ولكن الدكتور لم يحاول تعليل هذه الظاهرة، كما انه لم يتوقف عند دلالة (كان) فهي تدل على الماضي، ولكنها عندما ترد للحديث عن صفات الله فإنها تفيد الاستمرارية فصفاته سبحانه لايمكن أن تكون في الزمن الماضي فقط، فسبحانه كان رحيماً بعباده وما زال رحيماً وسيبقى كذلك.

أمّا الدكتور محمد بركات أبو علي فقد نظر إلى اللفظ في القرآن الكريم من زاوية مختلفة، حيث قام بتتبع دلالات بعض الكلمات التي وردت في القرآن الكريم مبيّناً دلالة الكلمة حسب السياق الذي وردت فيه، ومنها كلمات: بشر وذوق ومتع. مُفَرقاً بين الدلالة اللغوية لها والاستعمال القرآني لها عندما كانت مُفردة وعندما جاءت مركبة، ومقلباً الوجوه المختلفة لدلالتها مستشهداً في أثناء ذلك بالآيات القرآنية المناسبة ويتبعها بالتحليل البلاغي[٢] .

وقد توصل بعد التأمل في الآيات القرآنية إلى أنّ هذه الكلمات الثلاث التي أُجري الحديث حولها تتفق في دلالتها[٣] على الخير في أصل معناها الحقيقي وحال إفرادها، وعند التركيب تأخذ معنى الشر مباشرة كما في قوله تعالى ﴿فبشرناه بغلام حليم﴾[٤] حيث دلالتها على الخير والسرور والسعادة، وبالمقابل نجدها في قوله تعالى ﴿بشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليماً﴾[٥] تحمل معاني العذاب، وإن كانت تحمل معنى الخير والاطمئنان في البداية ثم تكون النتيجة العذاب، وهذا التضاد في المعنى يفيد تجسيم المصيبة ووقعها على نفس الكافر[٦] مما يزيد من ألمه وتحسره.

---

(١) السورة إبراهيم، الآية ٤٥. وفي سورة الفجر، الآية ٦ وفي سورة الفيل، الآية ١.

(٢) محمد بركات أبو علي، فصول في البلاغة، ٧٨-٨٣.

(٣) السابق، ٨١.

(٤) السورة الصافات، الآية ١٠١.

(٥) السورة النساء، الآية ١٣٨.

(٦) محمد بركات أبو علي، فصول في البلاغة، ٧٩.

أماّ الدكتور أحمد ماهر البقري فقد نحا منحى جديداً في دراسته لألفاظ القرآن الكريم حيث تتبع دلالة كل من الأمومة والأبوة والأخوة والتسبيح والشكر والبراءة والنور والحب والجهاد والعمرة والحج والألوان، وتتبع الآيات القرآنية التي وردت فيها هذه الألفاظ واتضح له أنّ لهذه الكلمات دلالات لاتظهر إلا من خلال فهمنا للنص الذي وردت فيه، وتحليله لهذه الألفاظ يُبيّن أنّ لها طاقة فكرية وشعورية هائلة تتفجر في نفس القارئ أو السامع، فيعمّق احساسه بما قرأ وينفعل بما يسمع[١] وهذه من الوسائل التي تقوّي صلة القارئ بالنص القرآني لأنه سيتعرف على بعض جوانب الاعجاز في النص القرآني إذا ما حُلل بالطريقة التي اتبعها الباحث.

وتوقف الدكتور أحمد بدوي عند تخيّر اللفظ في القرآن الكريم الذي كان يتأنق في اختيار ألفاظه. لما بين الألفاظ من فروق دقيقة في دلالتها، وبيّن أنّ القارئ للنص القرآني قد يحتاج إلى التريث والتدبر؛ ليدرك السر في ايثار كلمة على أخرى ولكنه لايلبث أن يدرك سمو التعبير القرآني بمزيد من التأمل كما في قوله تعالى ﴿وأصحاب اليمين، ما أصحاب اليمين في سدر مخضود وطلح منضود وظل ممدود وماء مسكوب﴾[٢] حيث وردت كلمة (مسكوب) للدلالة على أنّ الماء في الجنة كثير بحيث لايُقتصد في استعماله كما يقتصد أهل الصحراء، بل هو ماء يستخدمونه استخدام من لايخشى نفاده[٣] .فهذه الدقة قد لانتبينها لأول وهلة.

وإذا ما بحثنا عن سر استخدام (أهل) في قوله تعالى عن المشركين ﴿وقالوا مالنا لانرى رجالاً كنا نعدهم من الأشرار؟ اتخذناهم سخرياً أم زاغت عنهم الأبصار إنّ ذلك لحق تخاصُم أهل النار﴾[٤] بدلاً من أصحاب النار التي وردت في تسعة عشر موضعاً في القرآن الكريم[٥] ، وجدنا أنّ كلمة (أهل) هنا أولى بهذا المكان من كلمة (أصحاب) لما تدل

---

(١) أحمد ماهر البقري، ١٩٨٢، دراسات لغوية في القرآن، مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية، ٥٠-٥٥، ٧٥-٧٩، ٨٠-٨٨، ١٠٩-١١١.

(٢) السورة الواقعة، الآيات ٢٧-٣١ وفي سورة البقرة، الآية ٤٥.

(٣) أحمد بدوي، من بلاغة القرآن، ٦٣.

(٤) السورة ص، الآيات ٦٢-٦٤ وفي سورة آل عمران، الآية ١٨٠.

(٥) محمد فؤاد عبدالباقي، المعجم المفهرس، مادة (صحب).

عليه من الاقامة في النار والسكنى بها[١] ، فهم قد أقاموا في المكان وهاهم يتخاصمون فيما بينهم.

وللقرآن الكريم استعمالات يؤثرها بحيث تأتي كلمتان معاً كما في: وصف الحلال بالطيب[٢]، وجعل (مسنون) وصفاً (للحمأ)[٣] ، ووصف الكذاب بالأشر[٤] ، وقرن الحجارة مع السجيل[٥] ، والمختال بفخور[٦] ، وإضافة الأساطير إلى الأولين[٧] ، وهذه الدقة المتناهية في تخيّر الألفاظ في القرآن تستحق وقفة تأمل لادراك المزيد من الأسرار البلاغية في القرآن الكريم.

وقد لاحظ أحمد عبدالوهاب أنّ كل سورة من سور القرآن الكريم تتميز باستخدام ألفاظ أو تعبيرات خاصة، مثلاً اتضح له أنّ سورة آل عمران من أكثر سور القرآن ذكراً لأهل الكتاب بينما كانت سورة الأنعام من أكثر السور حديثاً عن الظلم ومشتقاته[٨] .

التكرار في القرآن الكريم:

وهذه الظاهرة من القضايا التي شغلت الباحثين على مر العصور، لإماطة اللثام عن الأسرار البلاغية لهذه الظاهرة، وبخاصة التكرار في القصص القرآني الذي سأتحدث عنه في الفصل الرابع من هذه الدراسة.

ومن الباحثين الذين اختصوا هذه الظاهرة بدراسة مستقلة الدكتور محمود السيد شيخون وتناول فيها معظم الآراء التي أُثيرت حول هذه الظاهرة، ومن أهمها: مفهوم التكرار في اللغة ومفهومه عند علماء البلاغة والبيان، وبيان أنواعه وأسراره، والتمييز

---

(١) أحمد بدوي، بلاغة القرآن، ٦٢.

(٢) السورة البقرة الآية ١٦٨، وفي سورة المائدة، الآية ٨٨ وفي سورة الأنفال، الآية ٦٩ وفي سورة النحل، الآية ١١٤.

(٣) السورة الحجر، الآيات ٢٦، ٢٨، ٣٣.

(٤) السورة القمر، الآيتان ٢٥، ٢٦.

(٥) وردت في ٩ مواضع، ينظر محمد فؤاد عبدالباقي مادة (سجل).

(٦) السورة هود، الآية ٨٢ وفي سورة الحجر، الآية ٧٤ وفي سورة الفيل، الآية ٤.

(٧) السورة الحديد، الآية ٢١،وفي سورة النساء، الآية ٣٦ وفي سورة لقمان، الآية ١٨. ولمزيد من التفاصيل ينظر أحمد بدوي، ٥٧-٧١.

(٨) أحمد عبدالوهاب، ١٩٨٠، اعجاز النظام القرآني، ط١، مكتبة غريب، مصر، ٣٨، ٤٩.

بينه وبين الإطناب والتطويل[١] . وهدفه من وراء ذلك تحديد مفهوم هذه المصطلحات ودلالتها حتى لايختلط الأمر على القارئ فلا يميز بينهما.

ووجد في بحثه فرصة مناسبة للرد على من ظنوا أن لافائدة من التكرار في القرآن الكريم وأثبت لهم بالحجج والبراهين خطأ هذا الظن، ومن ثم تحدث عن التكرار في قصص القرآن الكريم وأسبابه[٢] ، وكشف النقاب عن طائفة من أسرار التكرار في القرآن الكريم ودواعيه، حيث حدثنا عن ثلاثة وعشرين سراً من أسرار التكرار، ومثّل لها بما يناسب من الآيات القرآنية، معتمداً فيما قاله على البساحثين القدماء من أمثال الزمخشري والعلوي وابن الأثير، ومن المعاصرين الدكتور أحمد أحمد بدوي[٣]؛ ولهذا جمع بحثه ما بين الأصالة والمعاصرة، ومن أهم النتائج التي توصل إليها:

إن التكزار في القرآن الكريم جاء لأهداف سامية ومقاصد بليغة، والتكرار وجه من وجوه الاعجاز في القرآن الكريم؛ لأنه يكشف عن مقدرة بلاغية فائقة، فالتكرار في الكلام العادي قد يؤدي إلى الاحساس بالملل. أمّا تكرار القرآن الكريم، فأمره مختلف لأنه كلما تكرر ازداد حلاوة في الأسماع، وتأثيراً في القلوب، فباين بذلك كلام المخلوقين[٤]. فالقرآن لايكرر كلامه إلا إذا حقق غرضاً بلاغياً من التكرار.

وادراك أسرار التكرار في القرآن يحتاج إلى موهبة، ومهارة، واحاطة تامة بقواعد اللغة العربية ودقائقها، وأحكامها، كما يحتاج إلى صفاء الذهن، وقوة الادراك[٥] وهذا الأمر غير مقتصر على فهم أسرار التكرار، فكل ما ورد في القرآن الكريم بحاجة إلى تأمل واحاطة باللغة العربية عند دراسته خشية أن يتقول الإنسان على القرآن بما ليس فيه.

والتكرار في القرآن الكريم يخدم غرضاً بلاغياً، ويساهم في ايصال المعنى إلى القارئ؛ لأنه لو لم يكن كذلك لما كرره القرآن الكريم، فكل حرف في القرآن الكريم يأتي وفق ما اقتضاه المقام، وقد نعجز أحياناً عن ادراك السر ولكن هذا لايمنعنا من مواصلة

---

(١) محمود السيد شيخون، ١٩٨٣، أسرار التكرار في لغة القران، ط١، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ٩-١١، ٢٠، ٤٣-٤٦.

(٢) السابق، ٤٤، ٤٥، ٤٩، ٦٥-٦٨.

(٣) السابق، ٤٩، ٥٠-٥٣، ٥٦، ٦٠، ٦١.

(٤) السابق، ٨٢-٨٣ ومحمد مهدي البصير، ١٩٨٧، عصر القرآن، ط٣، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ٢٠.

(٥) محمود السيد شيخون، أسرار التكرار في لغة القرآن، ٨٣.

البحث والدراسة فما نعجز عنه اليوم قد ندركه في الغد، وهذا مظهر من مظاهر اعجاز القرآن الكريم.

والتكرار في القرآن الكريم أنواع فقد يأتي في آيات لانكاد نشعر به؛ لأنه يقع على نحو مألوف للأذن، ومنسجماً مع ما جرت به الأساليب البيانية في اللغة، كأن يتكرر اللفظ أو الجملة لغرض التوكيد كقوله تعالى ﴿كلا سوف تعلمون، ثم كلا سوف تعلمون كلا لو تعلمون علم اليقين﴾(١) وقوله تعالى ﴿الحاقة ما الحاقة وما أدراك ما الحاقة﴾(٢) وهذا النوع من التكرار لم يكن موضع طعن في بلاغة القرآن، ولم يثر تساؤلات عن سر مجيئه كما سنجد في النمط الثاني من أنماط التكرار.

وقد يأتي التكرار على صورة لافتة للانتباه بحيث تتكرر صورة لفظية واحدة في عدة مواضع، مما يوحي بأنّ الأمر لاعلاقة له بالتأكيد(٣) ؛ لأنّ الشائع في أذهاننا أنّ التكرار يكون للتأكيد وللأهمية، كما في سور: الرحمن، والمرسلات، والشعراء، والقمر، وهذه السور من أكثر سور القرآن الكريم التي جاء فيها التكرار؛ ولهذا كان لابد من تعليل لهذه الظاهرة.

ففي سورة الرحمن وردت الآية ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ إحدى وثلاثين مرة أي بعد الحديث عن نعم الله على الإنسان وهذه النعم لايمكن حصرها.

وسورة الشعراء التي وردت فيها الآية ﴿وإنّ ربك لهو العزيز الرحيم﴾ تسع مرات، والغرض من تكرارها الحث على العظة والاعتبار والتأمل، وفيها دعوة للتأمل لمعرفة خالق الأرض، فهي قد كُررت بعد الحديث عن مشاهد من قصص بعض الأنبياء مع أقوامهم وبخاصة المشاهد الدالة على قدرة الله -ﷻ- على حماية أنبيائه ونصرتهم، وأتت بعد الحديث عن مشاهد العذاب التي سينالها المعذبون في نار جهنم، وهذه المواقف تستحق وقفة تأمل لتدبر دلالتها، وختم الآية بوصفه تعالى بالعزة والرحمة، فيه كل

---

(١) السورة التكاثر، الآيات ٣-٥.

(٢) السورة الحاقة، الآيات ١-٣.

(٣) عبدالكريم الخطيب،اعجاز القرآن، ٣٩٣/٢.

المناسبة للحديث عن مصير الكافر والمؤمن، فهو عزيز يعاقب الكافر، ورحيم بمن آمن[١] وهذا من بلاغة القرآن الكريم حيث ورد في الآية الواحدة دلالتان مختلفتان ولكنهما منسجمتان.

وقد يسأل سائل ألم يكن بامكان القرآن الكريم العدول عن تكرار هذه الألفاظ بأن يذكر مرادفاتها أو بدائل لها، وللاجابة عن ذلك نقول: نعم، يمكن للقرآن أن يختار ما يشاء من الأساليب ولن يعجزه ذلك . وكم كان ابن الأثير مصيباً عندما قال: "وبالجملة فاعلم أنه ليس في القرآن مُكرر لافائدة في تكريره، فإن رأيت شيئاً منه تكرر من حيث الظاهر فأنعم نظرك فيه، فانظر إلى سوابقه ولواحقه؛ لينكشف لك الفائدة منه[٢] " وهذا يعني أنّ التكرار في القرآن الكريم أتى عن قصد ليؤدي غرضاً، ويترك أثراً عميقاً في نفس القارئ؛ لأنّ في الخروج على النمط المألوف تجديداً، ولفتاً للانتباه، مما يرسخ المعنى في الذهن، ولاحاجة بي للتذكير بأنّ ما من لفظ ورد في القرآن الكريم إلا جاء مستقراً في مكانه الذي تطلّبه.

الامثال في القرآن الكريم:

وتمتاز أمثال القرآن الكريم بغناها وخصبها مما جعلها موضع اهتمام من قبل الباحثين المعاصرين الذين بحثوا في أنواع الأمثال القرآنية، والموضوعات التي عالجتها، والحكمة من لجوء القرآن الكريم إليها، والأساليب التي قُدّمت من خلالها، والفرق بينها وبين الأمثال العادية، وعددها في القرآن الكريم، وبيان مواطن الجمال فيها، ومواضع الاعجاز البلاغي، والتحليل الفني لبعضها والمقارنة بين الأمثال التي وردت في القرآن وتحدثت عن المؤمنين والمنافقين والكفار، إلى غير ذلك من القضايا الشائقة التي تغري الباحث بدراستها وتحليلها؛ ولهذا خصص بعض الباحثين المعاصرين كتباً بأكملها لدراستها[٣] ، وبعضهم تحدث عنها في ثنايا كتبهم التي كانت تتحدث عن بلاغة القرآن

---

(١) محمود السيد شيخون، أسرار التكرار، ٥٠-٥٣ وأحمد بدوي، من بلاغة القرآن، ٦٥٤ وعبدالرحمن بن ناصر السعدي، ١٩٨٢، القواعد الحسان لتفسير القرآن، مكتبة المعارف، الرياض، ٦٧.

(٢) ابن الأثير، المثل السائر، ٨/٣.

(٣) محمد جابر فياض، ١٩٨٨، الأمثال في القرآن، ط١، دار الشؤون الثقافية، بغداد.

محمد علي الصغير، ١٩٨١، الصورة الفنية في المثل القرآني، ط١، دار الرشيد للنشر، بغداد.

عبدالرحمن الميداني، ١٩٨٠، الأمثال القرآنية، ط١، دار القلم، دمشق بيروت.

الكريم[١] بشكل عام ومن ضمنها الأمثال في القرآن الكريم.

والغرض من ذكر الأمثال في القرآن الكريم هو الايضاح والبيان، حتى يُقرّب المعنى إلى أذهان القراء، بحيث يبدو الأمر الغائب كأنه ماثل أمامنا، لادراكه وفهمه[٢] ، بحيث يرسخ في الذهن ولايمكن نسيانه ولهذا كَثُر ضرب الأمثال عند الحديث عن الجنة وما فيها من نعيم. وتمثيل الحياة الدنيا ومتاعها الزائل للتذكير وأخذ العبرة والعظة.

وقد تغيب الحكمة من ذكر الأمثال في القرآن الكريم عن أذهان بعض الناس فيُخيّل إليهم أنّ القرآن الكريم قد حوى أمثال العرب والعجم كما في القصة المشهورة التي تناقلتها كتب علوم القرآن[٣] عن سؤال وُجّه لأحد العلماء عن مجموعة من الأمثال المتداولة بين الناس وعن نظائر لها في القرآن الكريم. وكانت الاجابة نعم نجدها ومنها: "كما تدين تدان" نجد نظائرها في قوله تعالى ﴿من يعمل سوءاً يُجز به ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً﴾[٤] و "لايلدغ المؤمن من جحر مرتين" نجد ما يشبهه في قوله تعالى ﴿قال هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل﴾[٥] و "لاتلد الحية إلا حية" نجد نظيراً لها في قوله تعالى على لسان نوح ﴿ولايلدوا إلا فاجراً كفاراً﴾[٦] وهكذا تستمر القصة في الاسئلة والأجوبة، وكان يجدر بالسائل والمجيب معاً أن يتذكرا أنّ القرآن الكريم لم يكن كتاب أمثال حتى يستوعب الأمثال كلها، كما أنه يذكر الأمثال عندما يقتضي المقام سردها، ولم يكن الأمر مجرد ذكر أمثال كيفما اتفق. وإلا ما جدوى ذكرها في

---

(١) محمد الخضر حسين، ١٩٧١، بلاغة القرآن، جمع وتحقيق علي رضا التونسي، القاهرة، ٢٦-٣٧.
ومناع القطان، ١٩٩٠، مباحث في علوم القرآن، ط٧، مكتبة وهبة، مصر. ٢٩٠-٢٩٩.
ومحمد متولي شعراوي، ١٩٨٨، معجزة القرآن، مكتبة التراث الاسلامي، مصر، ٢/٢٧٩-٢٨٢.
وكمال الدين الطائي، ١٩٧١، موجز البيان في مباحث القرآن، مطبعة سلمان الأعظمي، بغداد، ١٢١-١٢٨.
وعبدالقادر حسين، من علوم القرآن، ٥٠-٥٦.

(٢) أحمد بن محمد طاحون، ١٩٩٠، أمثال ونماذج بشرية من القرآن العظيم، هجر للطباعة والنشر والتوزيع والاعلان، مصر، ١/٦.

(٣) السيوطي، التحبير في علم التفسير، حققه فتحي عبدالقادر فريد، ١٩٨٦، دار المنار للنشر والتوزيع، القاهرة، ٣١٥-٣١٦ والاتقان في علوم القرآن، ٢/١٣٢.

(٤) السورة النساء، الآية ١٢٣.

(٥) السورة يوسف، الآية ٦٤.

(٦) السورة نوح، الآية ٢٧.

القرآن الكريم وترديدها، وهي قد ذكرت من قبل العرب وغيرهم من الأمم[١] . فالأمثال أحد الأساليب التي لجأ إليها القرآن لايصال مضمونه إلى القراء للتأثير في نفوسهم.

ونلاحظ أنّ بعض الآيات القرآنية تمتاز باحتوائها على حكمة بليغة وموجزة وبروعة التأليف مما يؤدي إلى تداولها بين الناس وسهولة انتشارها، ويمكن تسميتها بالأمثلة المُرسلة أي ما يجري مجرى المثل، وهذه الأمثال لم تكن تضاهي مثلاً من أمثال العرب التي كانت متداولة بين الناس وقت نزول القرآن الكريم. واكتسبت صفة مثل بعد نزولها في القرآن الكريم[٢] ومن أمثلتها قوله تعالى ﴿قُضي الأمر الذي فيه تستفتيان﴾[٣] وقوله تعالى ﴿ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله﴾[٤].

وقد تميزت دراسة الدكتور محمد فياض بعرضه وتحليله لطائفة من أمثال القرآن الكريم التي تحدثت عن تمثيل الجنة[٥] ، وتمثيل الحياة الدنيا[٦] وتمثيل المنفقين ونفقاتهم[٧] وقارن بين ما تماثل منها، وانتهى إلى أنّ الأمثال التي ذُكرت لتمثيل الحياة الدنيا، وإن بدت متماثلة حتى ذهب أكثر المتحدثين عنها إلى القول بتكرارها، بينها من التباين أكثر مما بينها من التماثل. وإنّ أيّاً منها لايغني عما بدا أنه مماثل له[٨] وفي أثناء تحليله كان ينظر إلى السياق الذي وردت به الأمثال أي بما سُبقت به من الآيات وما تلاها؛ لأنّ ذلك يساعد على فهم الحكمة من مجيئها، ومسترشداً في أثناء تحليله بتاريخ النزول ومكانه والظروف العامة التي أحاطت بنزول الآيات، لعل ذلك يلقي ضوءاً على دلالة المثل؛ ولهذا تسنى له تصحيح بعض الأخطاء التي وقع بها بعض المفسرين في أثناء تفسيرهم للمثل في القرآن الكريم[٩] ، وهذا من الجديد الذي أتى به في دراسته، فهو لم يكن مجرد ناقل لما قيل قبله.

---

(١) عبدالقادر حسين، من علوم القرآن، ٥٤-٥٥.

(٢) السيوطي، الاتقان في علوم القرآن، ١٣٣/٢.

(٣) السورة يوسف، الآية ٤١.

(٤) السورة فاطر، الآية ٤٣.

(٥) السورة البقرة، الآية ٢٦٥ وفي سورة الرعد، الآية ٣٥ وفي سورة محمد، الآية ١٥.

(٦) السورة الكهف، الآية ٤٥ وفي سورة يونس، الآية ٢٤ وفي سورة الحديد، الآية ٢.

(٧) السورة البقرة، الآيات ٢٦١-٢٦٦ وفي سورة آل عمران، الآية ١١٧.

(٨) محمد جابر فياض، الأمثال في القرآن، ٤٨٩.

(٩) السابق، ٣٣٠-٣٤٧، ٣٥٢-٣٦٣.

ومن بلاغة الأمثال في القرآن الكريم أنها جاءت متناسبة مع مكان النزول، اذ لوحظ أنّ المثل القرآني المكي تمّ فيه الحديث عما تقتضيه أمور الرسالة السماوية من ثورة وتغيير في العقائد والعادات والتذكير بالآخرة وتوحيد الله، أمّا المدني فكان الحديث فيه عن تهذيب الطباع، واصلاح المجتمع، والكشف عن حقيقة المنافقين واليهود والمشركين[١] ، الذين وحدوا صفوفهم للكيد للمسلمين.

الاستعارة في القرآن الكريم:

وعلى الرغم من أهمية هذا الفن في البلاغة القرآنية إلا أنّ دراسات المعاصرين له لم تكن كثيرة، أو بمستوى أهمية هذا الفن البلاغي.

ومن أبرز دراسات المعاصرين دراسة أحمد فتحي رمضان التي خصصها لدراسة الاستعارة في القرآن الكريم، وبحث فيها عن دلالات الاستعارة القرآنية وهي :الدلالة الفكرية والنفسية والجمالية، وحلل لنا بعض الآيات القرآنية المحتوية على الاستعارة بأنواعها التصريحية والمكنية والتمثيلية، مبرزاً مواطن الجمال فيها.

والاستعارة هي إحدى وسائل القرآن الكريم التعبيرية لجأ إليها لما تضفيه على الكلام من رونق وبهاء، وهي تبث الحياة في مفاصل الصورة وتجدد معاني الكلمات من خلال افراغ دلالة الكلمة من وضعها الأصلي في دلالات جديدة مُوحية مؤثرة في الحس والوجدان[٢] ، فيتفاعل معها القارئ.

ومن الاستعارات القرآنية التي تلفت الانتباه قوله تعالى ﴿وفي عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم﴾[٣] وبخاصة وصفه تعالى للريح بأنها عقيم ولم يقل إنها مهلكة أو مدمرة؛ لأنّ المعنى المراد هنا هو الاستئصال الشامل الأليم لقوم عاد، إذ لم ينجُ أحد من العذاب، ولم يكن هذا خاصاً بالإنسان فقط بل شمل نباتاتهم وحيواناتهم، فقد دُمرت صور الحياة كلها؛ ولهذا فكلمة (عقيم) توحي بالدمار الشامل والشدة في العذاب[٤] . فجاءت متناسبة مع المعنى تماماً.

---

(١) محمد حسين علي الصغير، الصورة الفنية في المثل القرآني، ٩٠-٩١، ١٨٨-١٨٩، ١٩٢، ١٩٥، ١٩٦، ٢٧٩، ٣٨٠.

(٢) أحمد فتحي رمضان، ١٩٨٨، الاستعارة في القرآن، رسالة ماجستير، جامعة الموصل، قسم اللغة العربية وآدابها، ٥٥.

(٣) السورة الذاريات، الآيتان ٤١-٤٢.

(٤) أحمد فتحي رمضان، الاستعارة في القرآن، ٦٠.

وهنا تبرز قضية أيها أبلغ الاستعارة التصريحية بأنواعها المختلفة أم الحقيقة وفي القرآن الكريم، لاتفاضل بينهما؛ فكلها بليغة إذا ما اقتضاها المقام؛ لأننا إذا اعتبرنا إحداهما هي الأبلغ معنى ذلك أننا نقّر بالتفاوت بين آيات القرآن الكريم وهذا غير صحيح، فالقرآن الكريم كله بليغ ولاتفاوت فيه بدليل قوله تعالى ﴿آلر كتاب أحكمت آياته ثم فُصّلت من لدن حكيم خبير﴾(١) ولهذا نرى أنّ أبا هلال العسكري(٢) قد جانب الصواب عندما وازن بين قوله تعالى ﴿ولايظلمون فتيلاً﴾(٣) وقوله تعالى ﴿ولايُظلمون نقيراً﴾(٤) وما كان ينبغي له أن يقوم بهذه الموازنة؛ لأننا لانقر بأنّ الاستعارة أبلغ من الحقيقة. فالاستعارة في القرآن الكريم بليغة ولكن في موضعها، وكذلك الحقيقة بليغة في موضعها، ولكل أسلوب وظيفته التعبيرية المتعينة في السياق، بحيث لاينوب أحدهما مقام الآخر(٥) . والقرآن الكريم ﴿لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد﴾(٦) فكله بليغ فصيح.

وقد لاحظ الباحث أنّ استعارة (أفرغ) كما في قوله تعالى ﴿ربنا أفرغ علينا صبراً﴾(٧) لاتأتي في القرآن الكريم إلا عند التعبير عن المواقف الصعبة التي تهز القلوب هزاً عنيفاً، بسبب ما تجد من الخوف والفزع فيأتي التصوير القرآني مُشبهاً الصبر بماء بارد يغمر المؤمنين وينسكب عليهم فيبث الطمأنينة والسكينة في قلوبهم، فتهدأ وتثبت(٨) . بينما لو قارنا ما ورد هنا بما ورد في قوله تعالى ﴿فصبّ عليهم ربك سوط عذاب﴾(٩) حيث شبه العذاب بالحميم الأنيّ الشديد الحرارة، نلاحظ القسوة والشدة في تعذيبهم مقابل استعارة (أفرغ) التي توحي باللين والرفق والرحمة بالمؤمنين(١٠) . فالدقة في اختيار الألفاظ من أبرز سمات القرآن الكريم.

---

(١) السورة هود، الآية ١.

(٢) أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين، ٢٦٨-٢٦٩.

(٣) السورة النساء، الآيتان ٤٩، ٧٧ وفي سورة الإسراء، الآية ٧١.

(٤) السورة السابقة، الآية ١٢٤.

(٥) احمد فتحي رمضان، الاستعارة في القرآن، ٧٤-٧٥ وعبدالقادر الجرجاني، دلائل الاعجاز، ٣٦٧.

(٦) السورة فصلت، الآية ٤٢.

(٧) السورة الأعراف، الآية ١٢٦.

(٨) أحمد فتحي رمضان، الإستعارة في القرآن، ١١٥.

(٩) السورة الفجر، الآية ١٣.

(١٠) أحمد فتحي رمضان، الاستعارة في القرآن، ١١٦ وسيد قطب، في ظلال القرآن، ٣٩٥/٢.

وهكذا يستمر بهذه الطريقة في تحليل الآيات القرآنية المحتوية على الاستعارات مبرزاً مواطن الجمال فيها. وهذا ما ينبغي التركيز عليه عند بحث الفنون البلاغية في القرآن الكريم.

ومن أبرز النتائج التي توصل إليها:

تتميز الصور الاستعارية التصريحية في القرآن الكريم: بأنها بسيطة تتكون من مفردات قريبة إلى ذهن القارئ ونفسه مثل (الظلمات والنور) (الكفر والايمان) ولكنها عميقة في ايحائها ومعانيها والتشبيه يمكن ادراكه بسهولة لوضوحه، إلاّ أن جوهر الاستعارة يحملنا عمداً على تخيل صورة جديدة مما يجعل ادراكنا للأمور أكثر عمقاً؛ ودقة[١] لأنّ الشيء المألوف أحياناً يحجب الرؤية فالاستعارة تأخذ عناصرها من البيئة ثم تعيد خلق وصهر ما أخذته لتقدمه لنا في قالب جديد. وهذا هو الابداع.

وقد اقترنت بعض الصور الاستعارية المكنية بسياقات ومواقف خاصة، كما في استعارة (أفْرِغْ)[٢] واستعارة (زُلْزِلُوا)[٣] فقد اختصت هاتان الاستعارتان في القرآن بأنهما تردان للتعبير عن المواقف التي تُعبّر عن المواجهة العنيفة بينما اختصت الاستعارة (ضُربت)[٤] في القرآن بالتعبير عن حال اليهود، وتصوير العذاب المادي والمعنوي الذي حلّ بهم إلى يوم القيامة[٥] . وهذه الأمور لايدركها إلا من أطال النظر في النص القرآني.

وهذا يعني أننا لانستطيع دراسة الاستعارة منفصلة عن السياق الذي وردت به فهي ليست فناً تجريدياً يُراد لذاته بل هي جزء من بناء ابداعي له أهدافه الفكرية والتوجيهية ولاسيما حين تكون الاستعارة في نص معجز يسعى إلى التوجيه والتسديد وبث أسمى الأفكار الإنسانية وأعلاها مرتبة[٦] ؛ ولهذا نجد أنّ استعارات القرآن الكريم تمتاز بخلودها على مر العصور فهي واضحة الدلالة في كل وقت وزمان لبنائها على ما هو

---

(١) أحمد رمضان فتحي، الاستعارة في القرآن، ٣٧٣.

(٢) السورة البقرة، الآية ٢٥ وفي سورة الأعراف، الآية ١٢٦.

(٣) السورة السابقة، الآية ٢١٤ وفي سورة الأحزاب، الآية ١١.

(٤) السورة السابقة، الآية ٦١ وفي سورة آل عمران، الآية ١١٢.

(٥) أحمد رمضان فتحي، الاستعارة في القرآن، ٣٧٤.

(٦) السابق، ٣٧٦.

موجود في الطبيعة[١] كما في قوله تعالى ﴿وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها﴾[٢] أو قوله تعالى ﴿أم من أسّس بنيانه على شفا جُرُف هارٍ فانهار به في نار جهنم﴾[٣] ففي الآيتين تصوير لمن يكون على وشك الانحراف والضلال، ولنا أن نتخيل صورة إنسان على حافة حفرة مليئة بالنار على وشك السقوط بها، ثم تداركته رحمة ربه فأنقذه بفضل ايمانه، وهذا هو المفهوم من قوله ﴿فأنقذكم منها﴾ أمّا في الآية الثانية فلنا أن نتخيل صورة بناء على حافة نهر جارٍ، والمياه تصطدم به صباح مساء فإلى متى سيصمد ويتحمل شدة المياه، لاشك أنه منهار متساقط وكذلك العمل المبني على النفاق والرياء فلا أمل له بالبقاء[٤] ، فهذه المعاني العميقة التي عبرت عنها الآيات لايمكن ادراكها وتصورها إلا إذا جُسمت بهذه الطريقة التي قربتها للأذهان. فالاستعارة هنا تؤدي ما تؤديه الوسيلة التعليمية التي يلجأ إليها المدرسون من حين لآخر لايصال المعلومات إلى تلاميذهم.

---

(١) أحمد رمضان فتحي، الاستعارة في القرآن، ٣٧٦.

(٢) السورة آل عمران، الآية ١٠٣.

(٣) السورة التوبة، الآية ١٠٩.

(٤) عبدالفتاح لاشين، ١٩٨٥، البيان في ضوء أساليب القرآن، ط٢، دار المعارف، مصر، ٢٤٢.

التشبيه في القرآن الكريم:

وهذا المبحث من المباحث التي نالت اهتمام الباحثين على مر العصور، ويكفي أنّ القدماء قد اختصوا تشبيهات القرآن الكريم بمؤلفات خاصة وفي مقدمتها كتاب "الجمان في تشبيهات القرآن". ولكن المعاصرين ركزوا في بحثهم على بيان وجه المعاصرة –إن جاز هذا التعبير– في تشبيهات القرآن الكريم وصلاحيتها لكل زمان ومكان.

ومن ذلك تعليقهم على التشبيه الوارد في قوله تعالى ﴿والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفّاه حسابه والله سريع الحساب﴾[١] وإذا كان منظر السراب مما يعز وجوده في غير الصحاري والمناطق الحارة فإنّ منظر الريح الشديد لهو ألصق بالمناطق الباردة والمناطق الثلجية والقطبية ولذلك جاء قوله تعالى ﴿مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف لايقدرون مما كسبوا على شيء ذلك هو الضلال البعيد﴾[٢] وهكذا فإنّ الآيات تتضافر لتقدّم للعقل الإنساني من خلال التنوع والتفاوت غنى في الايحاءات والمقاصد والتعبير[٣] ومن هنا تأتي أهمية النظرة الكلية عند النظر في القرآن الكريم، وفائدة القول إنّ القرآن الكريم يفسر بعضه بعضاً، فما ورد في سورة يكمله ما ورد في سورة أخرى.

وكذلك يلفتنا التشبيه الوارد في قوله تعالى ﴿وله الجوار المنشآت في البحر كالأعلام﴾[٤] إذ نحس أمام هذا التشبيه بعظمة القرآن الكريم وجلاله؛ لأنّ السفن لم تكن في عهد الرسول –ﷺ– في حجم الجبال؛ ولهذا كان التشبيه نقلة ايحائية إلى ما سيتم به الله تعالى من مَنّ على العقل الانساني[٥] ، ولكن العربي في ذلك الوقت كان يقرأ التشبيه فيدرك دلالته، وإن لم يكن يتصور ضخامة السفن كما هي الآن.

---

(١) السورة النور. الآية ٣٩.

(٢) السورة ابراهيم، الآية ١٨.

(٣) محمد علي أبو حمدة، ١٩٨٣، من أساليب البيان في القرآن، ط٢، مكتبة الرسالة الحديثة، عمان، ٦٠.
وواجدة مجيد الأطرقجي، ١٩٧١، التشبيهات القرآنية والبيئة العربية، دار الحرية للطباعة، بغداد، ٢٤٥.
وعبد الفتاح لاشين، البيان في ضوء أساليب القرآن، ٧٨.

(٤) السورة الرحمن. الآية ٢٤.

(٥) محمد علي أبو حمدة، من أساليب البيان، ٧٩.

واستطاع الباحث تصويب بعض الأخطاء التي وقع فيها القدماء عندما حللوا التشبيه الوارد في بعض آيات القرآن الكريم[١] ، ونحن لانتهمهم بالتقصير، فهم اجتهدوا في التفسير حسب معطيات عصرهم المتاحة لهم في ذلك الوقت وإن كنا نتمنى توقفهم عن الخوض في أمور لم يكونوا متأكدين منها، وكان يجدر بهم لفت الانتباه إلى هذه القضايا، ويقرون بعجزهم عن ايضاحها؛ ولهذا ما يقولونه في هذا المجال غير ملزم لنا، وعلينا الاستفادة من معطيات عصرنا لخدمة البيان القرآني؛ ولهذا كان البيان عملية نامية تظل دائمة الحركة والغنى والتطور[٢] وهذا يتطلب من الباحث البلاغي مواكبة أحدث الدراسات في العلوم المختلفة؛ ليتسنى له توظيفها في أثناء تحليله لمواطن البلاغة في النص القرآني.

ولفت الباحث الانتباه إلى أنّ المشبه به المركب، يجب أن يُنظر إليه كفيلم يتكون من عدة لوحات، كل لوحة تعبّر عن جزئية من الصورة، وهذه الجزيئات بمجملها تكوّن الصورة، وتتم المعنى، ومن الخطأ أخذ جزيئات المركب لتكون ماهيات مستقلة[٣] عندئذ يقع المفسرون في بعض الأخطاء التي يمكن تجنبّها بمزيد من التأمل للنص القرآني والاستعانة بآخر ما توصل إليه الباحثون في العلوم الأخرى.

والقرآن الكريم في سبيله لايصال المعاني للقراء، وتقريب المعاني الغيبية إلى أذهانهم يلجأ إلى البيئة فينتزع منها ما هو مألوف ومعروف ليوضح من خلاله ما يريد التعبير عنه، فالتشبيه بمثابة القنطرة التي يتم عليها نقل المعلومات من المعلوم إلى المجهول. فأهوال يوم القيامة مجهولة بالنسبة إلينا، وغير معروفة، فكان لابد من تقريب صورتها من خلال مدركاتنا وبيئتنا فجاء قوله تعالى ﴿يوم تكون السماء كالمهل وتكون الجبال كالعهن﴾[٤] فالسماء ستكون من الوهي بحيث أنها تذوب كذائب الفضة، والجبال ستكون بغير وزن يُذكر كما هو الصوف في خفته وطيرانه[٥] فالتشبيه هنا لم يكن لناحية

---

(١) السورة البقرة، الآية ١٩، وفي سورة النور، الآية ٣٥.
ومحمد علي أبو حمدة، من أساليب البيان، ١٠٤-١١٧.

(٢) السابق، ١٠٦.

(٣) السابق، ١٠٨، وواجدة مجيد الأطرقجي، التشبيهات القرآنية، ٧٨-٨٣، وأحمد أحمد بدوي، من بلاغة القرآن، ٢٠٢-٢٠٣.

(٤) السورة المعارج، الآيتان ٨-٩ وفي سورة المرسلات، الآيتان ٣٢-٣٣ وفي سورة النور، الآية ٣٩.

(٥) محمد علي أبو حمدة، من أساليب البيان، ٨٣، ٢٧ وواجدة مجيد الأطرقجي، التشبيهات القرآنية، ٢٢٤ وعبدالفتاح لاشين، البيان في ضوء أساليب القرآن، ١٧٥ وأحمد بدوي، من بلاغة القرآن، ١٩٦-١٩٨، ٢٠٠ وفضل حسن عباس، ١٩٨٧، البلاغة فنونها وأفنانها (علم البيان والبديع)، دار الفرقان، عمان ٨٧-٨٨ .

جمالية فنية فهو يتعدد في القرآن تقريباً إلى المسلم وشرحاً وايضاحاً وقوة وبرهاناً[١] . بحيث ترسخ الصورة في وجدان القارئ ولايمكن نسيانها مما يضمن تفاعله معها.

وفي قوله تعالى ﴿مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً، بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لايهدي القوم الظالمين﴾[٢] لما أراد الله -سبحانه وتعالى- تقريب أحوال بني اسرائيل إلى أذهاننا، وبيان مخالفتهم لتعاليم السماء، اختار صورة من البيئة، مألوفة للمسلمين وهي صورة الحمار الذي يحمل أسفاراً دون أن يفيد منها وكذلك حال بني اسرائيل الذين كانوا يتثاقلون بعض صحف التوارة وألواحها من غير أن ينتفعوا بها[٣] . وانتزاع التشبيه من البيئة يرسخ المعنى في الأذهان بحيث كلما رأى الناس حماراً يحمل أثقالاً يتذكرون حال بني اسرائيل كما وصفتهم الآيات.

الفاصلة في القرآن الكريم:

شغلت هذه القضية الباحثين عبر العصور، وقد اهتم القدماء ببحثها ودراستها بدليل تخصيصهم دراسات خاصة بها منها:

"بغية الواصل إلى معرفة الفواصل" للطوفي، و"إحكام الراي في أحكام الآي" للشيخ ابن الصايغ و"منظومة في فواصل ميم الجمع" للخروبيّ و"القول الوجيز في فواصل الكتاب العزيز" للمُخللاتيّ، بالاضافة إلى ما قالوه عنها في كتب اعجاز القرآن وعلوم البلاغة[٤] .

أمّا المعاصرون فقد تحدثوا عنها في ثنايا كتبهم التي تحدثت عن بلاغة القرآن الكريم، وقلة منهم خصصت كتباً لدراستها كما فعل محمد الحسناوي والدكتور عبدالفتاح لاشين، ويبدو أنهما لم يطلعا على ما كتبه كل منهما، بدليل قول محمد الحسناوي :لم يفرد المعاصرون كتاباً مستقلاً لدراسة الفاصلة[٥] . ويُلحظ كذلك الاختلاف الواضح في المنهج الذي اتبعه الباحثان في دراستهما، وكذلك في الهدف الذي سعى كل منهما لتحقيقه عندما

---

(١) فضل حسن عباس، البلاغة فنونها وأفنانها، ٦٦ وأحمد بدوي، من بلاغة القرآن، ٧٣-٧٤.

(٢) السورة الجمعة، الآية ٥.

(٣) محمد علي أبو حمدة من أساليب البيان، ٧٦ وواجدة مجيد الأطرقجي، التشبيهات القرآنية، ١٨١-١٨٥، وأحمد بدوي، من بلاغة القرآن، ١٩٩.

(٤) محمد الحسناوي، ١٩٨٦، الفاصلة في القرآن، ط٢، المكتب الاسلامي، بيروت، ودار عمار، عمان، ١٣، ٤٧-٦٢.

(٥) السابق، ٣٨٠.

ألف كتابه، وللانصاف فإنّ كتاب محمد الحسناوي يتميز بالاستقصاء وعمق النظر، والجدة التي تمثلت في النتائج التي توصل إليها. أمّا الدكتور عبدالفتاح لاشين فيبدو تقليدياً حيث درس فيه ما يربو على مائة فاصلة، مبيناً الصلة القوية بين الفاصلة والمعنى الذي تحدثت عنه الآية السابقة لها بحيث جاءت الفاصلة مطمئنة في مكانها، غير قلقة، ولو أُستبدل بها غيرها لتبدل المعنى وفسد الغرض[١] . فهو يهتم ببيان الحكمة من وجود الفاصلة في الآيات القرآنية التي لاتكون إلا وفق ما يتطلبه المعنى.

والقارئ لكتاب الدكتور يلاحظ أنه يُعلي من شأن الفاصلة القرآنية؛ لأنها تترك أثراً فعالاً في النفوس، مما جعل القرآن الكريم يعدل نظم الكلام بحيث تخرج الآية عن المعتاد بسبب الفاصلة، كزيادة هاء السكت الملحقة بياء المتكلم كما في سورة الحاقة[٢] .

ويمكن أن يُؤخر ما أصله التقديم قصداً لتحسين النظم ومراعاة للفاصلة كما في قوله تعالى ﴿فأوجس في نفسه خيفة موسى﴾ إذ قدم المفعول على الفاعل وفُصل بين الفعل وفاعله بالمفعول وبحرف الجر ومجروره[٣] .

وإذا ما قرأنا الآيات (١٢-١٤) من سورتي (ق و ص) -التي كانت تتحدث عن عقاب بعض الأمم السابقة- فإننا نلاحظ أن آيات سورة ق خُتمت بقوله تعالى ﴿فحقّ وعيد﴾ وآيات سورة ص خُتمت بقوله تعالى ﴿فحقّ عقاب﴾ والمعنى في السورتين يكاد يكون واحداً. والسبب في ذلك يعود لمراعاة الفواصل فآيات سورة ق مبنية فواصلها على أن يُردف آخر حرف منها بالياء أو بالواو فجاءت وعيد منسجمة مع فواصل الآيات السابقة لها [ثمود، لوط ، وعيد]. أمّا سورة ص فكانت فواصلها مبنية على أن تُردف أواخرها بالألف فجاءت عقاب متلائمة مع فواصل السورة من الآيات الثانية إلى الآية السادسة والستين[٤] . وبهذه الطريقة استمر الدكتور عبدالفتاح لاشين في عرض نماذج من القرآن الكريم مبيناً اعتناء القرآن بشأن الفاصلة.

---

(١) عبدالفتاح لاشين، ١٩٨١، من أسرار التعبير في القرآن الكريم : الفاصلة القرآنية، دار المريخ، الرياض، ٣٧-١٦٢.

(٢) السابق، ٢٢، وينظر الآيات ١٩-٢٠ و ٢٩.

(٣) السابق، ٢٩، وينظر السورة طه، الآية ٦٧.

(٤) السابق، ٣٤-٣٥.

وتبرز قيمة كتاب محمد الحسناوي في الجديد الذي توصل إليه بعد أن بحث هذه الظاهرة بحثاً مستفيضاً، محللاً، ومناقشاً، ومرجحاً.

ومن الأمور التي قد تثير ردود فعل بين الباحثين ومازالت بحاجة إلى المزيد من الدراسة هي مطالبته أو اقتراحه "أن يُطبع القرآن الكريم كل آية بسطر، مما يسّهل الوقوف على الفواصل في القراءة والنظر، وفي ذلك ما فيه من تيسير تذوقه الجمالي، ومن موافقة لروحه وأدبه، وتحقيق لأهدافه السامية[١] ".

وناقش الأقوال التي قيلت لتفسير أصل الموشحات، وأضاف إليها قولاً: وهو لم لايكون هناك أصل قرآني لنشأة الموشحات؛ وبما أنه رأي جديد، ويخالف ما شاع بين الباحثين في هذا المجال قال عنه : "إنه قول لانقطع به على سبيل الجزم، ولكن نؤكد بأنه ليس أضعف الأقوال[٢] " ومستنداً في رأيه هذا على البناء المعماري لسورة المرسلات، ولا يعني هذا الرأي أننا نجد موشحاً بحسب الشروط التي استنبطها النقاد بعد تطور الموشحات[٣] ، ولاينبغي محاكمة القرآن حسبما ورد في الموشحات وكان غرضه من المقارنة بينهما اثبات وجود الشبه بينهما[٤] ، وإبراز أهمية الفاصلة في النص القرآني وأثرها في نشأة بعض الفنون.

وتوقف الباحث عند دور الفاصلة القرآنية في اثراء الشعر الحر؛ ولهذا أثبت سبق الفواصل القرآنية في تنويع القافية، وشيوع الوقف على السكون أو القوافي المقيدة، ثم الأخذ بالسطر الشعري بدلاً من الشطرين طولاً وقصراً، وغير ذلك من المزايا التي نجدها في الشعر الحر[٥] ، مستشهداً في أثناء ذلك بالآيات القرآنية المناسبة لتكون أدلة على صحة ما يقوله؛ ولهذا طالب بالاستفادة من موسيقى الفواصل القرآنية في تقديم عروض

---

(١) محمد الحسناوي، الفاصلة في القرآن، ١٢٩، ١٨٦ .

(٢) السابق، ٣٣١، ٣٤٢.

(٣) السابق، ٣٤٢-٣٤٨.

(٤) السابق، ٣٤٧-٣٤٨.

(٥) السابق، ٣٥٢-٣٦٥.

جديد إذا نهض له النقاد وعلماء الأصوات[١] . إنّ القرآن كان ذا أثر بعيد في أدب العرب شعرهم ونثرهم، فلم لايكون للفاصلة أثرها في شيوع القوافي المقيدة، فضلاً عن أثر الغناء[٢] . الذي ساهم في التجديد في الشعر العربي.

السخرية في القرآن الكريم:

وقد أفرد الدكتور عبدالحليم حفني دراستين لدراسة هذا الأسلوب –وهو الوحيد فيما اطلعت عليه من المؤلفات الخاصة ببلاغة القرآن الكريم الذي قام بدراسة هذه الظاهرة– يؤكد ذلك ما قاله في مقدمة كتابه "فلا أعلم أنّ أحداً من الباحثين قد تناوله قط، حتى ولو في مقالة[٣] " وقد وجدت اشارات وملاحظات حول أسلوب السخرية في ثنايا تفسير سيد قطب للقرآن الكريم[٤] ، ولكنها لم تكن بهدف دراستها كظاهرة مستقلة.

ولكون هاتين الدراستين من أوائل الدراسات التي بحثت هذا الموضوع قام الدكتور ببيان المقصود بالسخرية في القرآن الكريم، والأهداف التي سعى القرآن إلى تحقيقها من استخدام هذا الأسلوب، والخصائص الفنية لهذا الأسلوب وبخاصة التصوير، وقام بتحليل بعض الآيات القرآنية التي ورد فيها هذا الأسلوب.

وهدفه من هاتين الدراستين إبراز وجود هذا اللون (السخرية) في القرآن الكريم، وأنه لون واضح من أنواع أساليب القرآن العديدة المتنوعة؛ ليكون هذا مجرد فتح باب البحث والدراسة في هذا المجال[٥] وقال أيضاً: ومن الحق أن أقول إنّ كثيراً من فصول هذا البحث يصح أن يكون بحوثاً مستقلة، قد تكون أوفى من الحديث عنها في هذا البحث[٦]؛ لأنّ هدفه كان تسليط الضوء على هذه الظاهرة وليس الاستقصاء.

والقرآن الكريم لجأ إلى السخرية للرد على أعداء هذا الدين الذين اتخذوا من السخرية سلاحاً نفسياً، للنيل من قوة المسلمين وروحهم المعنوية فكان رد القرآن

---

(١) محمد الحسناوي، الفاصلة في القرآن، ٣٩٠، ٣٩٢. ومحمد أحمد نحلة، لغة القرآن الكريم، ١٨٣–١٨٤، ٢٣٧–٢٣٨.

(٢) السابق، ١٨٤.

(٣) أسلوب السخرية في القرآن الكريم، ١٩٨٧، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٤ والتصوير الساخر في القرآن الكريم، ١٩٩٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٦.

(٤) سيد قطب، في ظلال القرآن، ١٢٥/١ و ٢١٩/٢ و ٥٩٥/٣ و ٨٢/١٣–٨٣، ٩٨ و ١٩٣/١٤، ٢٤٠ و ٣٣٠/١٥.

(٥) عبدالحليم حفني، التصوير الساخر في القرآن الكريم، ٦.

(٦) السابق، ٩.

﴿الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات والذين لايجدون إلا جهدهم فيسخرون منهم سخر الله منهم ولهم عذاب أليم﴾[١] أبلغ وأدق لأنّ سخرية القرآن صادرة عن الله -سبحانه وتعالى- العليم بطبائع البشر ودخائل أنفسهم وبالتالي تحدد نقط ضعف الخصم وتنفذ منها للرد عليه[٢] . وهذا يُشعر المؤمنين بالراحة والرضى لأنّ الله -سبحانه وتعالى- يقف بجانبهم ويدافع عنهم.

ولإبراز المعنى الذي تُوجه إليه السخرية في القرآن الكريم يلجأ إلى التصوير بحيث يمكن للقارئ تخيل الصورة وكأنها ماثلة أمامه، مما يترك أثراً حسناً في نفسه فيتفاعل معها كما في قوله تعالى ﴿فما لهم عن التذكرة معرضين كأنهم حمرٌ مستنفرة فرّت من قسورة﴾[٣] فالقرآن الكريم يصور إعراض المشركين عن الهدى بهذه الصورة المثيرة للسخرية فهم كالحمير التي تتراكض أمام الأسد الذي يلاحقها، وفي الوقت نفسه يثير الحزن والشفقة على هؤلاء الناس الذين بلغ بهم الطيش مبلغه، فكيف لإنسان عاقل أن يهرب ممن يدعوه إلى الخير، وفيها وصف لهم بالغباء لأنّ الحمير تمتاز بغبائها[٤] . وهذه الصورة تنعى على الإنسان عدم استخدامه لعقله مما جعله أقرب إلى البهائم التي لاتعقل، وتمتاز هذه الصورة بغناها بالدلالات العميقة، وما تثيره في النفس من المشاعر والانفعالات.

وهذا يقود للحديث عن ميزة أخرى من مزايا أسلوب السخرية في القرآن الكريم وهي الايجاز لأنّ اللفظ الواحد قد يؤدي معنى تعجز عن أدائه ألفاظ كثيرة وجمل عديدة، من ذلك قوله تعالى ﴿هذا نُزلهم يوم الدين﴾[٥] في سياق العذاب الذي يُصب على أعداء الله يوم القيامة، والنُزل عند العرب هو التكريم الذي يُعد للضيف، ولكن القرآن الكريم يسخر من أعدائه لأن العذاب لايكون نزلاً، ولكن لما قام العذاب لهم في موضع النعيم لغيرهم سُمي باسمه[٦] ، والمفارقة الطريفة التي تثيرها هذه الكلمة لأنها أُستخدمت في

---

(١) السورة التوبة، الآية ٧٩.

(٢) عبدالحليم حفني، أسلوب السخرية، ٧ والتصوير الساخر، ٧٠-٧٢، ١٨٧-١٨٨.

(٣) السورة المدثر، الآيات ٤٩-٥١.

(٤) عبدالحيم حفني، أسلوب السخرية، ١٠٦ والتصوير الساخر، ١٤٢-١٤٥ وعبدالرحمن الميداني، الأمثال القرآنية، ٧٥.

(٥) السورة الواقعة، الآية ٥٦.

(٦) الجاحظ، البيان والتبيين، ١٥٣/١ ومحمد بن محمد أبو شهبة، ١٩٨١، تفسير سورة الواقعة، ط١، عالم المعرفة، جدة، ٩٣.

عكس دلالتها، وهذه السخرية بالمشركين تزيد من وضعهم سوءاً، فهم يعانون ما يعانون من العذاب المادي والجسدي يأتيهم العذاب النفسي بهذه السخرية اللاذعة.

وكذلك نجد هذه السخرية الموجزة، التي تتركز في لفظ واحد، في مثل قوله تعالى ﴿وقال الذين في النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوماً من العذاب﴾[١] والخزنة هم الحفظة ولا يوجد في جهنم شيء تهفو إليه النفوس، وتجعله مطمعاً يغري أحداً بسرقة ما فيها حتى تحتاج إلى حراس لحمايته، ولايتسابق الناس على دخول جهنم ولايحاول المعذبون النجاة بأنفسهم والهرب من جحيمها، مما يتطلب وجود الحراس لمنعهم من الهرب فكلمة "الخزنة" تثير في النفس العديد من هذه المعاني والدلالات التي لاينطبق أي وصف منها على نار جهنم التي هي عنوان لكل ما هو قاسٍ ورهيب[٢] والايجاز يكمن في إثارة لفظة واحدة لمعان ودلالات كثيرة، والسخرية لأنها لاتتوافق مع حقيقة الموقف.

وبما أنّ القرآن الكريم يسعى إلى التأثير في النفوس والقلوب من أقصر الطرق، وأقربها إلى النفس كان يختار بعض الألفاظ الشائعة المتداولة بين عامة الناس، وفي هذا أيضاً تصوير لدقائق الأمور في حياة العرب اليومية، فهم يدركون دلالات هذه الألفاظ بمجرد الاشارة إليها في القرآن الكريم كما في قوله تعالى ﴿ياحسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون﴾[٣] وهذا التعبير من التعابير التي يلجأ إليها الناس في حياتهم اليومية للتعبير عن حزنهم وأساهم لأمر ما. ولكن يبلغ أقصى تأثيره ووقعه في النفس حينما يصدر من جانب الله؛ لأنه يبيّن لنا سوء حال المستهزئين بالرسل والمكذبين بهم. فالله يتحسر على حالهم السيء الذي يدل على جهلهم وضلالهم وجرمهم العظيم فهم يستهزئون ممن يريد الخير لهم ويكذبونه[٤] . وعندئذ لانملك إلا الشفقة على هؤلاء الذين لايعرفون مصلحتهم.

وإذا ما تشابه لفظان في دلالتهما على معنى معين؛ فإنّ القرآن الكريم يختار اللفظ الأكثر ايحاء للتعبير عن المعنى المقصود من السخرية كما في لفظة أركسهم الواردة في

---

(١) السورة غافر، الآية٤٩.

(٢) عبدالحليم حفني، أسلوب السخرية، ١١٧-١١٨ والتصوير الساخر، ١١٨-١٢٤.

(٣) السورة يس، الآية ٣٠.

(٤) عبدالحليم حفني، أسلوب السخرية، ٤١١ والتصوير الساخر، ٣٨-٤٩.

قوله تعالى ﴿فما لكم في المنافقين فئتين والله أركسهم بما كسبوا أتريدون أن تهدوا من أضلّ الله ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلاً﴾[١] وفي بداية الآية نجد عتابا موجهاً للمؤمنين الذين اختلفوا في شأن طائفة من المنافقين كانوا يُظهرون اسلامهم، ولّما حانت الفرصة التحقوا بالمشركين فعادوا إلى حقيقتهم، ولفظة أركس هنا لها دلالة خاصة فهي تعني رد الشيء مقلوباً والركاس حبل يشد في خطم الجمل إلى يده أو يديه فيضيّق عليه فيبقى رأسه معلقاً ليذل[٢] فحين يسمع العربي لفظة أركس يتصور المنافقين بهذه الصورة المضحكة التي يكفي أنها تشبههم بالدواب المربوطة بهذه الطريقة[٣] . لعل ذلك يردع هؤلاء المنافقين عن نفاقهم وارشادهم إلى طريق الخير.

وفي قوله تعالى ﴿خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم، ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم ذق إنك أنت العزيز الكريم، إنّ هذا ما كنتم به تمترون﴾[٤] نجد ألفاظاً ذات ايحاء خاص بالاضافة إلى المعنى المألوف لها، فلفظ (خذوه) يوحي بالاضافة إلى الأمر بادخال الكافر جهنم ايحاءات أخرى منها: تهوين شأن الكافر بسلبه كل ارادة ليصبح مجرد شيء يُنقل من مكان إلى مكان وكذلك لفظة (صبوا) وما فيها من سخرية بتصوير الصب فوق رأسه من العذاب، و(ذق) وما توحيه من التجرع البطيء للعذاب والسخرية لأن ذق تستعمل للأشياء المرغوبة ولا أحد يتذوق العذاب أو يستمتع به، وتبلغ السخرية بالكافر أشدها عندما يقال له ﴿إنك أنت العزيز الكريم﴾ وهو في أشد أحواله سوءاً، وأخيراً يأتي استخدام اسم الاشارة (هذا) للقول لهم إنّ ما ترونه الآن ماثلاً أمامكم وتصلون ناره[٥] ، هذا ما كنتم تنكرون وجوده في الدنيا، فهل ما زلتم تنكرون وجوده؟

وعند تأمل حروف العطف الواردة في الآيات السابقة نلاحظ أن العطف كان أولاً بالفاء التي تفيد الترتيب بدون تراخ، وبعد ذلك جاء العطف بثم التي تفيد الترتيب مع التراخي، وهذا التقسيم يتناسب مع حال النفس التي إن أصابها أذى شديد رجت أن يخف

---

(١) السورة النساء، الآية ٨٨.

(٢) ابن منظور، لسان العرب، تنسيق وتعليق ووضع الفهارس، مكتب تحقيق التراث، ط٣، ١٩٩٣ دار احياء التراث العربي، ومؤسسة التاريخ العربي، بيروت. مادة (ركس) والرازي، مختار الصحاح، ترتيب محمود خاطر، ١٩٨٧، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مادة (ركس) ويحيى عبدالله المعلمي، ١٩٨٧، كلمات قرآنية، دار المعلمي للنشر، الرياض، ١٥٨.

(٣) عبدالحليم حفني، أسلوب السخرية، ٤٣٦.

(٤) السورة الدخان، الآيات ٤٧-٥٠.

(٥) عبدالحليم حفني، أسلوب السخرية، ٤٤٠-٤٤٢ والتصوير الساخر. ٢٢٢-٢٢٤.

تدريجياً، أو على الأقل أن يبقى كما هو، ولكن أمل الكافرين يخيب حين يأتيهم بعد ذلك العذاب الأشد وهو العذاب النفسي بقوله تعالى ﴿ذق إنك أنت العزيز الكريم﴾ ويلفتنا أسلوب التوكيد إنك أنت أي لاأحد غيرك[١] . وتبلغ السخرية مداها عندما يقال له وهو في تلك الحال من العذاب ذق إنك أنت العزيز وهذا اشارة إلى استكباره في الدنيا بطريق غير مباشر.

ومما سبق ذكره يتضح لنا أنّ السخرية في القرآن الكريم، تكمن في استعمال الألفاظ في عكس ما يُؤلف استعمالها فيه، وتأتي في نصوص لايتوقع الإنسان أن يجد ألفاظاً تُستعمل في وصف الأشياء المرغوب فيها، والمحببة للنفس في مشاهد تتحدث عن العذاب وألمه الجسدي والنفسي.

(١) أحمد ماهر البقري، ١٩٨٩، أساليب النفي في القرآن، المكتب العربي الحديث، ٣٠٦.

دراسات حول قضايا مشتركة بين النحو والبلاغة

وهناك بعض القضايا المشتركة بين النحو والبلاغة مثل: أساليب النفي والاستفهام، والعطف والحذف والتقديم والتأخير والابتداء بالنكرة... الخ ويهمنا أن نعرف كيف عرض لها الباحثون المعاصرون من وجهة نظر البلاغة، وكيف ساهمت في الكشف عن مواطن الجمال في النص القرآني.

وقد اهتم الباحثون المعاصرون بهذه الفنون وحاولوا التجديد في نظرتهم إلى هذه الأساليب وعرضها بطرق تتناسب مع ظروف عصرنا؛ لأنّ الباحثين في عصرنا استفادوا من نتائج أحدث الدراسات في العلوم الأخرى وهذا شجعهم على الدعوة إلى ضرورة اعادة النظر في بعض ما قاله القدماء.

ومن الأساليب التي سأتوقف عندها باعتبارها نماذج لكيفية دراسة المعاصرين لهذه القضايا المشتركة بين النحو والبلاغة:

العطف في القرآن الكريم:

درس هذه الظاهرة القرآنية الدكتور عفت الشرقاوي دراسة أسلوبية، وفي بداية دراسته حدثنا عن جملة من المآخذ التي أخذها على طريقة القدماء في بحث هذا الأسلوب وتحليلهم له، ولعل من أهم ما قاله في هذا المجال :"إنّ مباحث الاعجاز البياني في القرآن الكريم في حقيقتها فوق قواعد النحويين وتطبيقات البلاغيين، وأنّ هؤلاء وأولئك إنما غلبت عليهم نزعة إلى التعميم –تقتضيها الضرورة المنهجية عادة في تاريخ العلوم– حين أرادوا أن يستنبطوا القواعد والأصول التي يؤسسون بها ملاحظاتهم النحوية والبلاغية، يفسرون على ضوئها شواهدهم في هذا وذاك"(١) ولكنه التمس العذر للقدماء في بعض جوانب القصور التي وجدها في طريقة دراستهم، أمّا نحن فعلينا تجنّب ما أخطأوا فيه؛ لأننا تجاوزنا منذ زمن مرحلة التأريخ للعلوم. وهذا يتطلب منا النظر في النصوص نفسها ونعتبرها هي الأساس إذا ما أردنا الكشف عن مواطن الجمال في النصوص، والإفاضة في تحليل النصوص، وهذا ما سوغ للدكتور عفت الشرقاوي دراسة العطف في القرآن

---

(١) عفت الشرقاوي، بلاغة العطف في القرآن، ٩، ١٠.

ومحمد علي أبو حمدة، ١٩٩٠، في التذوق الجمالي للايات الثلاثين خواتيم سورة البقرة، ط١، مكتبة الأقصى، عمان، ٥٧.

الكريم على أساس منهج مقترح سماه "تراسل ماهيات المعاني في السياق الأدبي" وهو منهج يتجاوز فكرة "الفصل والوصل" التي توقف عندها البلاغيون والمفسرون فيما يتعلق بموضوعات العطف عبر ما يقرب من عشرة قرون في تاريخ الثقافة العربية، ومتابعة لنظرية النظم التي نضجت على يد عبدالقاهر(١) . لأننا إذا بقينا أسرى لطريقة القدماء فمعنى ذلك أننا سنكون صورة طبق الأصل عن مؤلفات القدماء، وبهذا المنهج لن نرتقي بدراستنا للبلاغة؛ ولهذا كان لابد من حين لآخر من مثل هذه الدعوات التي قد تكون جريئة في بداية الأمر إلا أنها ستصبح مقبولة بمرور الأيام شريطة أن تحمل في ثناياها بذور البقاء والإقناع للسير على خطاها.

ومن المآخذ الأخرى التي أخذها الدكتور على بحث القدماء لأسلوب العطف، انهم أغفلوا الحديث عن بلاغة عطف المفردات إلا في مجالات محدودة، ولهذا هم لم يلتفتوا إلى مغزى التغاير في ترتيب نسق المعطوفات الوارد في مثل قوله تعالى ﴿يوم يفرّ المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه﴾(٢) وقوله تعالى ﴿يُبصَّرونهم يود المجرم لو يفتدي من عذاب يومئذ ببنيه وصاحبته وأخيه وفصيلته التي تؤويه ومن في الأرض جميعاً ثم ينجيه﴾(٣) وسبب هذا التغاير عائد لاختلاف الصورة الفنية باختلاف مقام التعبير؛ لأنّ المقام في النص الأول مقام الفرار من الأحبة انشغالاً بالنفس في يوم الفزع الأكبر، وقد اقتضى اعجاز البيان القرآني أن يجري العطف بذكر الأخ أولاً ثم التدرج حسب درجات القرب إلى النفس حتى يصل به الأمر إلى الانشغال عن مساعدة الأبناء وهم الأحب إلى النفس، وهكذا يتأكد لنا أنّ عطف الألفاظ هنا عطف يقوم على اختيار جمالي خاص(٤) . وليس مجرد الجمع بين هذه المتعاطفات في نص واحد للدلالة على التكثير.

وفي النص الثاني كان الموقف يعبر عن رغبة الإنسان في العثور على منقذ ليعينه على التخلص من المأزق، فكان الترتيب يقتضي ذكر الأقرب إلى النفس أولاً ثم التدرّج حسب درجات البعد حتى يصل إلى مَنْ في الأرض لو استطاع ذلك، ويُلحظ أنّ الأب قد ذُكر في النص الأول؛ لأنّ الموقف موقف استغاثة، بينما خلا النص الثاني من الإشارة

---

(١) عفت الشرقاوي، بلاغة العطف في القرآن، ١٠، ١٣٩.

(٢) السورة عبس، الآيات ٣٤-٣٦.

(٣) السورة المعارج، الآيات ١١-١٤.

(٤) عفت الشرقاوي، بلاغة العطف في القرآن، ١٠٦-١٠٨.

إلى الأبوة؛ لأنّ الموقف هنا موقف البحث عن المعين والمنقذ، والإنسان في مواقف الخطر، قد يتحرج من اللجوء إلى الأب لكبر سنه ولضعفه، ولحاجته هو إلى الحماية والرعاية[١] في هذه السن.

والنصان السابقان يكشفان لنا عن المشاعر التي تجول بذهن الكافر يوم القيامة، وحالته النفسية التي تجعله يتمنى العثور على المنقذ أو من يفتديه من العذاب، وقد نستغرب أن يطلب النجاة لنفسه، ولو على حساب أقرب الناس إلى نفسه، ولكنها أهوال يوم القيامة التي تجعل المرضع تذهل عما أرضعت.

وعلى الرغم من أنّ الدكتور عفت الشرقاوي قد أخذ على عبدالقاهر أنه لم يكن يحلل النصوص القرآنية -التي عرض لها- من أجل الوصول إلى خصائص كلية موضوعية لأساليب القرآن الكريم بصفة عامة في موضوع معين، وهذا ما وقع هو فيه أيضاً[٢] . إذ لم يقم بتحليل سورة كاملة مثلاً لبيان أساليب العطف فيها.

ومن المآخذ الأخرى التي يمكن أن تُوجه إلى دراسة الدكتور على الرغم من تميز دراسته وجدتها، عدم توقفه عند المفردات التي تأتي في القرآن الكريم مرة دون حرف العطف وأخرى مع العطف، وهذا ما بحثه الدكتور عبدالقادر حسين فتوصل إلى أنّ الصفات في القرآن الكريم إذا كانت متفقة غير متباينة اجتمعت دون حرف العطف كما في قوله تعالى ﴿ولا تطع كل حلاّف مهين، همّاز مشّاء بنميم، منّاع للخير معتد أثيم، عُتّل بعد ذلك زنيم﴾[٣] فهذه الصفات كلها لموصوف واحد وهو الوليد بن المغيرة -على أرجح الأقوال- وهذا هو الذي سوّغ مجيئها دون الواو[٤] .

أمّا إذا كانت الصفات مختلفة متباينة، جاءت بحرف العطف كما في قوله تعالى ﴿الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار﴾[٥] وعلى الرغم من أنّ هذه الصفات لموصوف واحد وهم المؤمنون، إلا أنها جاءت بحرف العطف الواو؛ لأنّ

---

(١) عفت الشرقاوي، بلاغة العطف في القرآن، ١٠٨-١١٠ وعبدالكريم الخطيب، اعجاز القرآن، ٢/٢٧٩، ٢٨٣.

(٢) سعد أبو الرضا، ١٩٨٤: البلاغة العربية بين القيمة والمعيارية، ط١، ١٨٣ وعفت الشرقاوي، بلاغة العطف في القرآن، ٢٩٠.

(٣) السورة القلم، الآيات ١٠-١٣.

(٤) عبدالقادر حسين، فن البلاغة، ٢٤٨.

(٥) السورة آل عمران، الآيتان ١٧، ١٤.

الصفات هنا متغايرة فكان تغايرها بمنزلة تغاير الأشخاص[١] . ونقبل هذا التعليل إلى حين لأننا نرى الصفات نفسها تأتي في آية أخرى دون حرف العطف.

فقد يجتمع العطف بحرف الواو ودونه في الآية الواحدة كما في قوله تعالى ﴿التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله﴾[٢] فالصفات التي لم يكن بينهما تباين أو تغاير جاءت دون حرف العطف، أمّا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فهما متغايران لذا كان العطف بالواو[٣]، وهذه الظاهرة ما زالت بحاجة إلى دراسة مستفيضة لاستقصاء جوانبها المختلفة.

وكذلك لم يتوقف الدكتور عفت الشرقاوي عند الآيات القرآنية التي جاءت بالفصل تارة وبالوصل تارة أخرى ومن ذلك قوله تعالى ﴿وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبّحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم﴾[٤] حيث جاءت جملة (يذبحون أبناءكم) دون حرف العطف. ووردت في قوله تعالى ﴿وإذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم إذ أنجاكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب ويذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم﴾[٥] فأين الفرق بين الآيتين[٦] ؟ ولكنه لم يحاول تعليل هذه الظاهرة واكتفى بلفت الإنتباه إليها.

وقد اتضح لنا من النصوص السابقة أهمية دراسة عطف المفردات في الآيات القرآنية للكشف عن مواطن الجمال في النص القرآني، ولم يكن القدماء على صواب عندما أهملوا هذا الباب من أبواب العطف؛ ولهذا فاتهم ادراك بعض الأسرار البلاغية للعطف في القرآن الكريم.

---

(١) عبدالقادر حسين، فن البلاغة، ٢٤٨.

(٢) السورة التوبة، الآية ١١٢ وفي سورة التحريم، الآية ٥.

(٣) عبدالقادر حسين، فن البلاغة، ٢٤٩.

(٤) السورة البقرة، الآية ٤٩ في سورة الشعراء، الآيات ١٥٣-١٥٤، ١٨٥-١٨٦.

(٥) السورة ابراهيم، الآية ٦.

(٦) شفيع السيد، البحث البلاغي، ٢١٣-٢١٤.

الحذف في القرآن الكريم:

الحذف باب مهم من أبواب البلاغة العربية، وعلى أهميته فإنّ قلة من الباحثين أفردوا له دراسة شاملة ومتخصصة منهم كاظم الظواهري الذي بحث بدائع الاضمار في القصص القرآني، وهو يقصد بالاضمار الحذف ومصطفى عبدالسلام أبو شادي الذي درس الحذف البلاغي في القرآن الكريم وسأعرض لهذه الدراسة في هذا الفصل.

والسابقون تناولوا هذه الظاهرة في أثناء بحثهم لعدد من القضايا البلاغية، ولم تكن هذه الظاهرة من صميم بحثهم؛ لهذا جاءت نتائجهم عامة بحيث يتبادر للذهن عندما يُذكر الحذف أننا نحذف للايجاز والاختصار وكأنه لاتوجد أسرار بلاغية أخرى للحذف. مما استدعى دراسة هذه الظاهرة فكان ذلك.

وبحث مصطفى عبدالسلام أبو شادي عددا من القضايا البلاغية الخاصة بالحذف كبيان مواضع الحذف في القرآن الكريم، وأنواعه، والتمثيل لكل نوع بالآيات القرآنية المناسبة، وبيان السر البلاغي للحذف الذي يختلف باختلاف النص القرآني الوارد فيه والتحليل لبعض الآيات القرآنية لبيان مواطن الجمال فيها، وتحليله للآيات القرآنية وبحثه لهذه القضايا الخاصة بالحذف، يؤكد أنه قد استدرك بعض مواطن القصور التي وجدها عند بعض القدماء في أثناء بحثهم للحذف.

والحذف مظهر من مظاهر بلاغة القرآن الكريم، ويكفي للتدليل على بلاغته قول عبدالقاهر "هو باب دقيق المسلك، لطيف المأخذ، عجيب الأمر شبيه بالسحر"(١) ولهذا كُثر الحذف في القرآن الكريم إذ لا نكاد نجد سورة تخلو منه، وقد أحصى الباحث أكثر من مئة موضع لحذف الموصوف وسبعين موضعاً لحذف المضاف إليه(٢)، وهذا يبين لنا أهمية الحذف في لغتنا التي تمتاز بالايجاز، وتدل كذلك على احترام القرآن الكريم لعقلية القارئ. فها هو ذا يشركه في تقدير المحذوف، مما يجعله أكثر تفاعلاً مع النص القرآني.

ومن الأهداف التربوية التي يسعى القرآن الكريم لتحقيقها من الحذف: تنبيه المتلقي (القارئ أو المستمع) لأنه حين يمر على موضع من مواضع الحذف لابد أن يتنبه بحثاً

---

(١) عبدالقاهر الجرجاني: دلائل الاعجاز. ١٤٦.

(٢) مصطفى عبدالسلام أبو شادي، ١٩٩٢، الحذف البلاغي في القرآن الكريم، مكتبة القرآن للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة، ٩٥.

عن المحذوف، ويجدد نشاطه. كما يفعل المدرس حينما يُلقي من حين لآخر أسئلة على تلاميذه؛ لينبههم إن كانوا عنه غافلين وهذا يجعل المتلقي ايجابياً مع ما يقرأه أو يستمع إليه، فإنه ببحثه عن المحذوف والوصول إليه بنفسه يساهم في ترسيخ المعلومات في نفسه ويقلل من النسيان وهذا أصل من أصول التربية الحديثة[١] . فلا ينبغي للمعلم أن يلقن طلابه تلقيناً، بحيث يعطيهم المعلومات كاملة فلابد أن يشركهم في التوصل إلى المعلومات بأنفسهم، بعد أن يوجههم ويرشدهم إلى كيفية التوصل إليها، بمعنى لايتركهم في حيرة، وهذا ما راعاه القرآن الكريم عند الحذف ففي كل موضع من مواضع الحذف نجد فيما قبله أو فيما بعده ما يعين على استنباط المحذوف، فإذا لم نجد فيما حوله معيناً وجدناه في موضع مماثل من الكتاب العزيز[٢] ، فالقرآن الكريم يفسر بعضه بعضاً، وهذا يتطلب من الباحث النظرة الكلية لما في القرآن الكريم.

وهناك ألوان وضروب من الحذف لاتكاد توجد إلا في القرآن الكريم وذلك مثل حذف الصفة وحذف تركيب كامل[٣] ولهذا ينبغي على الباحثين تسليط الأضواء على هذه المواضع، وبيان مواطن الجمال فيها، لتكون نماذج أمام المبدعين للاستفادة منها، وعدم تكرار الحديث عن مواضع البحث التي أشبعها الباحثون دراسة، كحذف الفاعل والمفعول به، وحذف المبتدأ والخبر.... الخ.

وقد يختلف الباحثون في تقدير المحذوف في بعض المواضع، وهذا يدل على أنّ الحذف يدخل في باب الاجتهاد، وهو بدوره مرتبط بما ينكشف من أسرار القرآن الكريم في كل زمان ومكان[٤] ؛ ولهذا سيبقى الباحث يجد جديداً في أثناء دراسته لهذا الباب من أبواب البلاغة العربية، ولكن لايعني هذا أن نترك العنان لخيالنا ليتخيل ما شاء من تقديرات للمحذوف فينبغي أن نبقى مشدودين إلى النص القرآني نفسه.

---

(١) مصطفى عبدالسلام أبو شادي، الحذف البلاغي في القرآن الكريم، ٨٤، ٨٦.

(٢) السابق، ١٥٢، ١٥٧.

(٣) السابق، ٩١، ١٤٧، وينظر سورة طه، الآية ٧ وفي سورة المائدة، الآية ٤٥ وفي سورة البقرة، الآية ٧٣ وفي سورة يوسف، الآيتان ٤٥-٤٦.

(٤) السابق، ١٥٥، ١٥٧.

التقديم والتأخير في القرآن:

نال هذا الموضوع حظاً من الاهتمام؛ لأنه يعد وادياً من أودية البلاغة وكنزاً من كنوز البيان. وعلى الرغم من أهميته فإنّ الأقدمين لم يحاولوا تبيّن الأسرار البلاغية الكامنة وراءه. ولايكفي القول: قُدّم للعناية به؛ أو لأنّ ذكره أهم[١] ولهذا فقد خص هذه الظاهرة الدكتور محمود السيد شيخون بدراسة شاملة لأساليب التقديم والتأخير في لغة القرآن الكريم بهدف الالمام بقواعدها وأحكامها. ومعرفة الأسرار البلاغية من استخدامه في القرآن. وأكثر من الاستشهاد بالنصوص القرآنية المناسبة[٢] وتحليلها؛ لأنّ الغاية من التقديم والتأخير في القرآن الكريم لاتُدرك إلا ببيان الصلة بين الآية وما قبلها وما بعدها. وبالنظر العميق في النص القرآني. أمّا الاكتفاء بذكر الآيات القرآنية أو تعدادها، دون أن يتبع ذلك التحليل فإنّ هذه الطريقة لاتساعد على تبيّن مواطن الجمال في النص؛ لأنها أقرب إلى التقعيد منها إلى الدراسة الفنية فما جدوى ذكر قاعدة والتطبيق عليها بمثال واحد؟

والنموذج التالي يوضح الطريقة التي اتبعها في تحليل هذه الظاهرة حيث توقف عند الآيات القرآنية التي تمّ فيها تقديم كلمة في نص. ثم تأخيرها في نص آخر كما في ﴿ولا تقتلوا أولادكم من املاق نحن نرزقكم وإياهم﴾[٣] قدم المخاطبين (نرزقكم) لأنّ الخطاب مُوجه للفقراء بدليل قوله تعالى ﴿من املاق﴾ فكان رزقهم عندهم أهم من رزق أولادهم. ولبث الطمأنينة في أنفسهم قدم الوعد برزقهم على الوعد برزق أولادهم، بينما في قوله تعالى ﴿ولا تقتلوا أولادكم خشية املاق نحن نرزقهم وإياكم﴾[٥] ، كان الخطاب موجهاً للأغنياء بدليل قوله تعالى ﴿خشية إملاق﴾ فكان رزق أولادهم، هو الأهم. فرزقهم -حاصل كونهم أغنياء- فقدم الوعد برزق أولادهم على الوعد برزقهم[٦] . وهذه دقة متناهية لايمكن أن يدركها إلا من أطال التأمل في النص القرآني.

---

(١) محمود السيد شيخون، ١٩٨٣، أسرار التقديم والتأخير في لغة القرآن، ط١، مكتبة الكليات الأزهرية، ٣ ودلائل الاعجاز، ١٠٨.

(٢) السابق، ٧٩-١٢٣ وعبدالقادر حسين، فن البلاغة، ١٠١-١١٠.

(٣) السورة الأنعام، الاية ١٥١.

(٥) السورة الاسراء، الآية ٣١.

(٦) محمود السيد شيخون، أسرار التقديم والتأخير، ١١٨، ١١٩-١٢٣ وعبدالكريم الخطيب، اعجاز القرآن، ٣٠٣/٢-٣٠٥ وفتحي عبدالقادر فريد، فنون البلاغة، ٦١-٦٢ وسيد قطب، في ظلال القرآن، ٣٢٠/١٥-٣٢١.

ولفت الدكتور محمد بركات أبو علي إلى أنّ مجرد القول قُدّم المفعول به للأهمية في قوله تعالى ﴿اياك نعبد وإياك نستعين﴾[١] من غير ربطه بما أضيف إليه يبقى المعنى قاصراً، فالتقديم هنا يعني أنّ العبد قد تشرّف بعبوديته لله، وهي اطاعة أوامره واجتناب نواهيه، ثم طلب منه العون بعد ذلك، وبذلك يشعر العبد بالطمأنينة والراحة لأنه لجأ لأقوى قوة في الكون، بعد أن حقق شرط العبودية لله[٢] ، وبمثل هذا التحليل يمكننا فهم الغاية من ورود الترتيب بهذه الصورة في القرآن الكريم، فالتقديم لايكون إلا لهدف بلاغي.

وقد ربط الدكتور محمد بركات أبو علي بين التقديم والنظرة التربوية في القرآن الكريم من خلال تحليله للمعوذات إذ وجد أنّ الله -سبحانه وتعالى- قد قدّم ﴿ملك الناس﴾ على ﴿اله الناس﴾ ليعلمنا أنّ من أراد أن يملك قلوب الناس، عليه أن يرعاهم أولاً، ويغمرهم بفضله وعنايته ثم بعد ذلك يطلب منهم أن يملكوه أمرهم[٣] . فالتقديم في القرآن الكريم له أسرار تتضح من خلال تأملنا للسياق الذي ترد الآية فيه.

---

(١) السورة الفاتحة، الآية ٥.

(٢) محمد بركات أبو علي، دراسات في البلاغة، ٥٢-٥٣.

(٣) السابق، في اعجاز القرآن، ٣٧-٣٨، ٤٠-٤٣.

الفصل الثالث

دراسات للمعاصرين حول التفسير البلاغي للقرآن الكريم

الفصل الثالث

دراسات للمعاصرين حول التفسير البلاغي للقرآن الكريم

منذ أن نشأ علم التفسير حتى اليوم مازالت التفاسير للقرآن تترى، وكل مفسر يحاول أن يفسر القرآن الكريم حسب ثقافته، ومواهبه الخاصة، والاتجاه الفكري الذي ينتمي إليه، وظروف عصره؛ ولهذا وُجدت قديما تفاسير بالمأثور وبالرأي، وأخرى ذات اتجاهات فلسفية ولغوية وفقهية، وصوفية وكلامية... الخ.

وإذا كان الزركشي يرى أنّ عصره بحاجة ماسة إلى تفسير القرآن الكريم أكثر من حاجة الأوائل لقصورنا عن ادراك أحكام اللغة بغير تعلّم، فنحن أشد الناس احتياجاً إلى التفسير[١] .

وكثرة التفاسير القديمة لاتعني اقفال الباب أمام الباحثين المعاصرين والتوقف عن النظر في القرآن الكريم، ومحاولة تفسيره تفسيراً يتناسب مع ظروف عصرنا الذي استجد به كثير من الأحداث والمواقف، التي تتطلب منا تطوير دراستنا للقرآن الكريم، فهو صالح لكل زمان ومكان.

ومن مظاهر اعجاز القرآن الكريم قابليته للتفسير حسب وجهات نظر متعددة، فكل باحث يرى فيه ما يُشبع اهتمامه، ويجد ضالته فيه، وقد قال علي بن أبي طالب -كرّم الله وجهه- عن القرآن الكريم : إنه جِمّال أوجه[٢] ، ومما يؤكد القول السابق أننا نجد الاتجاهات المعاصرة التالية لتفسير القرآن الكريم: العلمي والموضوعي والأدبي والاجتماعي والبلاغي والنفسي... الخ، ووجود هذه الاتجاهات المعاصرة لايعني أننا لانجد لها بذوراً عند المفسرين القدماء، لكنهم لم يُسلّطوا عليها الضوء بحيث تبدو ظاهرة للعيان كما نراها الآن اتجاهات لها مزاياها ورجالها، وإنما كانت تأتي في معرض تفسيرهم ولم تكن هي الأساس في تفسيرهم.

ولقد كثرت تفاسير القدماء إلا أنها -على كثرتها وشمولها وتنوعها- لم تسلم من النقد الذي وجهه المعاصرون لها، ومن بعض القصور الذي حاول المفسرون المعاصرون استدراكه لابل إنّ محمد الصادق عرجون قد تساءل هل فُسّر القرآن الكريم[٣] ؛ ومبعث

---

(١) الزركشي،البرهان في علوم القرآن،تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، ١٩٧٢، ط٢، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، ١/١٥.

(٢) السيوطي، الاتقان في علوم القرآن، ١/١٤٢.

(٣) محمد الصادق عرجون، القرآن العظيم، ٧-٩.

هذا التساؤل ما يشعر به المسلمون اليوم من فراغ عميق في حياتهم؛ ولهذا فإنّ المفسرين المعاصرين مطالبون بربط التفسير بشيء من قضايا الواقع حتى يشعر الناس أنّ القرآن الكريم ليس بعيداً عن حياتهم ولا عن نواحي تفكيرهم، والقرآن الكريم ليس كتاباً روحياً فقط مهمته شرح أمور الدين وأحكامه؛ ولهذا تعالت أصوات عديدة تطالب بدراسة القرآن الكريم بطرق جديدة.

والتفسير الأدبي والبلاغي للقرآن الكريم لم يكن وليد هذا العصر بل له جذور في تفاسير القدماء، حيث وجدنا في تفاسيرهم ملامح بلاغية وذوقية، ولكنها لم تكن الهدف الأساسي في تفسيرهم، وعلى رأس هذه التفاسير تفسير الزمخشري، لكن هذه التفاسير لم تسلم من الأخطاء التي وقع بها المفسرون القدماء، ولعل من أبرزها نظرتهم الجزئية للقرآن الكريم حيث كانوا يتوقفون عند كل آية وردت في السورة ويشيرون إلى ما فيها من قضايا نحوية أو صرفية أو بلاغية أو فقهية.... الخ ولم يحاولوا النظر إلى القرآن الكريم ككل متكامل. وبعض الآيات القرآنية لاتُفهم دلالتها إلاّ بالنظرة الكلية الشاملة كما في الآيات(١) التي كانت تدعو المسلمين إلى الصبر وتحمّل أذى المشركين. والآيات(٢) التي تدعوهم للدفاع عن أنفهسم ومقاومة المشركين. وكذلك بعض الأحكام الواردة في القرآن الكريم لايمكن فهمها إلا إذا دُرست دراسة موضوعية كتحريم الخمر في الاسلام الذي تمّ على مراحل وكل آية قرآنية نزلت كانت تمثل مرحلة من مراحل تحريمه.

وكان سيد قطب ومحمد المبارك وأمين الخولي من أوائل الذين أرسوا قواعد هذا المنهج ثم طبقوه عملياً في كتاباتهم ثم سار تلاميذهم من بعدهم على نهجهم.

وعند بحثنا عن القواعد التي يعتمد عليها دعاة هذا المنهج في التفسير نجد أنهم يؤمنون بوجود الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم، وأنّ القرآن الكريم يفسر بعضه بعضاً، وهذا يعني أنهم يستعينون ببعض مبادئ المنهج الموضوعي في تفسير القرآن الكريم، الذي يقوم على جمع الآيات التي تتناول موضوعاً حيثما وردت في القرآن الكريم، ثم ترتيبها على حسب النزول –ما أمكن ذلك– أو معرفة مكان النزول، ومن ثم دراستها

---

(١) ينظر على سبيل المثال: السورة طه، الآية ١٣٠ وسورة الروم، الآية ٦٠ وسورة لقمان، الآية ١٧ وسورة ق، الآية ٣٩ وسورة غافر، الآية ٥٥ ٧٧، وسورة ص، الآية ١٧ وسورة الأحقاف، الآية ٣٥.

(٢) ينظر على سبيل المثال: السورة البقرة، الآيات ١٩١، ١٩٣، ٢٤٢ وسورة آل عمران، الآية ١٦٧ وسورة النساء، الآيات ٧٦، ٨٩، ٩١ وسورة التوبة، الآيات ١٢، ٢٩، ٣٦، ١٣٦.

دراسة عميقة وشاملة. وقد درس سيد قطب مشاهد يوم القيامة في القرآن الكريم بهذه الطريقة، ودرست الدكتورة عائشة عبدالرحمن الحروف المقطعة وبعض أساليب القرآن الكريم كالقسم، والترادف بهذه الطريقة -كما سيتضح بعد قليل- وهذا يبين أنّ التفسير الأدبي يرتكز على التفسير الموضوعي في جمع المادة القرآنية، ثم يفترق عنه ويختط لنفسه طريقته الخاصة في التحليل.

وابتعد دعاة هذا التفسير عن كل ما يشغل القارئ عن تذوق جمال النص القرآني كالانسياق وراء الاسرائيليات أو ذكر التفاصيل التي لاطائل من ورائها أو الانشغال بالقضايا النحوية أو القراءات أو اختلافات المفسرين وأقوالهم المتعددة. وقلما خرجوا عن اطار النص القرآني لبحث قضايا فرعية وهم يريدون أن يكون التفسير خالصاً لبيان مواطن الجمال في النص القرآني.

أعلام التفسير

محمد عبده

وقبل الحديث عن جهود أبرز دعاة التفسير الأدبي البلاغي في عصرنا الحاضر، سأتوقف قليلاً عند محمد عبده، وبيان جهده في تفسير القرآن الكريم؛ لأنه يجمع بين التفسيرين الموضوعي والأدبي، وكما بينت فإنّ التفسير البلاغي أيضاً يعتمد في جزء منه على التفسير الموضوعي، وللتشابه بين ما دعا إليه محمد عبده وما دعا إليه دعاة التفسير الأدبي من مثل:

تخليص تفسير القرآن الكريم مما علق به من الشوائب والاسرائيليات، والايمان بفكرة وحدة السياق في السورة الواحدة، وأنّ المدار على عموم اللفظ لاعلى خصوص السبب[١] ، ثم يفترق دعاة هذين المنهجين؛ لأنّ محمد عبده كان يؤمن بمقدرة القرآن الكريم على النهوض بحال المسلمين في الوقت الحاضر واخراجهم من جهلهم وغفلتهم وتأخرهم، أي يتحدث عن وظيفة القرآن الاصلاحية[٢] ؛ ولهذا وظف تفسيره لابراز هذا الدور للقرآن العظيم، مما جعل الدكتور محيي الدين بلتاجي يطلق على منهجه الاتجاه العقلي الاجتماعي في التفسير[٣] ، وفي أثناء ذلك كان يتوقف عند بعض فنون البلاغة الواردة في القرآن الكريم، ولايمكننا اعتبار هذا التفسير تفسيراً بلاغياً للقرآن الكريم[٤] ؛ لأنّ مفهومه للتفسير يقوم على ابراز وظيفة القرآن الاصلاحية، وهذا هو المفهوم من قوله والتفسير الذي نطلبه هو فهم الكتاب من حيث هو دين يرشد الناس إلى مافيه سعادتهم في حياتهم الدنيا وحياتهم الآخرة، فإنّ هذا هو المقصد الأعلى منه، وما وراء هذا من المباحث تابع له أو وسيلة لتحصيله[٥] . وبيّن أنّ التفسير قسمان: الأول جاف مُبعد عن الله وكتابه وهو ما يُقصد به حلّ الألفاظ، واعراب الجمل، وبيان ما ترمي إليه تلك العبارات

---

(١) محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ١/ ٧، ٢٥٢، ٣٢٠، ٣٢٤-٣٢٥، ٤١٨، ٤٣٥-٤٣٦، ٤٣٧، وتفسير جزء عمّ، مطابع الشعب، ٦٠، ٦١، ٧٤، ٨٣، وأحمد جمال العمري، ١٩٦٨، دراسات في التفسير الموضوعي للقصص القرآني، ط١، مكتبة الخانجي، القاهرة، ٥٦-٥٧.

(٢) محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ١/٥، ١٩ و ١٢/٢١٧-٢٩٩.

(٣) محيي الدين بلتاجي، ١٩٨٧، دراسات في التفسير وأصوله، مكتبة الهلال، بيروت، دار الثقافة، الدوحة، ٢١٥-٢١٩.

(٤) عفت الشرقاوي، ١٩٨٠، قضايا انسانية في أعمال المفسرين، دار النهضة العربية، بيروت، ١٠٤.

(٥) محمد عبده، ١٩٦٩، مشكلات القرآن الكريم، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت ١٠، ومحمد رشيد رضا، تفسير المنار، ١/١٧.

والاشارات من النكت الفنية وهذا لاينبغي أن يُسمى تفسيراً، وإنما ضرب من التمرين في الفنون كالنحو والمعاني وغيرها[١] ، وهو لايريد من كلامه السابق أن يهمل الناحية البلاغية أو النحوية مثلاً في تفسير القرآن، ولكنه يريد أن يأخذ المفسر من ذلك بمقدار الضرورة[٢] بما يعين على توضيح المعنى، ويظهر مواطن الجمال في النص القرآني؛ ولهذا انتقد المفسرين الذين كانوا يشغلون القراء عن مقاصد القرآن السامية بنكت المعاني ومصطلحات البيان[٣] .

وتكمن ميزة هذا التفسير باعتباره يشكل حلقة وصل بين التفاسير القديمة والتفاسير الحديثة، وفي أسلوبه الذي فسّر به القرآن الكريم إذ كان أسلوباً أدبياً، خالياً من التكلّف والمحسنات البديعية التي كانت سائدة في عصر ما قبل النهضة، وهذا دفع الدكتور محمد رجب البيومي إلى القول : إنّ منزلة محمد عبده في النثر العربي المعاصر هي منزلة البارودي في الشعر المعاصر، فكلا الزعيمين كان رائد بعث أدبيّ حي، فهو أحد عناصر التجديد الأدبي المعاصر[٤].

ومن الأسس التي اعتمد عليها محمد عبده وتلاميذه من بعده في التفسير، وشعرت أنّ لها علاقة بهذه الدراسة:

المطالبة بفهم اللفظ في القرآن نفسه بأن يجمع المفسر ما تكرر في مواضع منه وينظر فيه، فربما استعمل بمعان مختلفة كلفظ الهداية، ويحقق كيف يتفق معناه مع جملة معنى الآية فيعرف المعنى المطلوب من بين معانيه[٥] ، وهذا يتطلب من المفسر اتقان اللغة العربية اتقاناً تاماً.

الاكثار من الحديث عن التناسب بين آيات السورة الواحدة، والاتصال المحكم بين الآية وما قبلها[٦] والتناسب بين السور من حيث الترتيب، والصلة بين فاتحة السورة وخاتمتها[٧] ، وهذا ما سيتم الحديث عنه بعد قليل.

---

(١) محمد عبده، مشكلات القرآن الكريم، السابق، ١٨-١٩.

(٢) محمد حسين الذهبي، ١٩٨٥، التفسير والمفسرون، ط٣، مكتبة وهبة، مصر، ومطابع المختار الاسلامي، مصر، ٢/٥٣٠.

(٣) محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ١/٧ ومحمد عبده، تفسير جزء عمّ، ٧٥-٧٦.

(٤) محمد رجب البيومي، خطوات التفسير البياني، ٢٩٦-٢٩٧.

(٥) محمد عبده، مشكلات القرآن الكريم، ١٥.

(٦) محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ١/٤٣٤-٤٣٥، ٢/٥٦-٥٧، ١١/٣٧-٣٨، ١٩٧-١٩٨، ١٤١-١٤٢.

(٧) السابق، ٩/٥٨٢-٥٨٥، ١١/١٤٢، ١٢/٢، ٩٣.

وهو يستعين بالبلاغة في أثناء تفسيره كأن يحدثنا عن دلالة بعض المصطلحات البلاغية[١] وقيمتها في إبراز المعنى، ولكنه لايُغرق في توظيف تلك المصطلحات، وإنما يتحدث عن دلالتها وأثرها في الكلام.

وما قاله في أثناء تفسيره لسورة البلد يوضح منهجه في التفسير: أقسم الله -سبحانه وتعالى- بمكة لتفخيم شأنها، وصرّح بذكرها على سبيل الاشارة إليها مرتين لزيادة التفخيم، وأتى بجملة ﴿وأنت حِلّ بهذا البلد﴾ واعترض بها بين العاطف والمعطوف؛ ليفيد أن مكة عظيم شأنها، جليل قدرها في جميع الأحوال، حتى في هذه الحالة التي لم يراع أهلها في معاملته -عليه السلام- تلك الحرمة التي خصه الله بها، وفي هذا تنبيههم وايقاظهم من غفلتهم، وتقريعهم على ما حطوا من منزلة بلدهم[٢] . فهدفه ابراز الغاية من استخدام المصطلح البلاغي في النص القرآني، وأثر ذلك في ايصال المعنى للقارئ، فقد حدثنا عن فائدة القسم والتكرار وما تخلله من جملة اعتراضية والعطف في السورة السابقة دونما الحديث عن مصطلح الفصل والوصل الذي شاع بين البلاغيين، وبهذه الطريقة استطاع أن يُظهر مواطن الجمال في النص القرآني.

وهو يؤمن أنّ القرآن الكريم يفسر بعضه بعضاً، فما أُجمل في موضع تم تفصيله موضع آخر[٣] ؛ ولهذا على المفسر التنبّه إلى ذلك في أثناء تفسيره للقرآن الكريم.

---

(١) محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ١/١٣٦، ٢٨٩، ٣٥٣، ٤٢٣، ٢/١١، ١٠٠، ٤٠٧، ٨/١٧٦، ٢٣٨، ١١/٣٦٢، ٤٨٧، ١٢/١١، ١٩٢-١٠١.

(٢) محمد عبده، تفسير جزء عم، ٦٧-٦٨.

(٣) السابق، ٢٧، ٣٢، ٨٥.

سيد قطب

وميزة سيد قطب أنه استطاع تفسير القرآن الكريم بأكمله؛ ولهذا كانت تجربته أشمل تجربة من بين دعاة الاتجاه الأدبي الفني في تفسير القرآن الكريم. ولكن دافعه لهذا التفسير لم يكن أدبياً أو بلاغياً فقط على الرغم من أنّ بداياته كانت جمالية فنية كما يظهر ذلك من قوله في مقدمة كتابه :"مشاهد القيامة في القرآن" وفي اعتقادي أنني لم أصنع بهذا الكتاب وبسابقه (التصوير الفني) ولن أصنع بلواحقه إلا أن أرد القرآن في احساسنا جديداً كما تلاه العرب أول مرة فسُحروا به أجمعين.... فلا أقل من أن يُعاد عرضه، وأن ترد إليه جدته، وأن يُستنقذ من ركام التفسيرات اللغوية والنحوية والفقهية والتاريخية وأن تبرز فيه الناحية الفنية وتُستخلص خصائصه الأدبية وتُنبه المشاعر إلى مكامن الجمال فيه، وذلك هو عملي الأساسي في (مكتبة القرآن الجديدة)(١) التي كان ينوي انشاءها وأصدر عدداً من الكتب ثم توقف بعدما انخرط في العمل السياسي. ولكن لايعني هذا أنه تخلى تماماً عن النظرة الجمالية لما ورد في القرآن الكريم. فالناظر في تفسيره يلمس توقفه عند الجوانب البلاغية الواردة في القرآن الكريم، كما أنه كان يكثر من الإحالة(٢) إلى كتابه "التصوير الفني" الذي لاجدال أنه ألفه من أجل النظر في بلاغة القرآن، وفيه توصل إلى أنّ التصوير هو الأداة المفضلة في أسلوب القرآن، وطريقة التصوير هي أجمل طرائق التعبير، وأفضلها في الفن والدين؛ ولهذه الطريقة فضلها ولا شك في أداء الدعوة لكل عقيدة، ولكننا إنما ننظر إليها هنا من الوجهة الفنية البحتة في الأداء، وإنّ لها من هذه الوجهة لشأناً، فوظيفة الأداء الأولى هي اثارة الانفعالات الوجدانية، واشاعة اللذة الفنية بهذه الاثارة، واجاشة الحياة الكامنة بهذه الانفعالات، وتغذية الخيال بالصور لتحقيق هذا جميعه... وكل أولئك تكفله طريقة التصوير والتشخيص للفن الجميل(٣) . ولا أظن أنه سيغفل عن هذه الحقيقة عندما يقوم بتفسير القرآن الكريم.

أمّا قواعد المنهج الذي سار عليه في تفسيره فيمكن تلخيصها في النقاط الأساسية التالية:

---

(١) سيد قطب، ١٩٦١، مشاهد يوم القيامة في القرآن، دار المعارف، مصر، ٨.

(٢) السابق، في ظلال القرآن ينظر على سبيل المثال، ٢٣/١، ٥١، ٦٤، ٨٠، ١٠٣ و ٤٢٨/٣، ٥٧٦، ٦١٩ و ٤٢٣/١١، ٤٦٠.

(٣) السابق، مشاهد القيامة، ٧-٨ وفي ظلال القرآن، ٤٢٧/١-٤٢٩.

وضع مقدمة شاملة سماها "تعريف مجمل للسورة"(١) أو "بين يدي النص" يعرّف من خلالها بالسورة، ويذكر موضوعها العام، ثم الموضوعات الأخرى التي اشتملت عليها وبيان طريقة القرآن في الانتقال من موضوع إلى آخر دونما احساس بانقطاع بين الآيتين، أو استعمال ألفاظ معينة تدل على الانتقال من قسم إلى آخر كما كنا نجد ذلك في القصائد الشعرية. وبهذا يعطي القارئ فكرة شاملة عن السورة ومضمونها، وأبرز ملامحها وسماتها المميزة لها وهو يرى أنّ لكل سورة من سور القرآن الكريم شخصيتها المتميزة، ولها موضوع رئيسي أو عدة موضوعات رئيسة مشدودة إلى محور خاص، ولها جو خاص يظلل موضوعاتها كلها،ويجعل سياقها يتناول هذه الموضوعات من جوانب معينة تحقق التناسق بينها وفق هذا الجو، ولها ايقاع موسيقي خاص.. وهذا طابع عام لسور القرآن جميعها(٢) . وهذا ما حاول سيد قطب ابرازه في تفسيره. ثم كان يحلل الآيات القرآنية ويبرز مواطن الجمال فيها على هذا الأساس.

وهو ينظر للقرآن الكريم نظرة كلية شاملة، ففي القرآن وحدة موضوعية ومتكاملة إذ تلتقي آياته لتحقيق أغراضه السامية، وتسري بينهما روح الاتفاق والانسجام، تتعانق آياته وتتناسق معانيه ودلالاته، وتُعتبر كل سورة فيه وحدة جزئية قائمة بذاتها، ولها دور رئيسي في "الكل" القرآني المتناسق الجميل(٣) . وهذا ينفي وجود أي تعارض أو تناقض في آيات القرآن الكريم؛ لأنّ التأمل العميق للآيات القرآنية التي كانت تتحدث عن الموضوع الواحد بصور مختلفة، يزيل أي توهّم بأنّ في القرآن الكريم تناقضاً، بدليل قوله تعالى ﴿أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾(٤) وهو يرى أنّ هذه الآية تُبين منهج النظر الصحيح في القرآن الكريم، كما تبين بجلاء أنّ القرآن الكريم من عند الله ولا أحد يستطيع أن يماري في هذه الحقيقة(٥) . وبهذا الفهم يمكننا الرد على من يطعنون في آيات القرآن الكريم.

وقد أخذ سيد قطب على المفسرين القدماء الذين فسروا القرآن الكريم اقتصار نظرتهم على نواحٍ جزئية، حيث نظروا في الآية كوحدة منفصلة، وأخذوا يستخرجون

---

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، يُنظر على سبيل المثال: ١/٢٢-٣٤ و٣/٥١١-٥٢٨ و ١١/٣٥٩-٣٧٥ و ١٢/٤٨٩-٥٠٣ و ١٣/٦١-٦٥ و ١٤/٢٢٤-٢٣٤.

(٢) السابق، ١/٢٣ و ١٠/٣٧٨ و ١٣/٦٣، ١٢١ و ١٤/١٨٩ - ١٩٠، ٢٠٩-٢١٠.

(٣) صلاح عبدالفتاح الخالدي، المنهج الحركي، ١٥٢.

(٤) السورة النساء، الآية ٨٢.

(٥) سيد قطب، في ظلال القرآن، ٥/٤٦٣-٤٦٧.

منها مباحث في اللغة والأدب والبلاغة... الخ فجاءت تفاسيرهم نحوية أو لغوية... الخ. ولهذا أخذ التفسير ينمو ويتضخم ابتداءً من أواخر القرن الثاني، وبدلاً من البحث عن الجمال في النص القرآني أخذ يُغرق في مباحث بعيدة كل البعد عن بيان مواطن الجمال في النص القرآني[١] . وهذه النظرة الجزئية تحول دون ادراك الخصائص العامة للنص.

والمطلع على تفسيره يلاحظ أنه كان يحافظ على النص القرآني ويعيش في أجوائه، ولا يحاول الخروج عن اطار النص، ولا ينشغل بذكر أمور خارجة عما ورد في القرآن الكريم كأن نسأل عن الطوفان الذي حدث في زمن نوح -عليه السلام- أكان الطوفان عاماً في الأرض؟ أم أنه كان في تخوم الأرض التي بُعث فيها نوح؟ وأين كانت هذه الأرض؟ وأين تخومها في العالم القديم ومن العالم الحديث؟ أسئلة لاجواب لها إلا الظن الذي لايُغني من الحق شيئاً، وإلا الاسرائيليات التي لاتستند إلى دليل صحيح[٢] ، أو أن نسأل ما الجنة التي عاش فيها آدم وزوجته حيناً من الزمن؟ ومن هم الملائكة؟ ومن هو ابليس؟ وكيف خاطبهم الله تعالى؟ وكيف أجابوه؟ فهذا وأمثاله في القرآن الكريم غيب من الغيب الذي استأثر الله تعالى بعلمه؛ ولهذا لايجوز للعقل البشري أن يخوض فيه؛ لأنه لايملك الوسيلة للوصول إلى شيء من أمره، وكل جهد يُبذل في هذه المحاولة هو جهد ضائع، ذاهب سدى بلا ثمرة ولا جدوى[٣] ولنتوقف عند ما يرد في القرآن الكريم لأنه لو شاء -سبحانه وتعالى- لأفصح، ولو كانت حكمة النص لاتتحقق إلا بهذا الافصاح ما أهمله القرآن الكريم[٤]، وبدلاً من البحث في مثل هذه الأمور فلنوجه طاقاتنا نحو النص القرآني لنتأمل ما فيه ونحلله.

والتزم سيد قطب بهذا المنهج ولهذا كان يستبعد المطولات وقلّما خرج عن النص، وإذا ما خرج فإنه سرعان ما يعود للنص القرآني ويعتذر عن ذلك[٥] ، كما حدث عندما حدثنا عن قصة تكوين الإنسان من خلال حديثه عن قصة آدم. وإذا ما أحس بأن الآيات تحتمل المزيد من التوضيح فإنه كان يختم السورة بتعقيب[٦] يتحدث فيه بما عنّ له من

---

(١) سيد قطب، التصوير الفني، ٢٦-٢٧، ٣٢.

(٢) السابق، في ظلال القرآن ٥٥٢/١٢.

(٣) السابق، ١/ ٧٠-٧١.

(٤) السابق٣/٣٧،٤٣٨ و ١/١٣٠ و ١٥/٣٧٣، ٣٩٥و ١٦/١٤٠.

(٥) السابق، ١/٧٤ و ١٤/٢٠٤-٢٠٥.

(٦) سيد قطب، في ظلال القرآن، ٣/٤٩٠-٥١٠ و ١٢/٥١١-٥٢٢، ٦٢٢-٦٥٨ و ١٤/٢١٨ و ١٥/٣٦٢، ٣٨٠.

خواطر وأفكار، وهذا ما ينبغي أن يسير عليه المفسرون حتى تبقى صلة القارئ بالنص القرآني قوية ويتذوق مواطن الجمال فيه ولا ينشغل بأمور ثانوية قد تحول دون ادراك ما ورد في النص من بلاغة وفصاحة كالانشغال بالسبب الذي جعل يعقوب يوصي أبناءه بالدخول من أبواب متفرقة، أو بنوع الطعام الذي كان على المائدة التي أنزلت على عيسى -عليه السلام- أو بأسماء أصحاب القرية الوارد ذكرهم في سورة (يس)، أو مكان وجود الكهف الذي أوى إليه الفتية في قصة الكهف... الخ.

وأطال الوقوف عند التوافق والانسجام الذي يلمسه قارئ القرآن لأوائل السور وخاتمتها وهذا الأمر قلّما تنبّه إليه المفسرون، وبخاصة خاتمة السور. فالخاتمة لاتقل أهمية عن فاتحة السورة، فقد قال في نهاية سورة يوسف: "وهكذا يتوافق المطلع والختام في السورة، كما توافق المطلع والختام في القصة، وتجيء التعقيبات في أول القصة وآخرها، وبين ثناياها، متناسقة مع موضوع القصة، وطريقة أدائها وعباراتها كذلك فتحقق الهدف الديني كاملاً، وتحقق السمات الفنية كاملة مع صدق الرواية ومطابقة الواقع في الموضوع"(١) وفاتحة سورة يوسف تُبيّن الغاية من ذكر القصص في القرآن الكريم. وقد يكتفي بالحديث عن مظاهر البلاغة في مقدمة السورة فقط، وأحياناً أخرى يحدثنا عن خاتمتها فقط(٢).

وتوقف أيضاً عند الظروف العامة التي كانت تنزل الآيات القرآنية فيها، ليبين أنّ مضمون الآيات كان يتناسب مع تلك الأجواء(٣). وبيّن الغاية من ضرب الأمثال في القرآن(٤) وكان يطيل الوقوف عند بعض المشاهد ليبين ما فيها من تصوير وكيف ساهم التصوير في تقريب المعنى لذهن القارئ(٥) . وما في الألفاظ من موسيقى وأثر ذلك في المعنى(٦) وهذا يعني أنه قد مهّد السبيل لمن يليه من المفسرين المعاصرين، ووضع قواعد

---

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، ٦٠/١٣ و ١٧٨/٣ و ٤٨٥/١١ و ٦٠/١٣، ١٠٢، ١٢٩ و ٣٦٥/١٥ و ٥٠٧/١٦.

(٢) السابق، ٦٨/١٣ ، ١٠٣ و ٢٢٦/١٤-٢٢٧ و ٣٧/١٥.

(٣) السابق، ١١/ ٤٨٥ و ٦٢٢/١٢ و ٢٢٢/١٤.

(٤) السابق، ١/ ٥٦-٥٧ و ٦٤/١٣، ١٥٤-١٥٥.

(٥) السابق، ١٢٠/١ - ١٢١ و ٣٨٩/٢٠ و ٥٠٦/١٢ و ٨٠/١٣ و ٢٢٠/١٤.

(٦) السابق، قصار السور في الجزء الأخير و ٧٥/١٣ و ٤٢٣/١٦ - ٤٢٥، ٤٦١.

المنهج الصحيح الذي ينبغي أن نسير عليه، وقد أثنى كثير من الباحثين المعاصرين[١] على تفسيره لما وجدوا فيه من جدة وأصالة وتميز وشمول وعمق في التحليل.

ومما سبق ذكر عن رأيه في اعجاز القرآن في الفصل الثاني وما ذكرته في هذا الفصل عن منهج سيد قطب في تفسير القرآن الكريم وما سأعرض له عن رأيه في بلاغة القصة في القرآن الكريم في الفصل القادم يمكننا القول لقد تجاوز الكاتب الرائد نطاق البلاغة القديمة، ودخل بها حيزاً أوسع وأدق هو ما نطلق عليه في عصرنا الحاضر: فن الأسلوب أو فن القول[٢] .

---

(١) منهم: عبدالله شحاته، أهداف كل سورة ومقاصدها في القرآن الكريم ١٩٨٦، الهيئة المصرية للكتاب، ٣٧٢/١.
وأحمد جمال العمري، دراسات في التفسير الموضوعي للقصص القرآني، ٦١.
وعبدالله شحاته، ١٩٨١ التفسير بين الماضي والحاضر، دار بو سلامة للطباعة والنشر والتوزيع، تونس، ٢٥، ٢٧.
ونعيم الحمصي، فكرة اعجاز القرآن، ٣٤٣ وصلاح عبدالفتاح الخالدي، البيان في اعجاز القرآن، ١٣٠.

(٢) فتحي أحمد عامر، بلاغة القرآن، ٣٥٠.

محمد المبارك

طالب بدراسة القرآن الكريم دراسة أدبية والتركيز ينبغي أن يكون على التركيب الفني للنص القرآني؛ لأنه شعر أنّ الحاجة -في وقتنا الحاضر ماسة- لمثل هذا التفسير الأدبي لإظهار مواطن الجمال في النص القرآني التي كانت تختفي أحياناً وراء ركام من الآراء النحوية والفقهية والكلامية وأقوال المفسرين القدماء ويكون ذلك على حساب النص نفسه. فلا بد من الخروج عن النظرة التقليدية لتفسير القرآن الكريم.

وقد أبان في مقدمة كتابه عن منهجه في التفسير الذي يقوم على تلخيص الفكرة العامة للنص أي ذكر المعنى الاجمالي والحديث عن الأفكار الأساسية الواردة في النص، ثم دراسته النص دراسة أدبية وتتضمن الحديث عن المفردات والتراكيب وصياغة الآيات وموسيقاها[١]. وهذه الدراسة تتم في اطار من النظرة الشاملة للنص من جوانبه كافة، وجعلها في اطار واحد يجمع ما بين الخصائص الفكرية والفنية للنص التي لايجوز الفصل بينهما عند الدراسة؛ لأنّ التحليل إلى أجزاء يُضيّع خواص التركيب. وهذا بدوره يُضيّع الكثير من روعة الأثر القرآني ولكننا نضطر إلى هذه الطريقة؛ لأنه لاغنى للعلم عن التحليل والتشريح لمعرفة الحقيقة[٢] ولهذا طالب المفسر أو المحلل للنص تحليلاً أدبياً ذوقياً أن يكون يقظاً عند تحليله للنص لمعرفة الرابط الذي يوحّد بين أجزاء النص وقد يصعب أحياناً تبينه[٣] وهذا يتطلب دقة وعمقاً في تناول النص.

وطبّق منهجه على سورتي العاديات والحاقة وأجزاء من سورة النحل وقصة يوسف عليه السلام، إضافة إلى دراسته بعض القضايا الفكرية التي تناولها النص القرآني مثل الطبيعة والكون في القرآن، الإنسان والإنسانية في القرآن. وفيما يلي استعراض لبعض النماذج التي وردت في أثناء تحليله لسورة العاديات لتكون مثالاً تطبيقياً على منهجه في التفسير:

بعد أن عرض لأقسام السورة بيّن أنّ الفكرة الأساسية لهذه السورة تكمن في قوله تعالى ﴿إنّ ربهم بهم يومئذ لخبير﴾[٤] وملخصها أنّ الإنسان مسؤول بعد هذه الحياة عن

---

(١) محمد المبارك، ١٩٧٣، دراسة أدبية لنصوص القرآن الكريم، مكة المكرمة، دار الفكر، ٣، ٧-٨.

(٢) السابق، ٩٢ وعائشة عبدالرحمن، ١٩٦٢، التفسير البياني للقرآن، دار المعارف، مصر ١/١٠.

(٣) السابق، ٨.

(٤) السورة العاديات، الآية ١١.

أعماله ودوافعه[١] . وكل ما في النص كان يثبت هذه الفكرة منذ المشهد الأول الذي تحدث عن مشهد الغزو وما فيه من حركة ودقة في الوصف والتصوير للخيل في إحدى الغارات، ثم الانتقال إلى المشهد الثاني الذي يحلل العوامل النفسية التي تدفع الإنسان إلى القيام بأعماله ومن ثم محاسبته عليها؛ ولهذا امتازت هذه السورة بالمزج بين طريقة التصوير والوصف في حركة العاديات المغيرات والغبار المتجمع والشرر المتطاير... الخ وبين طريقة التحليل والعرض المباشر للأفكار التي تحدثت عن نفسية الإنسان[٢] . ثم تمّ الانتقال بسرعة وايجاز للحديث عن المشهد الثاني. وقد توقف الباحث عند الحذف الذي تخلل المشهدين وأبان عن الغرض البلاغي من استخدامه، وهو ترك المجال أمام خيال القارئ ليتمم ماالذي حدث بعد أن التقى الجمعان في نهاية القسم الأول من السورة وما تخلله من سلب ونهب وقتل وكر وفر... إلخ وهذه الأعمال هي التي استدعت الحكم الوارد في القسم الثاني عن الإنسان[٣] بقوله تعالى ﴿إن الإنسان لربه لكنود﴾[٤] أي جحود وبهذا يكون قد وجد السر بين القسم الوارد في بداية السورة والمقسم عليه وهذا ما أغفله بعض المفسرين القدماء.

وعند دراسته للحروف والأفعال والألفاظ الواردة في سورة العاديات بيّن أنّ استعمال ما الموصولة والأفعال المبنية للمجهول في قوله تعالى ﴿أفلا يعلم إذا بُعثر ما في القبور وحصّل ما في الصدور﴾[٥] لافساح المجال للخيال أن يتصور ما شاء أن يتصور[٦] ، ويُكثر القرآن الكريم من استخدام الأفعال المبنية للمجهول عند الحديث عن يوم القيامة ومشاهدها. وقد التفت إلى هذه الظاهرة أكثر من باحث لكنها لم تُدرس دراسة مفصلة شاملة.

أمّا الألفاظ الواردة في السورة فكانت على نوعين[٧] :

الأول: لتصوير المعاني الحسية، ومنها: صبح وموريات ومغيرات وأثرن.

---

(١) محمد المبارك، دراسة أدبية لنصوص من القرآن، ١٥.

(٢) السابق، ١٧، ١٩.

(٣) السابق، ١٩-٢٠.

(٤) السورة العاديات، الآية ٦.

(٥) السورة السابقة، الآيتان ٩، ١٠.

(٦) محمد المبارك، دراسة أدبية لنصوص من القرآن، ٢١.

(٧) السابق، ٢١ وسيد قطب، مشاهد القيامة، ٦٢.

الثاني: للتعبير عن المعاني المجردة وهي معان عامة منها: كنود، خبير، شهيد، وتمتاز الألفاظ بدقتها ومناسبتها للمعاني التي عبّرت عنها.

ولم ينسَ الحديث عن موسيقى السورة التي امتازت بتنوعها وتغيرّها بتغيّر المعنى الذي تعبر عنه[١]. يلمس ذلك من يرتل القرآن الكريم ويصغي إلى موسيقى السورة.

ولفت الانتباه إلى قصر الآيات في هذه السورة ليتناسب ذلك مع سرعة الانتقال في تصوير الحركات، ومع ايجاز الأفكار في التحليل النفسي، والتنوع في الآيات من جمل فعلية غير مؤكدة إلى جمل اسمية مؤكدة إلى استفهامية[٢] كل ذلك جاء منسجماً مع المعنى والأفكار التي وردت في السورة. فهو استطاع اعطاءنا تصوراً كاملاً عن النص السابق من حيث الشكل والمضمون.

ولم يتوقف عند دلالة حروف العطف الواردة في السورة. وتكرار حرف التوكيد "إنّ" حيث ورد في هذه السورة أربع مرات[٣] . واغفاله لمثل هذه الأمور لايقلل من قيمة الجهد الذي بذله في تحليله، ويكفي أنه لفت الانتباه منذ فترة مبكرة إلى أهمية الدراسة الأدبية لنصوص القرآن الكريم.

---

(١) محمد المبارك، دراسة أدبية لنصوص من القرآن، ٢٢.

(٢) السابق، ٢١.

(٣) السورة العاديات، الآيات ٦-٨، ١١.

عائشة عبدالرحمن

قامت بتفسير قصار السور في القرآن الكريم تفسيراً بلاغياً وفي مقدمة كتابها حدثتنا عن الأسباب التي دفعتها لتفسير القرآن الكريم بهذه الطريقة ومنها:

ملاحظتها انشغال كليات الآداب في مختلف الجامعات المصرية بتحليل النصوص الشعرية كالمعلقات والحماسيات والمفضليات والدواوين الشعرية وبيان مواطن الجمال فيها. بينما ظل التفسير الأدبي للقرآن الكريم محصوراً في نطاق مادة "التفسير" دون أن ينتقل إلى مادة الأدب العربي، التي من الواجب عليها جعل النصوص القرآنية هي المحور الأساسي الذي تقوم عليه[١] ؛ لأنّ القرآن الكريم النبع الصافي لبلاغتنا وهو أجدر من غيره بالدراسة والتحليل. فآن الأوان للاهتمام بتفسير القرآن بلاغياً في كليات الآداب.

وحدثتنا عن تجربتها الشخصية في هذا المجال حيث تابعت أسئلة الامتحان في مادة الأدب العربي –لمدة عشرين عاماً– في أقسام اللغة العربية بمختلف الكليات، فلم تجد من بينها سؤالاً في النص القرآني، بينما وجدت أسئلة في هذا المجال في مادة "التفسير"[٢].

وقد تكون الدكتورة عائشة عبدالرحمن قد بالغت قليلاً في رأيها السابق، لأن المدة التي تحدثت عنها كانت طويلة، إذ لايمكن مرور عشرين عاماً ولايتنبه أحدهم لهذه الظاهرة، وهدفها من ذلك بيان مدى التقصير في تحليل القرآن الكريم تحليلاً أدبياً بلاغياً في كليات الآداب وبالمقابل نجد اهتماماً كبيراً بتحليل النصوص الشعرية والنثرية.

ونحن مطالبون في هذا العصر بالخروج عن الاطار التقليدي لتفسير القرآن الكريم؛ لأنّ جهود القدماء في هذا المجال لاحصر لها، وهم قد بذلوا جهدهم ضمن امكانات عصرهم وطاقاتهم.

ونحن علينا التجديد في طريقة بحثنا وتفسيرنا للقرآن الكريم بالخروج عن الاطار التقليدي الذي كنا ندرس فيه الآيات القرآنية التي تتناول فناً بلاغياً؛ لأنّ هذه الدراسة المجتزأة للآيات القرآنية لاتعطينا فكرة دقيقة وشاملة عن النص؛ لأننا نأخذ الآية مبتورة من السياق الذي وردت فيه. كأن نقول في قوله تعالى ﴿قال رب إني وهن العظم مني

---

(١) عائشة عبدالرحمن، التفسير البياني، ١/٥.

(٢) السابق، ١/٦.

واشتعل الرأس شيباً﴾[١] يوجد كناية أو استعارة وهذا وحده غير كاف. فلابد من النظرة الشاملة للنص كاملاً.

ويتميز التفسير البلاغي عن غيره بتحليله لأسلوب القرآن الكريم، وبيان مواطن الجمال فيه وهو ليس مهماً لطلبة الكليات الأدبية فقط وإنما هو مهم أيضاً للذين يهتمون بدراسة جوانب القرآن الكريم المختلفة، كاستخراج الأحكام الفقهية من القرآن الكريم، أو القضايا الاجتماعية أو اللغوية... الخ فكل هؤلاء بحاجة إلى فهم أسلوب القرآن الكريم بما فيه من مفردات وتراكيب وبيان أسراره البيانية، فهماً يقوم على الدرس الأدبي الدقيق للقرآن الكريم[٢]. ومما سبق ذكره يتضح أنّ على مفسر القرآن الكريم أن يتحلى بشروط لايمكنه تفسير القرآن دونها -في مقدمتها اتقان اللغة العربية اتقاناً تاماً- خشية أن يسيء فهم إحدى مفردات القرآن الكريم أو دلالات التراكيب.

وهي لم تُقدم على تفسير القرآن الكريم إلا لاحساسها بمقدار حاجتنا إليه في عصرنا على الرغم من تحرجها الشديد؛ لأنّ التفسير من علوم العربية التي لم تنضج ولم تحترق، وحرصها على فهم النص القرآني فهماً مستشفاً لروح العربية، مستأنساً في كل لفظ بأسلوب القرآن نفسه، والاحتكام إليه وحده، عند اختلاف نظرات المفسرين للنص القرآني[٣] .

أما المنهج الذي سارت عليه فكان يتمثّل في الخطوط العريضة التالية:

تجنّب كل الأمور التي حُشيت بها كتب التفسير القديمة من الاستطرادات التي لاتمت إلى تفسير الآية بصلة، كالاسرائيليات وبخاصة في القصص القرآني التي انساق بعض المفسرين القدماء وراءها دونما طائل، كالحديث عن اسم امرأة العزيز في قصة يوسف أو ما الذي حدث بين سليمان -عليه السلام- وملكة سبأ فيما بعد... الخ.

البقاء في اطار النص القرآني وبيان دلالته من خلال النص نفسه، مع الاستئناس بآراء المفسرين التي تلقي ضوءاً على بلاغة القرآن الكريم وتتناسب مع بلاغته، وترفض

---

(١) السورة مريم، الآية ٤.

(٢) عائشة عبدالرحمن، التفسير البياني، ١/٨ وأمين الخولي، مناهج التجديد، ٣١٦-٣١٧.

(٣) السابق، ١/ ٩-١٠.

ما عدا ذلك من آراء[١] .. ففي تفسيرها لسورة الضحى تحدثت عن تعدد آراء المفسرين التي قيلت لبيان سبب نزولها، ورفضت الأقوال التي ذكروها لتحديد مدة ابطاء نزول الوحي وسببه، ولايجوز للمفسرين أن يشغلوا أنفسهم بتحديد هذه المدة؛ لأنّ مقتضى الاعجاز البياني أن يستوفي كل ما يدعو إليه المقام مما يتصل بغايته، والذي يهمنها هنا جوهر الحادثة لاتفصيلاتها الجزئية[٢] فنحن نتقيد بما ورد في النص، ولوكانت هناك غاية بلاغية لذكر الرقم لذكره القرآن الكريم.

رفض التأويلات التي تشعر أنها بعيدة عن روح العربية الأصيلة، وتحميل ألفاظ القرآن الكريم ما يأباه القرآن نفسه[٣] وتتساءل عن السبب الذي يدفعنا إلى التأويل في القرآن الكريم إذ علمنا أنه قد وُثق بطريقة لامجال فيها للقول بالتأويل، فما وجه التأويل في أي حرف أو لفظ أو صيغة من القرآن وهو ليس بموضع ضرورة -كما في الشعر- ولا مجال فيه اطلاقاً للقول بالرواية بالمعنى كما في الحديث النبوي الشريف[٤] . وهذا الفهم بدوره ينفي وجود حرف زائد في القرآن الكريم[٥] فكل حرف له قيمته وله دلالته ولا يكفي أن يقال إنه زائد للتأكيد؛ لأنّ مقتضى القول بزيادة الحروف امكان الاستغناء عنها. وطبقت منهجها في التفسير على حرف الباء الوارد في خبر (ما) و(ليس) حيث قامت باستقراء الآيات القرآنية التي وردت فيها هذه الظاهرة وبعد دراستها وتحليلها لمضمونها صنفتها إلى فئتين: فئة اقترن الخبر فيها بالباء وحدثتنا عن السر البلاغي الكامن وراء الاقتران بالباء، والفئة الثانية -وهي الأقل- لم يقترن الخبر فيها بالباء وحدثتنا عن السر البلاغي لعدم اقتران الخبر بالباء، وهي لم تكن تكتفي بنقد ما قاله النحاة بل قامت بتفسير هذه الظاهرة التفسير الذي رأته ينسجم مع بلاغة القرآن الكريم[٦] ، مما جعلها تطالب باعادة النظر فيما قاله النحاة حول زيادة (مَن) في بعض الآيات القرآنية[٧]،

---

(١) عائشة عبدالرحمن، التفسير البياني، ١/٨.

(٢) السابق، ١/١٤.

(٣) السابق، ١/٢٥، ٣٢، ٤٣ وسيد قطب، في ظلال القرآن، ١/٦١ و ٣/٣٨٦-٣٨٧ و ٣/٤٢٤ و ١٣/٣١.

(٤) السابق، ١٩٧٢، من أسرار العربية في البيان، محاضرة ألقيت في جامعة بيروت ثم نُشرت، ١١.

(٥) محمد عبدالله دراز، النبأ العظيم، ١٣٠-١٣١ وأحمد ماهر البقري، من أساليب النفي في القرآن، ٤٨، ٥٦، ٩١. وابن الأثير، المثل السائر ٣/١٣-١٥ .

ومحمد عبده، ١٩٨٠، دروس من القرآن، ط١، د ار احياء العلوم، بيروت، ٣٣.

(٦) عائشة عبدالرحمن، الاعجاز البياني، ١٨٠-١٩٠.

(٧) السورة المؤمنون، الآية ١٠٠ وفي سورة الحشر، الآية ١٤ وفي سورة الحجرات، الآية ٤.

لعلنا نظفر بالسر البلاغي لورودها، وعدم الاكتفاء بقول إنها زائدة، فهذا تهرب من الإجابة ليس أكثر.

وبحثت بالطريقة نفسها الآيات القرآنية التي قيل فيها حروف محذوفة[٢] كما في قوله تعالى ﴿قالوا تا لله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضاً أو تكون من الهالكين﴾[٣] فالقول بأن (لا) هنا محذوفة يتعارض مع بلاغة القرآن الكريم التي تتمثل في مطابقة الكلام لمقتضى الحال، فإذا اقتضى المقام الذكر ذُكر وإذا ما تطلب الحذف حُذف.

ومما سبق ذكره يتضح لنا أنّ لهذا المنهج في التفسير موقفاً من النحاة الذين حاولوا تطبيق القواعد التي توصلوا إليها على ما في القرآن الكريم. فنتج عن ذلك بعض الممحاكات النحوية التي دفعتهم إلى التكلّف أحياناً والتأويل لتستقيم لهم القواعد التي استقرأوها، وكان يجدر بهم دراسة مافي القرآن الكريم -لأنه أوثق مصدر للغة العربية- ومن ثم استقراء القواعد النحوية والصرفية؛ ولهذا لانقبل بعض ما قالوه لتفسير بعض الآيات القرآنية، ومن ذلك:

وقف النحاة طويلاً عند "أرأيت" التي تكررت ثلاث مرات في سورة العلق[٤] ولم يُذكر فيها المفعول الثاني على ما تقتضي الصنعة النحوية، وذكروا عدة تأويلات لذلك، وقد قامت الدكتورة بالاحتكام إلى النص القرآني نفسه حيث تتبعت هذه الظاهرة في القرآن الكريم فوجدت أنّ الأسلوب الاستفهامي مثل :(أرأيت)[٥] و (أرأيتم)[٦] إنما يستغنى عن ذكر المفعول الثاني لـ (رأى) بتقرير يلفت إلى موضع العبرة والنذير[٧] ؛ ولهذا ينبغي توجيه الجهد نحو معرفة السر البلاغي لهذا الأسلوب، وليس البحث عن المفعول للفعل رأى وعلى النحاة أن يعيدوا النظر في قواعدهم عند مخالفتها لأدق نص كُتب باللغة الفصحى،فالنصوص الشعرية أو أقوال الأعراب التيّ استقرأوا قواعدهم منها رُويت بالمشافهة قبل عصر التدوين، فمجال التغيير والنسيان والسهو والخطأ فيها وارد أمّا

---

(٢) عائشة عبدالرحمن، الاعجاز البياني، ١٩٢-١٩٣ والتفسير البياني ١/٣٠-٣١.

(٣) السورة يوسف، الآية ٨٥.

(٤) الآيات، ٩، ١١، ١٣.

(٥) السورة مريم، الآية ٧٧ وفي سورة الفرقان، الآية ٤٣ وفي سورة الجاثية، الآية ٢٣ وفي سورة النجم، الآية ٣٣.

(٦) السورة يونس، الآية ٥٩ وفي سورة الشعراء، الآية ٧٥ وفي سورة فاطر، الآية ٤٠ وفي سورة الزمر، الآية ٣٨ وفي سورة النجم، الآية ١٩.

(٧) عائشة عبدالرحمن، التفسير البياني، ١/٢٧-٣٠ و ٢/١٠٢.

القرآن الكريم فلا،وكلنا يتذكر الدقة المتناهية والحرص الشديد الذي لازم مرحلة تدوين القرآن.

ومن ثمار هذا المنهج أنها استطاعت تصحيح بعض الأخطاء التي وقع بها القدماء ومن الأمثلة على ذلك تفسيرها للمقصود بالضلال الوارد في قوله تعالى ﴿ووجدك ضالاً فهدى﴾[١] فهي ترفض ما قاله المفسرون في هذا المجال لتنافيه مع ما ورد في القرآن الكريم نفسه من استعمال هذه اللفظة (الضلال). واتضح لها بعد الاستقراء أنّ الاستعمال القرآني لايلتزم دائماً بالمعنى الاصطلاحي لكلمة الضلال وهو الكفر وإنما لُحظ فيه الأصل اللغوي من ضلال الطريق أو عدم الاهتداء إلى الصواب وأدلتها على ذلك ورود هذه الكلمة في آيات قرآنية عديدة[٢] . لم يكن فيها الضلال يعني الكفر، وإنما تعبر عن معانٍ تُفهم من السياق الذي وردت فيه، وهذا الفهم يعفينا من تلك التأويلات العشرين التي تكلفوها لتفسير آية الضحى لنفي الكفر عن الرسول -عليه السلام- قبل أن يبعث[٣] .

ومن القضايا البلاغية التي تميزت في بحثها وتحليلها لها قضية الترادف في القرآن الكريم حيث توصلت بالأدلة من القرآن الكريم نفسه إلى تميز كل لفظة قرآنية واستقلالها بدلالتها، ولا يمكن وضع إحدى مرادفاتها مكانها[٤] . وقد تطرق بعض الباحثين إلى هذه الظاهرة، ولكنهم لم يقوموا باستقصائها ودراستها بالطريقة الموضوعية والدقيقة التي لمسناها في تحليلها، وهي قد أثرت البحث البلاغي القرآني بهذه الدراسة الممتعة والجديدة.

ومن أبرز النتائج التي توصلت إليها في هذا المجال أنه لاترادف في القرآن الكريم والدليل على ذلك من القرآن الكريم نفسه، حيث قامت بتتبع مجموعة من الكلمات المترادفة في اللغة حيثما وردت في القرآن، وعندما أخضعت هذه الآيات للدراسة والتحليل اتضح لها أنّ القرآن الكريم قد ميّز في الاستعمال بين الخشوع والخشية، وحلف

---

(١) السورة الضحى، الآية ٧.

(٢) السورة يوسف، الآيتان ٨، ٣٠ وفي سورة الشعراء، الآية ٢٠ وفي سورة البقرة، الآية ٢٨٢.

(٣) عائشة عبدالرحمن، التفسير البياني، ١/٣٥ وأحمد نوفل، ١٩٨٩، سورة يوسف دراسة تحليلية، ط١، دار الفرقان للنشر والتوزيع، عمان، ٢٩٤-٢٩٥ ومحمد جابر فياض، ١٩٨٥، التورية وخلو القرآن، منها، ط١، دار المنارة للنشر، جدة، ٥٥.

(٤) عائشة عبدالرحمن، الاعجاز البياني، ٢١٤-٢١٥ .

وأقسم، والتصدّع والتحطّم، وزوج وامرأة، والحلم والرؤية[١] ، وغير ذلك من الكلمات المترادفة، فكل كلمة كانت تأتي في موضع لا يحتمل أن ترد فيه الثانية؛ فمثلاً استعمل القرآن "الأحلام" ثلاث مرات يشهد سياقها بأنها تعني الأضغاث المهوسة والهواجس المختلطة، وأتت في المواضع الثلاثة بصيغة الجمع[٢]، ووردت مرتين في سورة يوسف[٣] للحديث عن الحلم الذي رأه الملك. وفي الثانية وردت في سورة الأنبياء[٤] على لسان المشركين في أثناء جدالهم للرسول -عليه السلام- ووردت كلمة أحلامهم في سورة الطور[٥] ولكن الدكتورة عائشة عبدالرحمن لم تتحدث عنها، وهي بذلك تثبت أنّ كل لفظة في القرآن الكريم تأتي في مكانها ولا تحل الواحدة مكان الأخرى.

وأمّا الرؤيا فوردت في سبعة مواضع[٦] في القرآن الكريم، كلها في الرؤيا الصادقة؛ لأنّ خمساً منها تحدثت عن رؤى للأنبياء وهي صادقة لأنها جزء من الوحي، وفي الموضعين الآخرين تحدثت عن رؤى تحققت فهذا دليل صدقها. وفي المرات السبع جاءت كلمة (رؤية) بصيغة المفرد، دلالة على التمييز والوضوح والصفاء[٧] . بالقياس إلى الاختلاط وعدم الوضوح في كلمة أحلام التي تدل على الاختلاط. وهذا يبين قيمة المعاجم الخاصة باللفظ القرآني. فقد يكون للكلمة معنى في اللغة ثم أصبح لها مفهوم جديد في القرآن الكريم.

ودرست بالمنهج نفسه الفاصلة في القرآن الكريم وتوصلت إلى أنّ رعاية الفاصلة في البيان القرآني لاتكون مجرد رعاية شكلية للرونق اللفظي وإنما تأتي لمقتضيات معنوية[٨] ولو كان الأمر كما يقول بعضهم لما عدل القرآن الكريم عن لفظ "فخبّر" إلى "فحدّث" في قوله تعالى ﴿وأمّا بنعمة ربك فحدث﴾[٩] ففواصل هذه السورة تقوم على حرف الراء ولا يوجد فيها حرف الثاء[١٠] ، وبالمقابل فسّرت لنا السر البلاغي الكامن

---

(١) عائشة عبدالرحمن، الاعجاز البياني، ينظر على سبيل المثال: ٢١٥، ٢٢١-٢٢٤، ٢٢٦، ٢٣٥.

(٢) السابق، ٢١٥.

(٣) السورة يوسف، الآية ٤٤.

(٤) السورة الأنبياء، الآية ٥.

(٥) السورة الطور، الآية ٣٢.

(٦) السورة يوسف،الآيات ٥، ٤٣، ١٠٠ وفي سورة الاسراء، الآية ٦٠ وفي سورة الصافات، الآية ١٠٥ وفي سورة الفتح، الآية٢٧.

(٧) عائشة عبدالرحمن، الاعجاز البياني، ٢١٥-٢١٦.

(٨) السابق، ٢٦٨-٢٧٩ والتفسير البياني ٢٤/١ و ١١٤/٢.

(٩) السورة الضحى، الآية ١١.

(١٠) عائشة عبدالرحمن، الاعجاز البياني ٢٦٩ والتفسير البياني، ٢٥/١.

وراء حذف الكاف من قوله تعالى ﴿ما ودعك ربك وما قلى﴾[١] لأنه -ﷻ- تحاشى خطابه -ﷺ- في موقف الايناس، بصريح القول ﴿وما قلاك﴾. لما في القلى من حسّ الطرد والإبعاد، وحذفت الكاف في فواصل الآيات التي تلتها ؛ لأنّ السياق أغنى عن ذكرها، ولو ذُكرت لكان ذكرها حشواً وفضولاً، والقرآن الكريم مُنزّه عن ذلك[٢]. ولا يظن ظان أنها بهذا الرأي تقلل من قيمة التآلف اللفظي والايقاع الصوتي، فالبلاغة لاتفصل بين جوهر المعنى وبين أسلوب أدائه، ولا تعتد بمعان جليلة تقصر الألفاظ عن التعبير عنها، كما لاتعتد بألفاظ جميلة تضيع المعنى أو تجور عليه ليسلم لها زخرف بديعي[٣].

ورفضت أن يكون حذف الياء في قوله تعالى ﴿والليل إذا يسر﴾[٤] لرعاية الفاصلة لأنّ الاستقراء القرآني بيّن أنّ حذف ياء المضارع المرفوع المعتل الآخر والواو أيضاً وياء الاسم المنقوص المضاف والمعرّف بأل التعريف، جاء في أواسط الجمل ودرج الكلام[٥] ولو كان الأمر كما قالوا لاقتصر الحذف على رؤوس الآيات فقط. يُنظر على سبيل المثال[٦] قوله تعالى ﴿يوم يأتِ لاتكلّم نفس إلا بإذنه﴾ وقوله تعالى ﴿وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداعِ إذا دعانِ فليستجيبوا لي﴾ وقوله تعالى ﴿إلا من هو صال الجحيم﴾ .

ولكن محمود أحمد نحلة يرى أنّ حذف الواو والياء في الآيات التي استشهدت بها الدكتورة عائشة، لايؤثر في المعنى بشيء، ومن ثم يسقط الاحتجاج بما تقول[٧] ، وهذا يعني أنّ هذه الظاهرة القرآنية ما زالت بحاجة إلى بحث ودراسة.

---

(١) السورة الضحى الآية ٣.

(٢) عائشة عبدالرحمن، الاعجاز البياني ٢٦٩.

(٣) السابق، ٢٧٨، ويؤيد هذا الرأي حسن محمد باجودة عندما أثبت أنّ هناك صلة قوية بين المعنى الذي تعبر عنه الآيات والفاصلة وموسيقى الآيات، ولايمكن الفصل بينهما، جاء ذلك في كتابه تأملات في سورة محمد، ١٩٧٩، دار الاعتصام للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة، ٥، ٢٣-٢٧.

(٤) السورة الفجر، الآية ٤.

(٥) عائشة عبدالرحمن، الاعجاز البياني، ٢٧٠.

(٦) السورة هود، الآية ١٠٥ وفي سورة البقرة، الآية ١٨٦ وفي سورة الصافات، الآية ١٦٣.

(٧) محمود أحمد نحلة، لغة القرآن الكريم في جزء عمّ، ٣٧٨.

محمد متولي شعراوي

يجب لفت الانتباه إلى أنّ الشيخ محمد متولي شعراوي لم يقم بتفسير القرآن كاملاً وكل ما قام به هو أحاديث اذاعية وتلفزيونية عن مظاهر اعجاز القرآن الكريم تخللها تفسير لبعض السور في القرآن الكريم قام بعض الناشرين بجمعها كما هي ثم نشرها في كتب دونما تنقيح لها؛ ولهذا لم تخل هذه الكتب من أخطاء إملائية والحديث باللهجة العامية. كما أنّ الأحاديث في المساجد التي تكون مُوجهة لعامة الناس تميل إلى التبسيط قدر المستطاع، ويتخللها الاعادة والتكرار وأحياناً الركاكة في التعبير[١] ، وعلى الرغم من هذه المآخذ إلا أنّ تفسيره يبقى تفسيراً مهما ومتميزاً؛ لأنه يمتاز بقدرته على ربط النصوص الإلهية بالحياة اليومية المعاشة[٢] وبذلك يُقرّب مضامين القرآن الكريم إلى أذهان العامة.

ويمكن وصف منهجه بالمنهج الشامل فهو منهج لغوي تحليلي مع مزج بثقافة عصرية واسعة، وعقلية منطقية جدلية، أي منهج أدبي علمي منطقي وعظي، وكثيراً ما يربط الآية بآيات شبيهة في سور أخرى[٣] . وهذا المنهج يعتبر أنسب المناهج لهذا العصر؛ إذ يمكن من خلاله ارضاء جميع الاتجاهات بحيث يجد كل صاحب فكرة ضالته في هذا التفسير ونتمنى أن يتم الشيخ تفسير القرآن بأكمله. وعدم الاقتصار على الأحاديث الاذاعية والتفزيونية.

ومن خلال استعراضي لجهوده في التفسير يمكنني القول إنّ أبرز النقاط التي ركز عليها في تفسيره لقصار السور في القرآن الكريم هي:

بيان الغاية من ضرب الأمثال في القرآن الكريم، وأسلوب القسم في القرآن الكريم، والتقديم والتأخير، والتناسب بين السور من حيث الترتيب. والحروف المقطعة في أوائل بعض السور، والدقة المتناهية في استعمال الحروف والأفعال والألفاظ في القرآن الكريم، والغرض من تكرار بعض الكلمات في القرآن الكريم، والحذف ودلالته، والمجاز

---

(١) تفسير سورة عبس، دار أبو سلامة للطباعة والنشر والتوزيع، تونس، ١١، ١٤، ١٥، ١٦، ١٨، ١٩، ٢٠، ٢١، ٤٩، ٥٧، ٥٨.

(٢) محمد متولي شعراوي، معجزة القرآن، ٣/ مقدمة الناشر.

(٣) عبدالوهاب الحارثي، ١٩٨٩، ط١،دلالة السياق، نهج مأمون لتفسير القرآن، ٤٩ ومحمد متولي شعراوي، ١٩٨٠، المنتخب من تفسير القرآن دار العودة، بيروت، ١٢٢-١٢٤، ١٣٠-١٣١، ٢٩٠-٢٩١.

العقلي، وأسلوب القرآن الكريم في التعبير عن بعض الأمور الغيبية، بالإضافة إلى تصحيحه لبعض الأخطاء التي وقع بها بعض المفسرين نتيجة لنظرتهم غير الدقيقة في النص كما في حديثهم عن العتاب الوارد في سورة "عبس"، وكي يكون القارئ على بينة مما قلته سأعرض الآن لنماذج مما قاله:

تحدث عن ظاهرة تكرار بعض الكلمات في أوائل السور التي تحدثت عن أسماء يوم القيامة مثلاً القارعة، الحاقة، وبيّن أنّ تكرار هذه الألفاظ كان لغاية بيانية، حيث ورد اللفظ في كل مرة لغرض مختلف فلما قال تعالى ﴿القارعة﴾ للمرة الأولى سيتساءل المتلقي القارئ أو المستمع ﴿ما القارعة؟﴾ وهذا السؤال يتطلب جواباً فكان قوله تعالى ﴿وما أدراك ما القارعة﴾ أي أننا لانستطيع الاجابة عنها، فالجواب ليس عندنا الآن؛ لأنّ ذلك مما سيحدث في المستقبل ونحن لاندري كيف يكون؟ ولهذا أراد الله -سبحانه وتعالى- أن يربي المهابة من يوم القيامة والاستعداد المناسب له[١] . فجاء هذا الأسلوب اللافت للانتباه للدلالة على عظم ما سيليه.

ولايظن ظان أنّ المعنى اللغوي لكلمة القارعة أو الحاقة هو المقصود هنا فالمعنى اللغوي لهذه الألفاظ يبقى محدوداً ولا يعبر عما سيحدث يوم القيامة؟ ولهذا تكون هذه الألفاظ قد انتقلت من المعنى اللغوي المحدود لتدل على معنى جديد، وهذا المعنى الجديد أمر مبهم بالنسبة لنا[٢] ؛ ولهذا جاء السؤال مباشرة ما القارعة؟ لأننا نعرف دلالة القارعة في اللغة أمّا دلالتها على أحداث يوم القيامة التي ما زالت غير معروفة لنا فهذا من التجديد الذي طرأ على دلالة هذا اللفظ.

وتبرز ظاهرة جديرة بالبحث هنا وهي ظاهرة التجديد اللفظي الذي طرأ على بعض الألفاظ عند ورودها في القرآن الكريم فألفاظ (القارعة) و(الحاقة) و(الواقعة) و(الغاشية) كلها ألفاظ معروفة من حيث اشتقاقها ولكنها جديدة في اطلاقها على يوم القيامة؛ ولهذه الجدة أثر في نفس السامع، في اثارته وتنبهه إلى المعنى المقصود[٣] . ونجد كذلك تجديداً في اضفاء معاني جديدة لبعض الكلمات التي لم تكن لها تلك الدلالة ومنها

---

(١) محمد متولي شعراوي، المنتخب من تفسير القرآن الكريم، ٢٨٢، ٢٨٧، ٢٨٨، ٢٩٨.

(٢) السابق، ٢٨٥.

(٣) محمد المبارك، دراسة أدبية لنصوص من القرآن ، ٤٥.

على سبيل المثال: الجاهلية والنفاق لهما دلالة لغوية محددة ولكن القرآن الكريم استخدمهما بمفهوم جديد[١] مما أثرى هاتين الكلمتين.

ومن خلال تحليل محمد متولي شعراوي لهذه الظاهرة توصل إلى أنّ الله -سبحانه وتعالى- حين يتكلم عن الأمور الغيبية فإنه يُقرّبها لنا بذكر هذه الألفاظ التي أصبحت تحمل مدلولات جديدة، وبضرب الأمثال التي من خلالها يتم تقريب المعاني الذهنية غير المحسوسة إلى أذهاننا؛ ولهذا قال تعالى ﴿مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن﴾[٢] وقال -عليه السلام- عن الجنة ونعيمها فيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. فإذا كان وصف الجنة هكذا فمن أين سنأتي بألفاظ للتعبير عن ما لم تره عين ولم تسمعه أذن ولم يخطر على قلب؛ لأنّ اللغة تضع الألفاظ لمعان شُخصت وحُددت في النفس[٣] ؛ ولهذا قال تعالى في الآية السابقة {مثل الجنة} ولم يقل هذه الجنة نفسها.

وكذلك استدل أنّ دلالة (ألم تر) في القرآن تعني باستمرار "ألم تعلم" أمّا سبب العدول عن استعمال (تعلم) إلى (ترى) لأنّ وسائل العلم عند البشر تعتمد على ادراك الأمور المُحَسّة أولاً ثم يأتي بعد ذلك ادراك المعقولات؛ ولهذا قال تعالى ﴿والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لاتعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون﴾[٤] فوسائل الادراك بالنسبة للبشر هكذا، أمّا عند الحق -سبحانه وتعالى- فالأمر مختلف ولهذا فالعلم الذي يقوله الله -سبحانه وتعالى- ويخبرنا عنه -وإن كان غيباً- يجب أن نستقبله من الله -سبحانه وتعالى- بأقوى وسائل الادراك وهو العين، فكأننا نشاهده مشاهدتنا له بالعين؛ ولهذا قال تعالى ﴿ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل﴾[٥] خطاباً للرسول -عليه السلام- مع أنه لم

---

(١) محيي الدين حسن القضماني، ١٩٩٠، مصطلحات اسلامية، ط١، المكتب الاسلامي، بيروت، ٣٤-٣٨، ٦٧-٧٠.

(٢) السورة محمد ، الآية ١٥.

(٣) محمد متولي شعراوي، المنتخب من تفسير القرآن، ٢٨٧-٢٨٩ ومعجزة القرآن، ٢/٣٧٦-٣٧٩.

(٤) السورة النحل، الآية ٧٨.

(٥) السورة الفيل، الآية ١.

يشاهد تلك الحادثة؛ لأنه وُلد عام الفيل، ولكن إخبار الله تعالى أقوى من رؤية العين[١] ؛ ولهذا فإذا أخبرنا الحق -سبحانه وتعالى- عن أمر غيبي فعلينا استقبال الخبر كأننا نشاهده.

كما أنه -سبحانه وتعالى- كان يُجري عذاباً دنيوياً على بعض المشركين في دنيانا المحسوسة؛ ليكون في ذلك دليل على أنه -سبحانه وتعالى- قادر على انفاذ ما أخبرنا به يوم القيامة[٢] خشية أن ينكر حدوث ذلك بعض الذين ران على قلوبهم.

وهو لا يقع أسير المصطلح البلاغي فالذي يهمه بيان وجه البلاغة في سور القرآن الكريم بغض النظر عن اسم المصطلح، فهو يريد ما وراء المصطلح، فقد حلل قوله تعالى ﴿فهو في عيشة راضية﴾[٣] دونما اشارة إلى مصطلح المجاز العقلي، فقد توقف عند ظاهرة الرضى ودلالتها، حيث بيّن أنّ المراد بها أنها عيشة ملازمة للمؤمنين لاتفارقهم والله -سبحانه وتعالى- يريد بثّ الطمأنينة في نفوس المؤمنين بأنّ نعيم الجنة لاينفد على العكس من نعيم الدنيا الزائل[٤] . وهذا ما يقلق الإنسان في الدنيا.

وكذلك حلل مواطن الجمال في قوله تعالى ﴿فبشرهم بعذاب أليم﴾[٥] وقوله تعالى ﴿وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه﴾[٦] وقوله تعالى ﴿فأُمه هاوية﴾[٧] دونما إشارة إلى مصطلح الاستعارة التهكمية، وبيّن أنّ الغرض من مثل هذا الأسلوب أنه يبدأ ببث الأمل في النفس ثم ينتهي بالتيئيس المفجع[٨] امعاناً في تعذيبهم.

وبهذه الطريقة يمكننا الكشف عن مواطن الجمال في النصوص دونما اغراق في استعمال المصطلحات وعدم الاكتفاء بمجرد التمثيل عليها بالآيات القرآنية دونما تحليل لها؛ لأنّ هذا التحليل هو الذي يساهم في تنمية التذوق الأدبي لما في النصوص من بلاغة.

---

(١) محمد متولي شعراوي، المنتخب من تفسير القرآن، ١٠٣.

(٢) السابق، ٨٩-٩٠.

(٣) السورة الحاقة، الآية ٢١.

(٤) محمد متولي شعراوي، المنتخب من تفسير القرآن، ٣١٤، ٣١٧، ٣١٨.

(٥) السورة آل عمران، الآية ٢١.

(٦) السورة الكهف، الآية ٢٩.

(٧) السورة القارعة، الآية ٩.

(٨) محمد متولي شعراوي، المنتخب من تفسير القرآن، ٣٢٠-٣٢٣.

وعندما حلل قوله تعالى ﴿وأمّا من جاءك يسعى، وهو يخشى، فأنت عنه تلهّى﴾[١] بيّن أنّ ابن أم مكتوم جاء مسرعاً على الرغم من أنه ضرير، وفي ذلك اشعار بأنه متعطش للاستماع إلى هذا الدين ومعرفته، وهذا هو المفهوم من كل آية في القرآن ورد فيها لفظ ﴿يسألونك﴾ فالمسلمون هم الذين سألوا ومعنى ذلك أنهم قد تعشقوا هذا المنهج وأخذوا يسألون عن أمور لم يتعرض لها الدين الإسلامي بعد، وكان يكفيهم أن يطبقوا ما جاء به الدين لحين مجيء حكم جديد في أمور دينهم[٢] . على العكس من بني اسرائيل كما سنرى بعد قليل.

وصحح وهماً وقع فيه بعض المفسرين الذين نظروا نظرة سطحية في أمر العتاب الذي وجهه الله -سبحانه وتعالى- للرسول -عليه السلام- عندما أعرض عن ابن أم مكتوم واهتم بصناديد قريش وسادتها أملاً في إسلامهم؛ لما في ذلك من فائدة كبرى للإسلام والمسلمين. فعندما عاتبه الله -سبحانه وتعالى- لم يعاتبه على تقصير قام به، وإنما عاتبه لأنه كلّف نفسه مشقة الاحتيال والاقناع لهؤلاء المشركين وترك مَن جاءه طالباً منه تعليمه أمور الدين. فالعتاب الوارد هنا لصالحه -عليه السلام- فهو ترك الطريق السهل ليسلك الطريق الصعب في اقناع المشركين. والله يريد أن يبين له -عليه السلام- أنه عليه البلاغ فقط، وليس عليه تحميل نفسه فوق طاقتها، وترك أمر هؤلاء لله -سبحانه وتعالى- فالعتاب هنا يرفع من منزلة الرسول -عليه السلام-[٣] والذي يدلنا على ذلك قوله تعالى ﴿وما عليك ألاّ يزّكّى﴾ هكذا ينبغي أن يُفهم العتاب الوارد في هذه السورة، ولا ننسى أنّ السورة بُدئت بقوله تعالى ﴿عبس وتولى﴾ أي بضمير الغائب، حتى لايعرّضه الله-سبحانه وتعالى- إلى ضمير المواجهة فلم يقل (عبست وتوليت)، وفي ذلك لطف في مخاطبته -عليه السلام-.

---

(١) السورة عبس، الآيات ٨-١٠.

(٢) محمد متولي شعراوي، تفسير سورة عبس، ١٢، ١٨ وسيد قطب،في ظلال القرآن، ٢/ ٣١٩.

(٣) السابق، ٢٠، ١١٤.

دراسات تفسيرية متفرقة

تحليل لجزء من أجزاء القرآن

وقد شهد العصر الراهن العديد من الدراسات البلاغية للقرآن الكريم تقوم على تفسير أحد أجزاء القرآن الكريم، أو مجموعة من السور، وتسليط الأضواء على ما فيها من أسرار بلاغية. كما في دراسة الدكتور محمود أحمد نحلة في كتابه "دراسات قرآنية في جزء عمّ" والدكتور عبدالقادر حسين في "أضواء بلاغية على جزء الذاريات" والدكتور شوقي ضيف في "سورة الرحمن وسور قصار عرض ودراسة".

والغريب في الأمر أنّ هؤلاء الباحثين لم يطلقوا على دراستهم عناوين تدل على أنها تفسير للقرآن الكريم. ربما تحرّجاً أو ورعاً؛ لأنّ تفسير القرآن ليس بالأمر الهيّن ولا يُقدم عليه إلا من أُوتي حظاً عظيماً، وهم قد ساروا على طريقة المفسرين -وبخاصة الدكتور عبدالقادر حسين والدكتور شوقي ضيف- حيث كانا يتوقفان عند كل آية من الآيات لبيان دلالتها أو معانيها والاشارة إلى بعض الأوجه النحوية والصرفية والبلاغية الواردة فيها، ولكنهما كانا معتدلين في ذلك حيث تركا بعض تجاوزات المفسرين القدماء الذين كانوا -غالباً ما- ينساقون وراء هذه الأمور، ويستغرق الحديث عنها جزءاً كبيراً من تفسيرهم، وهذا ما تنبه إليه المعاصرون، وعوضوا عن ذلك بالاهتمام بابراز النواحي الفنية والجمالية في الآيات القرآنية وتحليلها -ولكننا لانستطيع أن نسميها- تفاسير بلاغية للقرآن الكريم إذا ما قارناها بدراسة الدكتورة عائشة عبدالرحمن -مثلاً- فعرضهم للنواحي البلاغية الواردة في القرآن جاء في أثناء تفسيرهم للسور.

ومن الأمثلة التي تبين منهجهم في التحليل البلاغي لما ورد في القرآن الكريم: اهتمام الدكتور شوقي ضيف في خلال تفسيره لسورة الرحمن ببيان مفهوم الرحمة في الدين الاسلامي فقد ترددت صفات الرحمة ومشتقاتها في الذكر الحكيم مئات المرات[١] في حين لم يُذكر أنّ الله عزيز ذو انتقام إلا في أربع آيات[٢] .

---

(١) ورد في القرآن الكريم لفظ (رحمة) ٧٩ مرة ورحمته ٢٥ مرة ورحمتنا ٥ مرات ورحمتي مرتين ورحمتك ٣ مرات، والرحمن ٥٧ مرة والرحيم ٩٥ مرة ورحيماً ٢٠ مرة هذا على سبيل المثال فقط. وورد لفظ انتقمنا ٥ مرات وانتقام ٤ مرات ومنتقمون ٣ مرات وينتقم مرة واحدة.

(٢) في سور آل عمران، الآية ٤ والمائدة، الآية ٩٥ وابراهيم، الآية ٤٧. والزمر، الآية ٣٧.

ونوه القرآن مراراً برحمة الله وأنها تعّم الناس وكل ما في الكون جميعا[١] ، وهدفه ابطال دعوى خصوم الاسلام الذين يزعمون أنّ صفات الله في القرآن الكريم تغلب عليها الشدة والقسوة ومحبة الانتقام. والصحيح كما ظهر من الآيات السابقة أنها تغلب عليها الرحمة والرأفة والمودة[٢] بل لاوجه للمقارنة بين رجمة الله بعباده وانتقامه من المشركين المجرمين، ويكفي أنّ القرآن الكريم قد دعا دعوة قوية بعدم اليأس من رحمة الله مهما كانت معصية الإنسان وجنايته بدليل قوله تعالى ﴿قل ياعبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله إنّ الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم﴾[٣] فالله - سبحانه وتعالى - وجه دعاءً شاملاً لجميع عباده ولم يخاطب المؤمنين أو المسلمين فقط ولا ننسى دلالة قوله "جميعاً" في الآية السابقة واختتام الآية بقوله ﴿غفور رحيم﴾ كل ذلك يثبت رحمته بعباده.

مما لاشك فيه أنّ المنهج الذي اتبعه الدكتور شوقي في بحث هذا الموضوع هو المنهج الموضوعي حيث جمع الآيات التي تتحدث عن موضوع واحد ثم نظر فيها وحللها وتوصل إلى النتائج التي ذُكرت سابقاً، جاء ذلك في معرض تفسيره لسورة الرحمن كما أنّ هذا يعني أنّ الباحثين المعاصرين يهتمون ببحث القضايا التي تُثار في وقتنا الحاضر ويردون على من يطعنون في القرآن الكريم أو في هذا الدين، وهذا هو ما ينبغي أن يركز عليه الباحثون في بلاغة القرآن الكريم في وقتنا الحاضر وعدم الاهتمام بقضايا ماعادت تتناسب مع ظروف عصرنا، أو لم تعد موضع اهتمامنا.

أمّا الدكتور عبدالقادر حُسين فقد توقف في أثناء تفسيره لجزء الذاريات عند التعبير بصيغ الأفعال الماضية والمضارعة في القرآن الكريم ومن أمثلة ذلك:

ما ورد في قوله تعالى ﴿وإن يروا آية يُعرضوا ويقولوا سحر مستمر وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر﴾[٤] فقد عبّر في الآية الأولى بالفعل المضارع (إن يروا-

---

(١) السورة الأنعام، الآية ١٢ وفي سورة الأعراف، الآية ١٥٦.

(٢) شوقي ضيف، ١٩٧١، سورة الرحمن وسور قصار: عرض ودراسة، دار المعارف، مصر، ٣٥-٣٦ وعبدالقادر حسين، من علوم القرآن، ١٤٣ .

(٣) السورة الزمر، الآية ٥٣

(٤) السورة القمر، الآيتان ٢-٣.

يعرضوا- يقولوا) وعبّر بالفعل الماضي في الآية الثانية (كذبوا- واتبعوا) وذلك للإشعار بأنّ التكذيب واتباع الهوى من عادتهم القديمة التي اعتادوا عليها وألفوها. وهذه الفئة تكون من أشد المعارضين للدعوات الجديدة لاستغراقها في حب الدنيا وشهواتها، بل هم يزدادون فيما هم فيه. واستنتج الدكتور من الآيات السابقة أنه يجوز عطف الفعل الماضي على المضارع دونما اخلال بالفصاحة(١)؛ لأنّ القرآن الكريم يشكل أفصح كتاب عرفناه. وهو المثل الأعلى لنا.

بينما عبر -سبحانه وتعالى- بصيغة المضارع في قوله ﴿ما ضل صاحبكم وما غوى وما ينطق عن الهوى﴾(٢) لاستمرار نفي النطق عن الهوى. وكذلك يُلحظ أنّ الآية الأولى استعملت صيغة الماضي (ضل وهوى) ثم جاءت صيغة المضارع (ينطق) لبيان أنه -عليه السلام- ماضل قبل البعثة فكيف ينطق الآن عن الهوى بعد البعثة ويضل(٣) .

أمّا استعمال الفعل المضارع في قوله تعالى ﴿إذ يغشى السدرة ما يغشى﴾(٤) فهو لاستحضار صورة غشيان الملائكة لها، فهو غشيان مستمر لاينقطع دائم متجدد، ولم يُذكر فاعل الفعل (يغشى) لافادة التكثير والعموم إذ يغشاها ما لايدركه الوصف(٥) .

ومما سبق ذكره يتضح أنّ التعبير بالفعل المضارع لايكون إلا لغاية بلاغية تتناسب مع السياق الذي يردفيه، وتختلف هذه الغاية من آية لأخرى على الرغم من ورودها في السورة نفسها.

ولكن الدكتور ابراهيم أنيس لايرى في التعبير عن الماضي بلفظ المضارع أو التعبير عن المضارع بلفظ الماضي نكتة بلاغية دعت إليها أحوال المخاطبين، أو اقتضاها

---

(١) عبدالقادر حسين، ١٩٩١، أضواء بلاغية على جزء الذاريات، دار المنار، ٦٩.

وبحث هذه الظاهرة عدد من الباحثين منهم:

محمد أبو موسى، ١٩٧٦، أسرار التعبير القرآني: دراسة تحليلية لسورة الأحزاب، دار الفكر العربي، ٥٠، ٥٦، ٦٦، ٢٧٣.

وفضل حسن عباس في أثناء تفسيره لسورة السجدة في كتابه "البلاغة فنونها وأفنانها" ٥٣٠، ٥٣٢، ٥٣٤.

وسيد قطب في ظلال القرآن ، ٥٤٦/١٢.

(٢) السورة النجم، الآيتان ٢-٣.

(٣) عبدالقادر حسين، أضواء بلاغية، ٥٣.

(٤) السورة النجم، الآية ١٦.

(٥) عبدالقادر حسين، أضواء بلاغية، ٥٣، ومحمد أحمد نحلة، دراسات قرآنية، ١٥٦-١٦٠.

المقام، ويعتبر هذا نوعاً من التعسف وتحميل الكلام ما لايحتمله التأويل، وكان يجدر بالبلاغيين النظر إلى صيغ الأفعال وأساليبها بعيداً عن فكرة الزمن، ثم حلل الآيات القرآنية التي وردت بها هذه الظاهرة على هذا الأساس[١] . ولكن الدكتور إبراهيم أنيس عاد من حيث لايدري إلى آراء البلاغيين والتماسهم النكت البلاغية عندما قال: ويكفي أن نقول: إنه في أسلوب التأكيد يحسن أن نستعمل تلك الصيغة المسمّاة بالماضي في كل الأحداث المستقبلة[٢] كما في قوله تعالى ﴿اقتربت الساعة وانشقّ القمر﴾[٣] فهو في ذلك لم يخرج عن قول البلاغيين إنّ الفعل إذا كان للمستقبل، وعُبّر عنه بلفظ الماضي، كان ذلك لتحقيق وقوعه[٤] .

وفي دراسة الدكتور محمد أبو موسى لسورة الأحزاب قام بدراسة المفردات القرآنية، ووقف عند صور التراكيب مركزاً على مافيها من أسرار بلاغية لتكون هذه الصياغات القرآنية مادة أدبية بين يدي الطلبة للاستفادة منها[٥] ، ولنكون نحن أبناء الجيل المعاصر على صلة بالأسرار البلاغية للقرآن الكريم لتعرف الأسباب التي جعلت العرب آنذاك يسلّمون ببلاغة القرآن ويعجزون عن مجاراته.

وتوقف عند ظاهرة الكلمات التي تُعبّر بحروفها عن معانيها أو الكلمات التي تكون مُصوّرة لمعناها بهيئتها[٦] . كما في قوله تعالى ﴿قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل وإذا لاتمتعون إلا قليلاً﴾[٧] فكلمة فررتم تعبر تعبيراً دقيقاً عن الحركة الحسية التي تصدر عن المذعور في أثناء فراره، وبخاصة هذا التكرير الصوتي الناتج من حركة الراء المشددة[٨] . ومن الألفاظ الأخرى التي يصوّر جرسها لمعناها الطامة والصاخة.

وكذلك في قوله تعالى ﴿أشحّة عليكم فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي يُغشى عليه من الموت فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد أشحة على

---

(١) إبراهيم أنيس، ١٩٦٦، من أسرار اللغة، ط٣، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٥٤-١٥٦.

(٢) السابق، ١٥٨.

(٣) السورة القمر، الآية ١.

(٤) عبدالقادر حسين، فن البلاغة، ٢٩٤.

(٥) محمد أبو موسى، مقدمة من أسرار التعبير القرآني.

(٦) وقد تحدث عن هذه الظاهرة محمود أحمد نحلة في كتابه "لغة القرآن الكريم في جزء عم، ٣٤٦-٣٥٣.

(٧) السورة الأحزاب، الآية ١٦.

(٨) محمد أبو موسى، من أسرار التعبير القرآني، ٦٦.

الخير أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم وكان ذلك على الله يسيراً﴾[١] فكلمة تدور تصور بدقة متناهية حركة أعينهم في أثناء دورانها ولنا أن نتخيل حركة هذه العيون في حركتها الدائبة ودلالة الفعل المضارع (تدور) زادت في قوة تصوير المعنى[٢] وتبرز قيمة هذه اللفظة لو قارناها بمرادفاتها من الألفاظ التي تحمل المعنى نفسه.

وتوقف عند الضمائر الواردة في الآية السابقة إذ ورد الخطاب بصيغة المفرد في قوله (إليك) لأنّ المعنى أنّ الرسول -عليه السلام- مأمن المستغيث وملجأ الخائف لذلك هم يلجأون إليه عند اشتداد الخطب، ثم تحوّل الخطاب إلى صيغة الجمع في قوله (سلقوكم) تكريماً له -عليه السلام- حتى لايتسلط هذا الفعل (السلق) قصداً إليه، وفيه اشارة إلى أنّ ذمهم لن ينال منه، وأنهم لم يجرؤا أن يفردوه-عليه السلام- بالعيب والشتم لمهابتهم له[٣].

ثم تطرق إلى عدد من القضايا البلاغية القرآنية من مثل: الوحدة الموضوعية في السورة القرآنية، وبراعة الاستهلال والخاتمة، والتجديد اللفظي القرآني والعطف... الخ مما سأعرض له بعد قليل في النوع الثاني من الدراسات التفسيرية.

تحليل لسورة من سور القرآن

أما النوع الثاني من هذه الدراسات فكان يتمثل في تحليل سورة واحدة من سور القرآن الكريم كما في الدراسات التالية:

تأملات محمد حسن باجودة في عدة سور قرآنية[٤] ، وتفسير الدكتور أحمد ماهر البقري لعدة سور قرآنية[٥] ، والحديث عن النظم القرآني في سورة الرعد[٦] ، وتفاسير الدكتور عبدالله محمود شحاته لبعض السور في القرآن الكريم[٧] .

وقد قام بعض الباحثين بتحليل إحدى سور القرآن الكريم في أثناء حديثهم عن بلاغة القرآن الكريم[٨] .

---

(١) السورة الأحزاب، الآية ١٩.

(٢) محمد أبو موسى، من أسرار التعبير القرآني، ٧٩.

(٣) السابق، ٨١.

(٤) منها: سور الحاقة ويس ومحمد.

(٥) قام بتفسير سور الكهف والنور والرحمن والانسان والجن.

(٦) محمد بن سعد الدبل، وعبدالرحمن حسن حبنكة الميداني.

(٧) منها: سورتا الاسراء والتوبة.

(٨) قام كل من أحمد نوفل، وفضل حسن عباس وأحمد بدوي وعبدالقادر حسين بتحليل سور: يوسف والسجدة والمزمل والحجرات.

وكان هدفهم النظر في بلاغة السور التي قاموا بتحليلها ودراستها، وفيما يلي استعراض لبعض النواحي البلاغية التي توقفوا عندها والمناهج التي اتبعوها لابراز مواطن الجمال في النص القرآني.

قام محمد بن سعد الدبل في أثناء تحليله لسورة الرعد بدراسة الحروف والألفاظ والتراكيب والمعاني، وهذه بمجموعها تكوّن النظم القرآني في كل سورة من سور القرآن الكريم؛ ولهذا أطال الوقوف عند اللبنات الأولى في النص القرآني؛ وتبيّن مدى الاصابة في اختيار الكلمات بعينها في الآيات القرآنية بدلاً من مرادفاتها[١] ، ومن أمثلة ذلك:

ورود لفظ (رفع) في قوله تعالى ﴿الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش﴾[٢] بدلاً من سمك أو بنى أو أسس التي تفيد المعنى نفسه. وورد لفظ (بنى) في قوله تعالى ﴿أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها﴾[٣] وكذلك هناك فرق في الآيتين حيث ورد في الآية الأولى (ترونها) وفي الثانية (أفلم ينظروا) لاشك أن لكل منهما دلالة خاصة تتناسب مع السياق الذي وردت فيه.

ولو تتبعنا لفظي (رفع–بنى) في القرآن الكريم لوجدنا أنّ لفظ رفع ورد في القرآن للتعبير عن ارتفاع السماء أربع مرات فقط[٤] ، بينما ورد اللفظ (بنى) للتعبير عن بناء السماء خمس مرات[٥] بصيغة الفعل، ومرتين بصيغة المصدر (بناء)[٦] والطريف في الأمر أنّ اللفظين وردا معاً في قوله تعالى ﴿أأنتم أشد خلقاً أم السماء بناها رفع سمكها فسواها﴾[٧] ففي كل آية تمّ اختيار اللفظة المناسبة للسياق الذي وردت فيه، وقد نعجز أحياناً عن ادراك السر الكامن وراء اختيار لفظة على أخرى، لكنه النظم القرآني الذي يستقر فيه كل لفظ في موقعه ولا يستقيم أن نضع مرادفه مكانه، كما أنّ للسياق الذي يرد فيه اللفظ دوراً في تخيّر لفظة بدلاً من أخرى.

---

(١) محمد سعد الدبل، ١٩٨١، النظم القرآني في سورة الرعد، عالم الكتب ودار النصر للطباعة الاسلامية، ٦٨–٦٩، ٧٠–٧١.

(٢) السورة الرعد، الآية ٢.

(٣) السورة ق، الآية ٦.

(٤) السورة النازعات، الآية ٢٨ وفي سورة الرحمن، الآية ٧ وفي سورة الغاشية، الآية ٢٨ وفي سورة الرعد، الآية ٢.

(٥) السورة السابقة، الآية ٢٧ وفي سورة ق، الآية ٦ وفي سورة الشمس، الآية ٥ وفي سورة النبأ، الآية ١٢ وفي سورة الذاريات، الآية ٤٧.

(٦) السورة البقرة، الآية ٢٢ وفي سورة غافر، الآية ٦٤.

(٧) السورة النازعات، الآيتان ٢٧–٢٨.

أمّا الدكتور حسن محمد باجودة فقد حلل عدة سور قرآنية تحليلاً بلاغياً وطريقته تقوم على تحديد القضية المركزية التي تتناولها السورة، ثم تقسيم السورة إلى أقسام حسب الأفكار التي وردت فيها. ويحاول باستمرار التعرف على الرابط الذي يربط بين هذه الأقسام بحيث تبدو الوحدة الموضوعية مسيطرة على السورة، ثم كان يتوقف عند مواطن الجمال الواردة في الآيات القرآنية وسنأخذ تأمله لما ورد في سورة الحاقة نموذجاً لمنهجه.

لفت انتباهه الاستعمال القرآني للفظي جاء وأتى حيث لاحظ بعد تأمله للاستعمال القرآني (جاء) ومتعلقاتها أنها لاتستعمل إلا للدلالة على القرب الزماني والمكاني[١] والنفسي[٢] . وعندما تجتمع الكلمتان (أتى) و(جاء) في آية واحدة فإن دلالة (أتى) تدل على البعد و(جاء) تدل على القرب[٣] . وهذا يؤكد ما قالته الدكتورة عائشة عبدالرحمن إنّ الألفاظ المترادفة في القرآن لاتحل الواحدة مكان الأخرى.

ومن مظاهر الاعجاز في القرآن الكريم التي تتضح عند قراءتنا للآيات التي تحدثت عن نصيب قومي ثمود وعاد من العقاب، حيث يتناسب حجم الكلام مع طبيعة العقاب الذي نزل بكل منهما ولمّا كانت وسيلة اهلاك ثمود الصيحة الواحدة جاء قوله تعالى ﴿فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية﴾[٤] في آية واحدة معبرّة عما حدث لهم، والطاغية تعني الصيحة المجاوزة لكل حد. وتشير الآية إلى أنّ العذاب كان خاطفاً، فإذا ما انتقلنا إلى اهلاك عاد نلاحظ أنّ الآيات القرآنية قد طالت وهي تتحدث عنه وذلك لأنّ اهلاكهم امتدّ سبع ليال وثمانية أيام، فقد قال تعالى ﴿وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية سخرّها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم اعجاز نخل خاوية فهل

---

(١) السورة المنافقون، الآية ١ وفي سورة يونس، ٢٢ وفي سورة النساء، الآية ٤١.

(٢) السورة الصافات، الآيتان ٨٣، ٨٤ وفي سورة ق، الآية ٣٣.

(٣) السورة الأعراف، الآيتان ١٢٨-١٢٩ وفي سورة الفرقان، الآية ٣٣ وفي سورة الاسراء، الآية ٨١ وفي سورة مريم، الآية ٢٧ وفي سورة الحجر، الآيات ٦١-٦٤.

ولمزيد من التفاصيل ينظر محمدحسن باجودة، ١٩٨٢، تأملات في سورة الحاقة، دار بوسلامة للطباعة والنشر والتوزيع ٤٩-٦٠.

(٤) السورة الحاقة، الآية ٥.

ترى لهم من باقية﴾[١] . وتوقف عند دلالة الألفاظ التالية: ريح، صرصر، عاتية، حسوما، سخرها، اعجاز نخل، لبيان مظاهر البلاغة في استعمالها[٢] وقد ساهمت كل كلمة في القاء ظلالها لتقريب المعنى لذهن القارئ. ويجعله يتصور ماذا حدث لتلك الأقوام.

أمّا الدكتور فضل حسن عباس فقد ركز في تحليله لسورة السجدة على الالتفات وبيان الغاية البلاغية من اللجوء إليه. وفي البداية بيّن أنّ للالتفات هدفين: هدفاً عاماً يتمثل في لفت نظر السامع وايقاظه لأنّ الانتقال من أسلوب إلى أسلوب يدفع السأم عن القارئ ويجدد نشاطه للاستماع إلى ما سيُلقى إليه. وهذا الهدف العام نجده في كل التفات. أمّا الهدف الخاص فهو يختلف باختلاف المواضع التي يأتي بها، ويتناسب مع السياق الذي يرد فيه، فقد يكون الانتقال من الغيبة إلى الخطاب أشد تبكيتاً وألزم للحجة، وقد يكون الالتفات من الخطاب إلى الغيبة أكثر تأثيراً؛ لأنّ فيه اعراضاً كما أنّ الاشاحة بالوجه تكون تعبيراً عن الاستياء[٣] . ومن الأمثلة على ذلك ما ورد في قوله تعالى ﴿أم يقولون افتراه بل هو الحق من ربك لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يهتدون ا لله الذي خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش مالكم من دونه من ولي ولا شفيع أفلا تتذكرون﴾[٤] . يُلحظ (أم يقولون) و (ما أتاهم) إلى (مالكم من دونه) والغرض من هذا الالتفات اقامة الحجة عليهم؛ لأنّ المخاطب يمكن أن يرد ما يُوجه إليه من تبكيت واعتراض أمّا الغائب فلا يستطيع ذلك[٥].

ولاحظ أنّ الآيات القرآنية التي تبيّن صفات من يتصف بالايمان كانت تُعبّر بالجملة الاسمية في السور التي نزلت في المدينة المنورة[٦] ، بينما كان التعبير في هذه السورة بالفعل المضارع في قوله تعالى ﴿إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذُكّروا بها خروا سجّدا وسبّحوا بحمد ربهم وهم لايستكبرون﴾[٧] لأنّ هذه السورة مكية، ومعرفتنا أماكن نزول الآيات تساعد في فهم السر البلاغي وراء الاختلاف في التعبير بين (إنما المؤمنون) و"إنما

---

(١) السورة الحاقة ، الآيات ٦-٨.

(٢) محمد حسن باجودة، تأملات في سورة الحاقة، ٣٥-٤٦.

(٣) فضل حسن عباس، البلاغة فنونها وأفنانها، ٥٣٠.

(٤) السورة السجدة، الآيات ٣-٤، ٩-١١.

(٥) فضل حسن عباس، البلاغة فنونها وأفنانها، ٥٢٨، ٥٣٠.

(٦) السورة الأنفال، الآية ٢ وفي سورة النور، الآية ٦٢ وفي سورة الحجرات، الآية ١١٥.

(٧) السورة السجدة، الآية ١٥.

يؤمن" فالآيات الأولى نزلت في مجتمع مؤمن، وقد استقر الايمان في النفوس، أما في سورة السجدة فالمؤمنون قلة وسط مجتمع غير مؤمن، وما زال الناس يدخلون في الدين الاسلامي، وفي استعماله أسلوب القصر (إنما) مع الفعل المضارع بشارة للمؤمنين بطريق غير مباشر إلى تحقيق الإيمان فيما بعد[١] . وهذه الدقة في التعبير لايمكن أن يلحظها ويحللها إلا التفسير البلاغي الذي يتوقف عند كل لفظة وردت في القرآن الكريم ليحللها، مبرزاً مواطن الجمال فيها.

(١) فضل حسن عباس، البلاغة فنونها وأفنانها، ٥٣٢-٥٣٣.

ظواهر قرآنية والمفسرون المعاصرون

وبعد أن عرضت لبعض المناهج والأساليب التي اتبعها البلاغيون المعاصرون في أثناء تحليلهم لمظاهر الاعجاز في القرآن الكريم، يهمنا التعرض لبعض الظواهر التي وردت في القرآن الكريم، وكانت موضع بحث ودراسة من قبل المفسرين القدماء؛ لنرى كيف عرضها البلاغيون المعاصرون، لمعرفة مقدار التطور الذي طرأ في عصرنا على دراستنا للقرآن الكريم، مستفيدين من أحدث ما توصل إليه الباحثون في علم اللغة والبلاغة من أفكار ودراسات.

ومن هذه الظواهر القرآنية التي كانت موضع اهتمام وبحث من قبل الباحثين المعاصرين:

التناسب في القرآن الكريم*

وهذه القضية لم تنل حظها من الدراسة والاهتمام من قبل المفسرين القدماء بالقياس إلى أهميتها؛ لأنّ علم المناسبة فن عزيز، لدقته واحتياجه إلى تأمل وتدبر(١) لادراك أسراره. ومن أوائل الذين تعرضوا له في عصرنا أبو الفضل عبدالله محمد الحسني، وقد حدثنا عن أربعة أنواع من التناسب متوفرة في القرآن الكريم، وهي: التناسب بين سورتين في موضوعهما مثلما نجد ذلك في سور: البقرة وآل عمران والنساء والمائدة(٢) على الرغم من تباعد فترات النزول.

والتناسب بين فاتحة السورة وفاتحة التي قبلها كما في فواتح الحواميم(٣) . التي افتتحت بالحديث عن القرآن الكريم ومزاياه والانتصار له.

---

* بحث هذه الظاهرة عدد من المعاصرين منهم:

عبدالله محمود شحاته، ١٩٨٢، تفسير سورة النور، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢١ وعبدالمتعال الصعيدي، ١٩٩٢، النظم الفني في القرآن الكريم، مكتبة الآداب القاهرة، ٦٣، ٦٤، ٨٩، ٩٠، ١٥٦، ١٨٣، وعبدالوهاب أبو صفية الحارثي، ١٩٨٩، معالم النصر في سورة الحشر، ط١، عمان، ٦٩-٧١ .

(١) جواهر البيان في تناسب سور القرآن، ١٣٨٥هـ، مكتبة القاهرة، ١٤.

(٢) السابق، ٢٦.

(٣) السابق، ١٦.

والتناسب بين فاتحة السورة وخاتمة ما قبلها[١] ، كما في سور: النجم والطور وقريش والفيل. وأخيراً مناسبة فاتحة السورة لخاتمتها[٢] كما في سور: البقرة والحج وإبراهيم.

وتحدث عن سورة الفاتحة وعن سر ابتداء القرآن بها من حيث الترتيب؛ لأنها اشتملت على مجمل ما فصّله القرآن الكريم؛ ولهذا لو وضعنا الفاتحة بجانب أي سورة من سور القرآن لناسبتها بوجه من الوجوه[٣] ؛ لأننا نجد في السور التالية للفاتحة تفصيلاً لما ورد فيها، وهذا مظهر من مظاهر الاعجاز في القرآن الكريم ولهذا يمكننا اعتبار الفاتحة بمثابة المقدمة للقرآن الكريم.

وتكاد تماثلها بهذه الميزة سورة العلق –وهي أول آيات القرآن نزولاً– وهي جديرة أن تُسمى عنوان القرآن الكريم؛ لأنّ عنوان الكتاب يجمع مقاصده، بعبارة وجيزة في أوله[٤] . وهذه الآية تُبيّن أهمية القراءة وطلب العلم في هذا الدين.

وميزة هذا الكتاب أنه من أوائل الكتب التي بحثت في هذه الظاهرة في العصر الحاضر؛ ولهذا يُحمد له فضل التنبه لهذا الموضوع، وفتح الطريق لمن جاء بعده من الباحثين الذين بنوا على ما قاله وطوروه في دراساتهم البلاغية، ولا أدري لماذا لم يذكر عبدالمتعال الصعيدي اسم هذا الكتاب ضمن الكتب التي بحثت في هذا الموضوع عندما تحدث عنها في مقدمة كتابه "النظم الفني في القرآن".

واهتم بهذه القضية عبدالمتعال الصعيدي وخصص كتاباً لبحثها، حاول فيه الكشف عن الأسرار الكامنة وراء مجيء سور القرآن الكريم مرتبة بطريقة تغاير ترتيب نزولها، وهذا سر آخر من أسرار اعجاز القرآن الكريم، حيث وجد رابطاً قوياً بين السورة وما يليها من السور، على الرغم من نزول بعض السور في بداية البعثة النبوية وبعضها الآخر في نهايتها. وقسم نزل في مكة المكرمة وآخر في المدينة المنورة، لابل إنّ سورة

---

(١) أبو الفضل عبدالله محمد الحسني، جواهر البيان في تناسب القرآن، ١٦ وعبدالمتعال الصعيدي، النظم الفني، ١٢٨.

(٢) السابق، ٢٤، ٢٧، ٤٥، ٦٦ والسابق، ٩٨، ٩٩، ١١١، ١٤٤ ومصطفى الصاوي الجويني ، جماليات المضمون والشكل، ١٢٩.

(٣) السابق، ١٩ والسابق، ٤٣.

ومحمد محمود حجازي، ١٩٧٠، الوحدة الموضوعية في القرآن، دار الكتب الحديثة، ١٦.

(٤) أبو الفضل عبدالله محمد الحسني، جواهر البيان في تناسب سور القرآن، ١٥٠–١٥١.

البقرة استغرق نزولها عشر سنين، ومع ذلك لايلحظ القارئ أي انقاطع أو اختلاف بين آيات السورة.

وقد يكون الرابط بين السورة وما يليها واضحاً جلياً بحيث تبدو السورة الثانية وكأنها متممة لما سبقها من السور[١] ، وقد يدق هذا الرابط ويغمض بحيث يحتاج إلى تمعّن وتأمل عند دراسة السورتين المتتاليتين لادراك الصلة بينهما[٢] ، وأحيانا قد يصعب ادراك سر الترتيب في السورة نفسها كما في أوائل سورتي الإسراء وطه وما يليها من آيات، فالمناسبة بينهما دقيقة جداً وبحاجة إلى تأمل لادراكها[٣] . وهذا يتطلب من الباحث التمعن في النص جيداً؛ ليستطيع بيان وجه الارتباط بين الآيات بشرط عدم التعسّف في أحكامه أو يتكلف في أقواله، ولا ضير بالاكتفاء بما فتحه الله عليه في بعض السور والآيات، والاقرار أنه لم يدرك السر في بعضها الآخر، لعل باحثاً آخر يفتح الله عليه فيتوصل إلى ما عجز عنه الباحث الأول فالبحث العلمي يكمل بعضه بعضاً.

وفي نهاية دراسته دعا عبدالمتعال الصعيدي إلى ضرورة ظهور المصحف المُبوّب الذي يعتمد في ترتيبه على بيان الأقسام التي تنقسم إليها السور من حيث أغراضها، وتبوّب كما تُبوّب الكتب الوضعية؛ ليعرف القارئ الغرض المقصود من كل سورة من سور القرآن الكريم ويعرف حدود أقسامها، بحيث تبدو السور متسقة المعاني منتظمة المباني[٤] ؛ ليسهل على القارئ ادراك الصلة بين السور في القرآن الكريم. وكأنه يريد القول علينا إبقاء القرآن الكريم في بؤرة اهتمامنا عن طريق التجديد في طريقة عرضه ، مستنداً إلى ما فعله أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب -رضي الله عنه- عندما أمرا بجمع القرآن الكريم ومن ثم نسخه في المصحف مع العلم بأن هذا الشيء لم يحدث من قبل وهما قاما بذلك عندما شعرا بالحاجة الماسة إلى القيام بمثل هذا العمل الجليل، وكذلك الأمر بالنسبة إلى وضع التنقيط والتشكيل في القرآن الكريم، وبذلك يكون السلف قد سنّوا لنا سُنّة صالحة في تجديد المصاحف كلما دعا داع إلى تجديدها[٥] . فما أحرانا ونحن

---

(١) كما في سور الكهف ومريم وطه، وسورتي الأنفال والتوبة، والمائدة والانعام، ومريم وآل عمران، ويوسف والرعد.

(٢) كما في سورتي الروم ولقمان وينظر أحمد بدوي، من بلاغة القرآن. ٢٣٢.

(٣) محمد محمود حجازي، الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم. ٢١-٢٢.

(٤) عبدالمتعال الصعيدي، النظم الفني في القرآن، ٣٧٨.

(٥) السابق، ٣٧٨.

نعيش في هذا العصر الذي ابتعد فيه الناس عن منابع هذا الدين وفسدت ملكاتهم اللغوية، من ابقاء صلتهم قوية بالقرآن الكريم فلا بد من مثل هذه المحاولات الجرينة من حين لآخر، وبخاصة إذا علمنا أنها لاتتعارض مع الدين الإسلامي، ولا تلغي ما هو موجود من نسخ القرآن الكريم.

ومن الباحثين المعاصرين الذين اهتموا بهذه الظاهرة الدكتور مصطفى الجويني الذي حدثنا عن التناسب بين خاتمة سورة الفيل ومقدمة سورة قريش على الرغم من وجود تسع سور نزلت بينهما، فقد انتهت السورة الأولى بالحديث عن اهلاك أهل الحبشة عندما أرادوا تدمير الكعبة؛ ليتوفر الأمان النفسي والاقتصادي لأهل مكة؛ لأنه لو تمكّن أبرهة من هدم الكعبة لسقطت مهابة قريش في الجزيرة العربية(١) ؛ ولهذا بدأت سورة قريش بلام التعليل وكأن المعنى فجعلهم كعصف مأكول لايلاف قريش.

أمّا سر مجيء سورة الهمزة قبل سورة الفيل؛ فلأنّ الله -سبحانه وتعالى- لما توعّد المشركين بالعذاب يوم القيامة. أراد أن يذكّرهم بمثل حي على قدرته -سبحانه وتعالى- تمثّل ذلك في اهلاكه لأهل الحبشة بهذه الطريقة المعجزة، فهو قادر على ايقاع العذاب بهم يوم القيامة(٢) ، وتنفيذ ما توعّدهم به في قوله تعالى ﴿وما أدراك ما الحطمة نار الله الموقدة التي تطّلع على الأفئدة إنها عليهم مُؤصدة في عمد مُمدّدة﴾(٣) .

ثم حدثنا عن سر مجيء سورة الكوثر بعد سورة الماعون التي خُتمت بالحديث عن المرائين الذين يمنعون الماعون، وبدأت الكوثر بالحديث عن العطاء، ثم أمر الرسول -عليه السلام- بالنحر مقابلة للمصلي المرائي المانع للماعون(٤) ، فالأولى تتحدث عن إنسان مادي بعيد عن الإنسانية، والثانية تتحدث عن أشرف إنسان "أكرم خلق الله"(٥) فالتناسب هنا بالتضاد، والأمر نفسه يقال في مقدمة سورة (المؤمنون) التي تتحدث عن فلاح المؤمنين وخُتمت بالحديث عن نفي الفلاح عن الكافرين.

---

(١) مصطفى الصاوي الجويني، جماليات المضمون والشكل ١٢٨ ومحمد متولي شعراوي، المنتخب من تفسير القرآن، ١٢٨-١٢٩.

(٢) محمد متولي شعراوي، المنتخب من تفسير القرآن ، ٩٠-٩١.

(٣) السورة الهمزة، الآيات ٥-٩.

(٤) مصطفى الصاوي الجويني، جماليات المضمون والشكل، ١٢٩.

(٥) محمد محمود حجازي، الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم، ١٣-١٥.

أمّا الدكتور محمد بدري عبدالجليل فقد بحث في فنيّة الأسماء الواردة في القرآن الكريم، وبخاصة أسماء الأنبياء والرسل-عليهم السلام- وهو يعتبر ما قام به استدراكاً لما أغفله القدماء. الذين أهملوا هذا الموضوع وركزوا في أحاديثهم على الحروف في فواتح السور[١] .

وبعد بحثه لهذه الظاهرة اتضح له أنّ هناك علاقة قوية بين دلالة اسم النبي أو الرسول والآيات القرآنية التي تحدثت عنه أو القصة التي حدثت معه، ومن أمثلة ذلك: ما قاله عن دلالة يوسف لغة التي تعني الأسف والحزن[٢] ، وكل الأحداث التي حدثت له أو للمحيطين به تحمل هذا الأسف والحزن سواء من أحبه أو من كرهه[٣] . فقد أحبه أبوه ولم يجنِ من حبه سوى الإصابة بالعمى بدليل قوله تعالى ﴿وتولى عنهم وقال يا أسفى على يوسف وابيضّت عيناه من الحزن فهو كظيم﴾[٤] وهو لم يستفد من حب والده إلاّ رميه في البئر ﴿قال قائل منهم لاتقتلوا يوسف وألقوه في غَيَابَة الجُبّ يلتقطه بعض السيّارة إن كنتم فاعلين﴾[٥] وأحبته امرأة العزيز فلم تجني من حبه سوى الفضيحة الكبرى، وعيرتها النسوة فلم ينلن من ذلك إلا تقطيع أيديهن كما حدثتنا الآيات من سورة يوسف[٦] ، وأخيراً معرفة إخوته بأمره بعد أن أصبح مسؤولا عند ملك مصر وشعورهم بالأسف والحزن على ما فعلوا بحقه فقالوا ﴿قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين﴾[٧] ومما سبق ذكره يتضح لنا صحة ما قاله.

وبهذه الطريقة تتبع دلالة أسماء كل من[٨] : يحيى ويونس وسليمان وإبراهيم -عليهم السلام- والأحداث التي حدثت في حياتهم، وأثبت بتحليلها أنّ لها علاقة قوية بدلالة أسمائهم وبهذا يكون قد كشف عن وجه من وجوه الاعجاز القرآني، ولكنه لم يستمر في

---

(١) محمد بدري عبدالجليل، ١٩٨٤، براعة الاستهلال في فواتح القصائد والسور، ط٢، المكتب الإسلامي، ٨٩.

(٢) مختار الصحاح مادة (أسف).

(٣) محمد بدري عبدالجليل، براعة الاستهلال، ٨٢-٨٣.

(٤) السورة يوسف، الآية ٨٤.

(٥) السورة السابقة، الآية ١٠.

(٦) السورة السابقة، الآيتان ٣٠-٣١.

(٧) السورة السابقة، الآية ٩٧.

(٨) محمد بدري عبدالجليل، براعة الاستهلال، ٨٠-٨٦.

تحليله ليشمل بقية أسماء الأنبياء[١] ، واكتفى بذكر دلالة أسمائهم أو اشتقاقها دون محاولة تطبيق ذلك على القصص التي حدثت معهم ومنهم عيسى وموسى والياس وهود -عليهم السلام- متوقعاً من القارئ أن يطبق ذلك على الآيات القرآنية ويحللها بالطريقة نفسها.

الحروف المقطعة في القرآن الكريم

قام الباحثون* المعاصرون باستعراض آراء القدماء التي قيلت لتفسير هذه الحروف وبعضهم كان يكتفي بسردها كما هي، والقسم الآخر كان يناقش ويحلل ويرجح رأياً على رأي، أو قاموا بتوضيح رأي من الآراء التي تبناها أحد القدماء بذكر المزيد من الأدلة المؤيدة لرأيه.

وكان للمفسرين المعاصرين وقفات عند هذه الحروف ومحاولة اكتشاف كنهها، ولكنهم لم يأتوا بجديد عندما قالوا إنها دليل على اعجاز القرآن الكريم، فهذه الحروف هي نفسها الحروف التي يستعملها العرب عندما يكتبون ويقرأون، فما بالهم يعجزون عن فهمها وبيان المقصود بها، ومما لاشك فيه أنّ وجود هذه الحروف دليل على المصدر الرباني للقرآن الكريم، والجديد الذي أتوا به هو في طريقة تحليلهم لهذه الحروف لبيان دلالتها على الاعجاز في القرآن الكريم، لعلهم بذلك يساهمون في اماطة اللثام عن سرها.

ومن الدراسات البلاغية المعاصرة التي تميزت لما فيها من جدة في البحث والتحليل دراسة الدكتورة عائشة عبدالرحمن لقيامها باستعراض الآراء المختلفة التي قيلت لتفسير الحروف المقطعة في فواتح السور ثم صححت خطأ وقع به بعض المفسرين الذين استدركوا على ابن كثير –الذي لاحظ أنّ كل سورة اُفتتحت بهذه الحروف لابد أنّ يُذكر

---

(١) محمد بدري عبدالجليل، براعة الاستهلال، ٧٨-٧٩.

* ينظر على سبيل المثال:

محمد أمين فرشوخ، ١٩٩٠، المدخل إلى علوم القرآن والعلوم الاسلامية، ط١، دار الفكر العربي، بيروت، ٦١.

وعبدالعزيز أمير، ١٩٨٥، تفسير سورة البقرة، ط١، دار الفرقان للنشر والتوزيع، عمان، ومؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩-٢٠.

وأحمد ماهر البقري، ١٩٧١، يوسف في القرآن، مؤسسة الثقافة الجامعية الاسكندرية، ١٢.

وصلاح الدين بسيوني رسلان، القرآن الحكيم رؤية منهجية جديدة، ٢٨٠-٢٨٩ وعبدالقادر حسين، من علوم القرآن، ٢٠١-٢٠٦.

وسيد قطب،في ظلال القرآن، ٣/٥٣٥ و ١٠/٢٨٠ و١٢/٦٩٣ و ١٣/٦٨ و١٦/٤٢٤-٤٢٥.

وصبحي الصالح، ١٩٦٥، مباحث في علوم القرآن، ط٤، دار العلم للملايين، بيروت، ٢٣٤-٢٤٦.

فيها الانتصار للقرآن وبيان اعجازه، وهذا معلوم بالاستقراء، وهو الواقع في تسع وعشرين سورة[١] – لأنّ سور مريم والعنكبوت والروم ليست كذلك على الرغم من أنها افتتحت بالحروف المقطعة، وهي ترى أنّ ما قاله ابن كثير هو الصواب؛ لأنها عندما تأملت هذه السور[٢] وجدت أنها تنتصر للقرآن الكريم، وفيها رد على المشركين وأهل الكتاب الذين كانوا يجادلون الرسول -عليه السلام- كما أنّ ابن كثير لم يشترط أن تكون الآيات التي تنتصر للقرآن تالية للفواتح مباشرة وإنما يطلقه فيجيء في أي موضع من السورة[٣] . وبالتالي لاوجه لاستدراكهم على ابن كثير لأنّ ما قاله هو الصحيح بالنظر إلى ما ورد في القرآن الكريم.

والجديد في تفسيرها لهذه الظاهرة، قيامها باستقراء كامل للسور المفتتحة بالحروف المقطعة، مرتبة على حسب النزول، وكان أولها نزولاً سورة القلم، واللافت اقتران الحرف فيها بالقلم وما يسطرون، والرد على المجادلين في معجزة القرآن، ومجيء حرف النون فيه لفت واضح إلى سر الحرف في البيان المعجز، فهذا الحرف يُقرأ منفرداً ولا يعطي أي معنى أو دلالة ثم يأخذ الحرف موضعه من الكلمة فيتجلى سره الأكبر، ولمّا اشتدّ جدل المشركين حول المعجزة، واتهامهم للرسول -عليه السلام- بأنه شاعر وكاهن تارة، وحيناً آخر بأنه ساحر. وقولهم عن القرآن الكريم إنه أساطير الأولين، فأراد الله -سبحانه وتعالى- دحض مزاعمهم والاحتجاج للمعجزة وسوق العبرة بمن مضى من الأمم الذين لم يؤمنوا فنالهم ما استحقوا من العذاب مما يخفف عن الرسول -عليه السلام- مما يواجهه من المشركين[٤] والشيء المشترك بين هذه السور أنها نزلت في فترات متقاربة، كما تقارب ترتيبها في المصحف[٥] ولكن هذا الكلام غير دقيق فترتيب سورة الأعراف في المصحف مثلا كان السابع وكان ترتيب سورة مريم التاسع عشر وسورة الشعراء السادس والعشرين وسورة (ق) الخمسين، وبعضها كان متتابعاً كسورتي مريم وطه،

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ١٩٨٨، الدار المصرية اللبنانية ، ٣٦/١.

وعائشة عبدالرحمن، الاعجاز البياني، ١٥٨.

(٢) السورة مريم، الآيات ١٦، ٤١، ١٥، ٥٤، ٩٧، ٩٨، وفي سورة العنكبوت، الآيتان ٤٥،٥٢ وفي سورة الروم، الآيتان ٥٨، ٦٠.

(٣) عائشة عبدالرحمن، الاعجاز البياني، ١٥٨.

(٤) السابق، ١٦١.

(٥) السابق، ١٦٧، وهذه السور: هي الأعراف، مريم، طه، الشعراء، النمل، القصص، يس، ص، ق.

وسور الشعراء والنحل والقصص؛ ولهذا كان يجدر بالدكتورة عائشة القول إنّ بعضها كان متقارباً من حيث الترتيب، إضافة إلى أنّ ترتيب القرآن في المصحف ليس له علاقة مباشرة بالترتيب من حيث النزول.

ومن الملفت للنظر أنّ ثلاثاً من هذه السور كانت مبدوءة بحرف واحد (ن، ق، ص) ثم بحرفين(طه، طس، يس) وبثلاثة أحرف (طسم) وبأربعة أحرف (المص) وخمسة (كهيعص) وألفاظ العربية مبنية على مثل هذا العدد من الأحرف التي نزل بها القرآن الكريم، فلفتت إلى أنّ الحروف قد تتألف منها ألفاظ عجماء، فإذا أخذ الحرف موضعه في البيان تجلّى سره[١] . والسور السابقة نزلت في العهد المكي وبخاصة في فترة اشتداد عداء المشركين للرسول-عليه السلام-.

أمّا السور التي نزلت في العهد المدني وافتتحت بالحروف المقطعة فهي سورة البقرة التي حسم فيها القرآن الكريم قضية المعاجزة بهذا التحدي الصادع ﴿وإن كنتم في ريب مما نزّلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين، فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أُعدت للكافرين﴾[٢] وسورتا آل عمران والرعد من أوائل السور المدنية نزولاً[٣] . وبما أن هذه السور جميعاً قد تحدثت عن الاحتجاج للقرآن الكريم والانتصار له والرد على جدل المشركين الذي كان قوياً في العهد المكي ثم بدأ يخفت بالتدريج لاحساسهم بعجزهم عن مجاراة بلاغة القرآن الكريم ولدخول الإسلام صدور عامة المسلمين. وبانتهاء هذه القضية انتهت السور القرآنية التي أُستهلت بالحروف المقطعة.

وقد سلك الدكتور محمد بدري عبد الجليل طريقة جديدة لتفسير هذه الظاهرة تختلف اختلافاً جذرياً عن طريقة الدكتورة عائشة وطريقته تقوم على الربط بين دلالة هذه الحروف لغة ومضمون السور التي وردت فيها. وكان يبحث باستمرار عن القاسم المشترك بين هذه السور مجتمعة؛ ولهذا درس حرف الراء في ست سور ورد في

---

(١) عائشة عبدالرحمن، الاعجاز البياني، ١٦٧.

(٢) السورة البقرة، الآيتان ٢٣-٢٤.

(٣) عائشة عبدالرحمن، الاعجاز البياني، ١٧٨.

مقدمتها[١] . ثم تأملها وحللها تحليلاً فنياً توصل في نهايته إلى وجود علاقة قوية بين دلالة الحرف ومضمون السورة، فمثلاً نجد في سورة يونس -عليه السلام- حديثاً عن البشرى[٢] والنجاة[٣] والبصر[٤] والنظر[٥] ولو تأملنا دلالة هذه الكلمات لغة[٦] لوجدنا أن الشيء المشترك بينها هو دلالتها على الرؤية والتأمل. ودلالة حرف الراء على الرؤية واضحة، وبهذه الطريقة حلل ما ورد في السور التي بدأت بـ (المر) و (الر)، وتوصل في نهاية تحليله إلى أنّ السور التي ورد فيها حرف الراء كانت تتحدث عن الرؤية بشكل عام مع اختصاص كل سورة بغلبة نوع من أنواع الرؤية لانراه في الثانية فسورة يونس فيها رؤية بصرية، وهود فيها رؤية اخبارية، ويوسف فيها رؤية منامية، وإبراهيم فيها التدبر، والحجر فيها الاعتبار، والرعد فيها رؤية قلبية علمية[٧] ذاكراً الآيات القرآنية التي وردت فيها المعاني السابقة.

وهو درس بهذه الطريقة أحد عشر حرفاً من الحروف المقطعة التي افتتحت بها بعض السور التي وردت في القرآن الكريم، وقد لانقبل كل ما قاله. ولكنها محاولة لتفسير وجود هذه الحروف في القرآن الكريم، ولكل مجتهد نصيب.

---

(١) السور: يونس، هود، ابراهيم، الحجر، الرعد.

(٢) السورة يونس، الآيات ٢، ٦٤، ٨٧.

(٣) السورة السابقة، الآيات، ٢٢، ٢٣، ٧٣، ٨٦، ٩٢.

(٤) السورة السابقة، الآيتان ٣١، ٦٧.

(٥) السورة السابقة، الآيات ١٤، ٣٩، ٤٣، ٧٣، ١٠١.

(٦) ابن منظور، لسان العرب مادة بشر ونجا وبصر ونظر ومحمد بدري عبدالجليلي، براعة الاستهلال ، ٢١٢.

(٧) محمد بدري عبدالجليل، براعة الاستهلال، ٢٢٣.

القسم في القرآن الكريم

بحث عدد من الباحثين المعاصرين هذه الظاهرة في أثناء تفسيرهم للقرآن الكريم، ومن الأصوات التي تميزت في بحثها للقسم في القرآن الدكتورة عائشة لأنها أتت بشيء جديد بعد تأملها وتدبرها لهذا الأسلوب وحاولت معرفة السر البلاغي من توظيف القرآن الكريم للقسم، وهذا ما ينبغي أن يركز عليه الباحثون في أثناء تحليلهم للآيات القرآنية، وعدم الاكتفاء بترديد ما قاله القدماء؛ لأنّ هؤلاء قد اجتهدوا وقالوا ما عندهم ضمن امكانات البحث التي كانت متيسرة لهم في عصرهم. وعلينا أن نبني على ما قالوه ثم تستقل شخصيتنا في بحثنا ودراستنا.

وفي بداية بحثها لهذه القضية البلاغية وضعت يدها على بعض أوجه القصور التي لمستها في بحث المفسرين القدماء لهذه القضية منها:

أنهم اعتبروا أنّ الغرض من القسم تعظيم المُقسَم به، دونما نظر إلى خصوصية السورة التي ورد بها. ولو كان الأمر كما قالوا لكان الأجدر أن ترد أسماء الله الحسنى -مثلاً- في القسم، وعدم الاكتفاء بالقسم بمخلوقات الله مثل الليل والنهار والفجر[١] وغير ذلك من مظاهر قدرته-سبحانه وتعالى-.

وهم لم ينتبهوا إلى أنّ القسم في بعض الآيات كان مقيداً ففي قوله تعالى ﴿والضحى والليل إذا سجى﴾[٢] تحدثوا عن عظمة الضياء، وهذا الضياء ليس مقصوراً على وقت الضحى، فالضياء في الظهيرة أقوى، وتحدثوا عن عظمة الليل مطلق الليل ولم ينتبهوا إلى القيد[٣] الوارد في الآية (إذا سجى) وفي الآيات الأخرى منها: إذا عسعس، إذا يغشى، والنجم إذا هوى والنهار إذا تجلّى...الخ.

ولم يحاولوا الربط بين القسم وجوابه، فلم يتوقفوا عند بيان الصلة بين عظمة العاديات وبين كنود الإنسان لربه أو بعثرة القبور في سورة العاديات[٤] .

---

(١) عائشة عبدالرحمن، الاعجاز البياني، ٢٤٤.

(٢) السورة الضحى، الآيتان ١-٢.

(٣) عائشة عبدالرحمن، الاعجاز البياني، ٢٤٥.

(٤) السابق، ٢٤٥.

وما أشارت إليه الدكتورة أمور جديرة بالدراسة والبحث، ولتفسير ظاهرة القسم في القرآن الكريم، قامت -وفقاً لمنهجها في التحليل- باحصاء الآيات التي افتتحت بالقسم، وبعد دراستها دراسة متأنية، اتضح لها أنّ "الواو في هذه الآيات قد خرجت عن أصل معناها اللغوي في القسم للتعظيم إلى معنى بلاغي، هو اللفت بإشارة بالغة إلى حسيات مُدركة لاتحتمل أن تكون موضع جدل ومماراة، توطئة ايضاحية لبيان معنويات يُمارى فيها، أو تقرير غيبيات ليست من الحسيات والمدركات"[١] وهذا ما نلمسه بوضوح عند النظر في سورة الليل -مثلاً- حيث تبدأ السورة باللفت إلى ما هو حي مُدْرك في تفاوت ما بين غشية الليل وتجلي النهار، وخلقه الذكر والإنثى توطئة ايضاحية لبيان تفاوت مماثل في سعي الناس، بين من أعطى واتقى وصدق بالحسنى ومن بخل واستغنى وكذب بالحسنى. ثم تفاوت الثواب والعقاب في الأخرى، بين الأشقى يصلى ناراً تلظى والأتقى الذي يُجنبها بما ابتغى وجه ربه الأعلى ولسوف يرضى، فالذي يسيطر على السورة كلها هو ملحظ التقابل والتفاوت، فعلى نحو ما يتفاوت الليل إذا يغشى بظلماته، والنهار إذا تجلى بنوره، يتفاوت سعي الناس في الدنيا بين ضلال وهدى[٢] . وهذا التفسير يعفينا من التكلف الذي كان يلجأ إليه بعض المفسرين لبيان وجه العظمة في المقسم به، ومن تعدّد الآراء وأحياناً تعارضها التي قيلت لتفسير الغرض من القسم.

ونلمس تواضع العلماء والأدب الجم عند الدكتورة عائشة، فهي تلتمس العذر للمفسرين القدماء الذين فاتهم ادراك هذا الملحظ البياني؛ لأنّ علماء البلاغة قد عرفوا خروج الخبر والاستفهام والأمر والنهي عن معانيها الأولى في أصل اللغة إلى معان بلاغية نصوا عليها في كتبهم، ثم لم يشيروا إلى خروج القسم عن معناه الأول فكان ما كان من اعتساف التأويل للآيات المبدوءة بواو القسم؛ لتظل كما أراد لها علماء البلاغة على أصل معناها اللغوي، لاتخرج عنه إلى معنى بلاغي[٣] ، وعلى الرغم من أنها قد توصلت إلى الرأي السابق بعدما تدبرت الآيات القرآنية، إلا أنها ختمت قولها بـ (الله

---

(١) عائشة عبدالرحمن، الاعجاز البياني، ٢٤٨، والتفسير البياني، ١٥/١.

وجلال أبو زيد هليل، ١٩٩١، ظاهرة الحركة في القرآن الكريم، رسالة دكتوراة، جامعة عين شمس، كلية الألسن، مصر، ٤٣٤.

(٢) عائشة عبدالرحمن، الاعجاز البياني، ٢٤٩ والتفسير البياني، ١٢٤/٢، ١٣٦-١٣٧.

ولمزيد من التفاصيل ينظر السابق، ٢٤٦-٢٥٢ والسابق ١٤/١-٢١، ٩٩/٢-١٣٧.

(٣) السابق، ٢٥٢.

أعلم) وهذا التحرّج لابدّ منه عند النظر في كلام الله خشية أن يتقول الإنسان على القرآن بما ليس فيه.

وعلى الرغم من بذلها لجهدها في تحليل هذه الظاهرة إلا أنها تشعر أنها مازالت بحاجة إلى مزيد من الدراسة والتحليل؛ ولذلك لابد من افرادها ببحث خاص، وهذا ما نوافقها عليه؛ لأنّ الدراسة الموضوعية لهذه الظاهرة تجعلنا نتوصل إلى نتائج هامة في هذا المجال. أما مجرد بحثها في أثناء تفسير السور القرآنية فلا يعطيها حقها من الدراسة. كما يظهر ذلك من خلال حديث حسنين محمد مخلوف عن القسم اذ اكتفى بقول: إنه أسلوب بليغ لتوكيد الكلام إذا ما اقتضاه المقام، وإنّ لله -سبحانه وتعالى- أن يقسم بما شاء، وإذا ما أقسم بمخلوقاته فهو صانعها فكأنه أقسم بنفسه. وحث على التأمل في أقسام القرآن الكريم لمعرفة المناسبة الدقيقة بين القسم وجوابه (المقسم عليه). وهو نوع بديع من وجوه بلاغة القرآن[١] . ونلاحظ أن كلامه السابق كان كلاماً عاماً، ولا نلمس فيه أية خصوصية لمجيء القسم في سورة الضحى أو الليل مثلاً. كما أنه لم يذكر لنا أمثلة تطبيقية؛ لأنّ حديثه جاء في معرض تفسيره للسورة كاملة وليس للحديث عن القسم على وجه الخصوص.

والأمر نفسه يقال عن تحليل الدكتور شوقي ضيف لظاهرة نفي القسم كما في قوله تعالى ﴿فلا أقسم بالخُنَّس الجوار الكُنَّس﴾[٢] الذي اكتفى بذكر تفسيرين لهذه الظاهرة[٣] دونما تحليل لهما أو ترجيح لأحدهما على الآخر؛ لأنّ هدفه الأساسي كان تفسير السورة وليس الحديث عن ظاهرة القسم.

بينما لو قرأنا تحليل محمد متولي شعراوي لهذه الظاهرة لوجدناه أكثر دقة، وأقرب إلى بلاغة القرآن الكريم؛ لأنه قام باستقراء مادة القسم كما وردت في القرآن الكريم فلاحظ أنه سبحانه عندما يقسم لايذكر مادة القسم أبداً* . ولا ترد كلمة (أقسم) في القرآن إلا إذا سبقها حرف النفي (لا) وهذا الأسلوب أسلوب قسم بدليل وجود جواب له

---

(١) حسنين محمد مخلوف، القرآن الكريم ومعه صفوة البيان لمعاني القرآن، دار الفكر، ١٠-١١.

(٢) التكوير، ١٥-١٦.

(٣) شوقي ضيف، سورة الرحمن، ٢٦٥-٢٦٦ وأحمد بدوي، من بلاغة القرآن، ٢٤٠ وعبدالعظيم المطعني، خصائص التعبير القرآني، ٢١٣/١.

* ورد هذا الأسلوب في ١٨ موضعاً في القرآن الكريم. محمد فؤاد عبدالباقي، المعجم المفهرس مادة (قسم)

كما في قوله تعالى ﴿إنه لقول رسول كريم﴾[١] فهو قسم على طريقة النفي[٢] . والمعنى لو كنت مقسماً لأقسمت بالخُنّس والليل والصبح ولكنني لاأقسم ، ومثل هذا الأسلوب لايجيء لخالي الذهن أبداً، بل لمن عنده شبهة الانكار، ونحن بحاجة إلى دحضها ولهذا نؤكد له بالقسم والغرض من هذا القسم اثبات صدق التبليغ عن الله، وبصدق الرسول - عليه السلام -المبلّغ لهذه الرسالة. فالله -سبحانه وتعالى- قد أقسم بالخنس التي تظهر فترة ثم تختفي فهل عدم رؤيتنا لها تعني عدم وجودها؟ فهي موجودة ولكنها لاتقع تحت احساسنا فأعيننا لها طاقة رؤية محددة . إذن عندما يتحدث القرآن الكريم عن أمور غيبية وأحداث مستقبلية فعلينا أن نؤمن بها. وإن كنا لاندرك كيفية حدوثها الآن، ولكنها إذا نُسبت إلى قوة الله- سبحانه وتعالى- أصبح من الممكن أن تحدث[٣]. وبمثل هذا التفسير يمكن لنا بحث الأقسام في القرآن الكريم، مع التركيز على بيان الصلة بين القسم وجوابه.

---

(١) السورة التكوير، الآية ١٩.

(٢) محمد متولي شعراوي، المنتخب من تفسير القرآن ، ٢٥١.

ويوسف خليل، دراسات في القرآن والحديث، مكتبة غريب، القاهرة، ١٠٨-١٠٩.

(٣) محمد متولي شعراوي، معجزة القرآن، ٢/٣٣-٣٥، ٥١ والمنتخب من تفسير القرآن الكريم، ٢٤٣، ٢٥١، ٢٥٣.

ومحمد حسن باجودة، تأملات في سورة الحاقة، ١١٩-١٢٢.

(٣) كمال الدين الطائي، موجز البيان، ١٤٤-١٤٥.

آراء ومآخذ

وعلى الرغم من أهمية هذا التفسير، وقيمته في الكشف عن سر الاعجاز البلاغي في القرآن الكريم، إلا أنّ الباحثين المعاصرين وجهوا انتقادات لهذا التفسير ومن أبرزها:

يرى بعض الباحثين أننا نعيش في عصر فسدت فيه أذواق الناس، وما عاد لدى الجيل الحالي من أبناء المسلمين -إلا من رحم ربي- القدرة على تبيّن مواطن الجمال في النصوص هذا من جهة، ومن جهة ثانية إذا كنا نخاطب الإنسانية جمعاء من خلال القرآن الكريم، وهؤلاء لايعرفون اللغة العربية، فكيف سيفهمون الاعجاز البلاغي في القرآن الكريم؛ لهذا لابد من البحث عن وسائل أخرى أو مناهج أخرى يمكننا من خلالها بيان مواطن الاعجاز في القرآن الكريم.

ومن هؤلاء الباحثين محمد الصادق عرجون الذي يؤمن بأن اعجاز القرآن الكريم يكمن في هدايته، وهذا الاعجاز شامل لكل القرآن الكريم -أي كما يقول دعاة التفسير البلاغي- ولا يختلف من عصر إلى عصر ولا بيئة عن بيئة ولا جيل عن جيل[١] ، وهذا ما كان يردده باستمرار في كتابه، وقد عقد فصلاً كاملاً في كتابه بعنوان "اعجاز القرآن بين الهداية وروعة البيان" وحجته في ذلك أنّ التحدي بالاعجاز اللغوي والبلاغي أمر خاص بالعرب ومن يتقنون العربية، وعرفوا أساليبها، أمّا التحدي بما وراء ذلك من صنوف الهداية التي تضمنها القرآن الكريم، فهو أمر يعم الناس جميعاً؛ ولهذا كانت آيات التحدي الواردة في القرآن الكريم شاملة للتحدي بالبراعة البيانية والبلاغية والتحدي بسائر ضروب الهداية الإلهية في شتى مقاصد الحياة[٢] ، وهو يعتبر أنّ التحدي بالبلاغة والبيان أشبه ما يكون خاص بجيل العرب الذين عاصروا نزول القرآن الكريم وشوفهوا به؛ لأنهم كانوا أقدر على نظم الكلام في صورته البشرية العليا، كما كانوا أقدر على ادراك مواطن الاعجاز في أسلوب الكلام المعجز[٣] . ونحن نتفق معه في أنّ أبناء الجيل الحالي ليسوا بمستوى فصاحة القدماء؛ ولهذا على المفسرين في أثناء تفسيرهم للقرآن الكريم ابراز مواطن الجمال في النص القرآني لفهمه وتذوقه. ولكننا نخالفه في أن مناط التحدي

---

(١) محمد الصادق عرجون، القرآن العظيم، ١٠-١٣، ٤٠، ١٥٤.

(٢) السابق، ١٤١.

(٣) السابق، ١٥٥.

البلاغي يقتصر على الجيل الذي عاصر نزول القرآن الكريم فقط، فالله سبحانه وتعالى تحدى البشر بالقرآن الكريم على مر العصور. وما زال الباحثون يكتشفون المزيد من أسراره البلاغية حتى وإن كان عامة للناس كما وصف.

نعم قد لاتجد في الوقت الحاضر عربياً يسجد عندما يستمع إلى تلاوة إحدى سور القرآن الكريم كما فعل أحد الأعراب عندما استمع إلى قوله تعالى ﴿فلمّا استيئسوا منه خلصوا نجياً قال كبيرهم ألم تعلموا أنّ اباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله ومن قبل مافرطتم في يوسف فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي أو يحكم الله لي وهو خير الحاكمين﴾(١) . ولما سُئل عن ذلك قال : إنما سجدت لبلاغته، واشهد أنّ مخلوقاً لايقدر على مثل هذا(٢) . ولكننا نجد متخصصين في دراسة القرآن الكريم وتفسيره تفسيراً بلاغياً، والواقع الحالي الآن يفرض عليهم مضاعفة جهودهم لاظهار هذا الجانب من الاعجاز القرآني، وتقريبه للأجيال المعاصرة بأفضل صورة ممكنة. وهذا ما نادى به هو أيضاً عندما قال: فعلى العلماء المتعمقين في دراسة النصوص الأدبية، وعلى حذاق الأدباء الجادين في فهم التراث الأدبي وعلى الذين يؤمنون برسالة القرآن الكريم وهدايته أن يفكروا جدياً في لون من الدراسة يمكن به معرفة اعجاز القرآن الكريم اعجازاً بيانياً من الوجهة الفنية المقنعة للعقول والأذواق(٣) ، وقد أحس بذلك سيد قطب عندما قال: "ولكن ماذا أصنع ونحن في جيل لابد أن يُقدّم له القرآن مع الكثير من الايضاح لطبيعته ولمنهجه ولموضوعه كذلك ووجهته، بعدما ابتعد الناس عن الجو الذي تنزل فيه القرآن، وتابع وانني لأدرك الآن – بعمق– حقيقة الفارق بين جيلنا الذي نعيش فيه والجيل الذي تلقى مباشرة هذا القرآن(٤) . ولهذا فالقرآن الكريم مازال بحاجة إلى المزيد من التفاسير البلاغية؛ لأنّ مظاهر الاعجاز القرآني لاتبلى على مرور الأيام، وكلما تأملناه اكتشفنا مزيداً من أسراره البلاغية.

وهذا ماقام به الدكتور أحمد البقري عندما فسّر عدة سور في القرآن الكريم، استمع إليه يقول "وإذا كانت عنايتي قد وجهت إلى البيان في القرآن، فذلك نراه ضرورياً

---

(١) السورة يوسف، الآية ٨٠.

(٢) محمد الصادق عرجون، القرآن العظيم، ١٥٥.

(٣) السابق، ١٥٦-١٥٧.

(٤) سيد قطب، في ظلال القرآن، ٦١/١٣-٦٢، ٦٥.

لتربية الذوق الفني أو البلاغي في الإنسان أو قل ترقية الشعور والإحساس لدى الناس في كتاب الله الكريم"[١] .

وقد بالغ عبد الوهاب الحارثي عندما عدّ التفاسير اللغوية ويقصد بها البلاغية والأدبية، والنحوية والصرفية... الخ للقرآن الكريم قاصرة عن أن تُوصف بالتفسير للقرآن الكريم، وإنما هي لبيان وجه من وجوه هذا التفسير[٢] . ورأى أنّ البديل لذلك يكون بالتفسير عن طريق دلالة السياق الذي ترد به الآية، ثم السياق الذي ترد به السورة كاملة، وليس المقصود بالسياق هنا معرفة معنى المفردات اللغوية أو التراكيب اللغوية، وإنما هو: معرفة الأغراض والمقاصد الأساسية التي تدور عليها جميع معاني القرآن، والاتجاهات العامة الثابتة في القرآن الكريم، ومعرفة الآيات والمواضع التي تتشابه في موضوعها مع اختلاف يسير في طريقة سردها وترتيب كلماتها لمناسبة المقام، ولحكمة بلاغية تتصل بأغراض السورة[٣] . وبعض الباحثين قد يستخدم لفظ المقام، أو مقتضى الحال، أو لفظ التأليف، أو النظم القرآني[٤] للدلالة على معنى السياق عنده. ولا أدري ما الجديد الذي أتى به عبدالوهاب الحارثي في بيانه لأهمية السياق في التفسير فنحن نعرف أنّ أي مفسر لايستطيع أن يفسر النص القرآني دونما تمعّن في السياق الذي ورد به، ويكفي أن نتذكر وصية أمين الخولي لتلاميذه بعدم تناول أي موضوع قرآني أو ظاهرة من ظواهره الأسلوبية دون استيعاب لنظائرها، وتدبر سياقها الخاص في الآية والسورة وسياقها العام في القرآن كله[٥] فهذا نص صريح يبين أهيمة السياق في تفسير النص القرآني ولنسياق دوره الخطير في تحديد دلالة الكلمة، بل قد يصرف معنى الكلمة في الآية من أصل وضعها في اللغة إلى معنى آخر.

وهنا يكمن منشأ الغرابة في بعض الألفاظ كما في قوله تعالى ﴿وآتينا ثمود الناقة مبصرة﴾[٦] فمبصرة هنا تعني الآية الواضحة، ولا علاقة لهذا المعنى بمعناها الأصلي الدال على الإبصار[٧] . فلا أحد يستطيع أن ينكر دور السياق في هذا المجال.

---

(١) أحمد البقري، ١٩٧٦، في رحاب القرآن، مؤسسة شباب الجامعة،الإسكندرية، ٢٢٤-٢٢٥.

(٢) عبدالوهاب الحارثي، دلالة السياق، ١٦.

(٣) السابق، ٨٨-٨٩.

(٤) السابق، ٨٦.

(٥) عائشة عبدالرحمن، الاعجاز البياني، ١١.

(٦) السورة الاسراء، الآية ٥٩.

(٧) مصطفى صادق الرافعي، تاريخ آداب العرب، ٢/ ٥٨ وعبدالوهاب الحارثي، دلالة السياق، ٨٦.

وهو يرى أنّ التفسير القائم على دلالة السياق يساعدنا في فهم الآيات القرآنية، وينجح في إماطة اللثام عن بعض جوانب اعجاز القرآن الكريم، وبخاصة الآيات القرآنية التي تتشابه في موضوعها وتختلف في الترتيب كما في قوله تعالى ﴿وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى﴾[١] وقوله تعالى ﴿وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى﴾[٢] وسبب اختلاف الترتيب مع أنّ المعنى نفسه، عائد للسياق، فالسياق في الآية الأولى يركز على سعي الرجل لأهمية السعي في انقاذ موسى -عليه السلام- من التدبير الذي يكيده فرعون، أمّا في الآية الثانية فكان التركيز على الرجل المؤمن لأهمية موقفه من أهل قريته ودعوة الرسل"[٣] وهذا التوضيح يمكن ادخاله في التفسير البلاغي بسهولة في مبحث التقديم والتأخير. كما أنّ سيد قطب توقف عند هذه النقطة وأبان أنّ التدبر والتمعن في القرآن يساعد المفسر على فهم مضامين القرآن الكريم.

وهذا الاتجاه في التفسير ليس جديداً تماماً، فهو يعتمد على الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم التي يؤمن بها دعاة التفسير الموضوعي والبلاغي؛ لأنّ القرآن يفسر بعضه بعضاً، وهم يدعون إلى ضرورة البقاء في أجواء النص القرآني عند التفسير وعدم الخروج عن اطاره لبحث أمور ثانوية قد تشغل المفسر عن النص القرآني، وعدم تحميل النص القرآني أكثر مما يحتمل، والاعتماد على النص أولاً وأخيراً يكون كابحاً لجماح المفسر خشية أن ينساق وراء تأملاته فينسى دلالة السياق الذي ورد فيه النص.

ومن المآخذ التي وُجهت للتفسير البلاغي للقرآن الكريم: اغفال دُعاة هذا التفسير الحديث عن جوانب الاعجاز الأخرى في القرآن الكريم كالاعجاز في تشريعاته، وأحكامه ومبادئه للحياة الإنسانية[٤] ، وهذه الجوانب لاتقل أهمية عن الاعجاز البلاغي في القرآن الكريم، ولكن التفسير البلاغي لايُعتبر التفسير الوحيد للقرآن الكريم فمظاهر الاعجاز الأخرى لها مفسروها ولهذا يمكننا تجميع ما ورد في مختلف التفاسير لاعطاء أفضل صورة ممكنة عن مدى فهمنا لما ورد في القرآن الكريم فهذه التفاسير تتكامل ولا تتعارض وكل واحد منها يطل على النص القرآني من منظوره الخاص به، واختلاف

---

(١) السورة القصص، الآية ٢٠.

(٢) السورة يس، الآية ٢٠.

(٣) عبدالوهاب الحارثي، دلالة السياق، ٨٩، ولمزيد من التفاصيل ينظر ٨٧، ٩٠، ١٢٧، ١٣٥، ١٣٩، ١٤١.

(٤) مناع القطان، مباحث في علوم القرآن، هامش ٣٨٦.

المفسرين ما هو إلا من باب تنوع الوسائل والانتهاء عند غاية واحدة، فالابتداء يكون من النص القرآني والانتهاء يكون عند تفسير هذا النص؛ ولذلك تتنوع وجهات التفسير، ولكن ميزة التفسير الأدبي للقرآن الكريم تكمن في أنه يبدأ من النص القرآني وينتهي عند غاية واحدة هي تبيان ما في القرآن[١] ؛ ولهذا نعتبر التفسير الأدبي أو البلاغي للقرآن هو الأساس الذي ينبغي أن يعتمد عليه أي مفسر يريد تفسير القرآن الكريم؛ لأنّه يساعد على فهم النص ودلالته؛ لأنّ صلته بالنص القرآني قوية.

وقد أُخذ على هذا التفسير أنه يقوم على طريقة التحليل الأدبي، وهذه الطريقة تعتمد على الذوق الشخصي للمفسر وهذا الأمر يتفاوت من شخص لآخر[٢] ، وبالتالي سيؤدي إلى خضوع النص القرآني لمقاييس المفسر الذاتية وتجربته الفردية، مما يجعلنا نتخوف على النص القرآني أن يناله من التفسير الأدبي ما ناله من التفسير المذهبي والكلامي... الخ فيخضع للأذواق الأدبية كما خضع هناك للتمحكات المذهبية[٣] . ولكن مما يخفف من تأثير هذا التخوف معرفتنا أنّ المفسر يكون حذراً جداً في أثناء تفسيره خشية أن يتقول على كتاب الله بما ليس فيه، وقد عبر عن ذلك سيد قطب عندما قال "كثيراً ما أقف أمام النصوص القرآنية وقفة المتهيب أن أمسها بأسلوبي البشري القاصر المتحرج أن أشوبها بتعبيري البشري الفاني، ومع هذا كله يصيبني رهبة ورعشة كلما تصديت للترجمة عن هذا القرآن"[٤] وقال الدكتور الشحات محمد أبو ستيت "ينبغي أن نؤكد على أنّ المعالجة البلاغية للموضوعات القرآنية تتضاعف صعوبتها من حيث حاجتها إلى التناهي في الدقة والالتزام خشية أن يخط القلم ما تزل به القدم"[٥] فمثل هذا الورع يكون كابحاً للمفسر من الانسياق وراء تأملاته الشخصية. كما أنّه لايقدم على تفسير القرآن إلا من كان جديراً بتفسيره لتمتعه بمجموعة من المزايا تمكنه من تفسير القرآن.

ومن أبرز المآخذ التي وُجّهت إلى طريقة الدكتورة عائشة عبدالرحمن أنها تركز كثيراً على دلالة اللفظ حتى لكأنما الموضوع قد تحول إلى اللفظ الواحد تحشد له طاقاتها،

---

(١) محمد بركات أبو علي، ١٩٨٤، في الأدب والبيان، دار الفكر للنشر والتوزيع،عمان، ٧١.

(٢) مناع القطان، مباحث في علوم القرآن، ٣٨٦.

(٣) جلال أبو زيد،خليل، ظاهرة الحركة في القرآن الكريم، المقدمة.

(٤) سيد قطب، في ظلال القرآن، ٦١/١٣.

(٥) الشحات محمد أبو ستيت، ١٩٩١، خصائص النظم القرآني في قصة إبراهيم عليه السلام، ط١، مطبعة الأمانة، مصر، ٦.

وتضع في خدمته معاجم العربية، وكتب التفسير السابقة، إذ لاسبيل إلى دراسة أي نص في لغة ما دون فقه لألفاظه في لغته، ثم يكون للنص بعد ذلك أن يحدد لكل لفظ دلالته الخاصة من شتى الدلالات المعجمية، أو يضيف إليها ملحظاً ينفرد به[١] . ولا أحد يستطيع لنكار اهمية فهم اللفظ ودلالته؛ لأنه الأساس في بناء الآية القرآنية، ولكن لايجوز جعله الأساس عند تفسير القرآن الكريم كله؛ لأنّ التقصي الدلالي للألفاظ والمفردات قد يحول دون الالتفات إلى جوانب أخرى في النص القرآني، ولا نستطيع كذلك دراسة ألفاظ القرآن كافة بهذه الطريقة؛ لأنّ بعض الفاظ القرآن الكريم لم ترد إلا في موضع واحد فقط.

(١) زياد خليل الدماغين، ١٩٩٥، منهجية البحث في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ط١، دار البشير، عمان، ٣٩.

الفصل الرابع

دراسات للمعاصرين حول

بلاغة القصص القرآني

الفصل الرابع

دراسات للمعاصرين حول القصص القرآني

مقدمة:

ومن الأساليب التي لجأ إليها القرآن الكريم لايصال منهجه وفكره للناس القصص القرآني لما في الأسلوب القصصي من قدرة على الاقناع، وتثبيت المعلومات، والتنويع في الأساليب، وإثارة شوق القارئ، ولكن هذا الأسلوب كان منفذاً نفذ من خلاله بعض الطاعنين في بلاغة القرآن ليشككوا في بلاغته، زاعمين أنّ القرآن الكريم لم يكن واقعياً؛ لأنه لم يكن يسرد القصة كاملة الأحداث محددة الزمان والمكان، ومحددة الشخصيات بأسمائهم وصفاتهم وملامحهم، كما أنّ التكرار الذي كان يرد من حين لآخر في القصص القرآني يدل -برأيهم- على عجز بياني وقصور فني، وهذا جعلهم يتصورون أنّ القرآن الكريم من تأليف محمد -ﷺ- وأنه يُصور الحالات النفسية التي كان يمر بها إلى غير ذلك من المزاعم[1] . والخطورة لاتكمن في أقوال هؤلاء الطاعنين لأننا نعرف دوافعهم ولكن الخطورة تكمن في انسياق بعض الباحثين وراء ما يقولون وأحياناً قد تكون المتابعة لهؤلاء من باب حسن النية. ولكن هذا قد يخدع عامة الناس فيشوه الحقائق أمامهم، وعندئذ يصبح القرآن الكريم موضع شبهه فتهتز ثقة المسلمين بالقرآن الكريم، من هنا كان لابد من التصدي لأمثال هذه الدعوات والرد عليها بالدليل والبرهان مستندين إلى ما ورد في القرآن الكريم نفسه، وهذا ما فعله الباحثون المعاصرون، الذين تصدوا بكل ما أُوتوا من قوة لهؤلاء وبخاصة دراسة الدكتور محمد خلف الله التي أقامت الدنيا ولم تقعدها حين صدورها، وأثارت ضجة كبرى مازالت أصداؤها تتردد حتى يومنا إذ قلما خلا كتاب يتحدث عن القصص القرآني من الإشارة إلى ما ورد في الدراسة السابقة والرد عليها.

والسبب في الضجة الكبرى التي أثارتها دراسة الدكتور محمد خلف الله أنه توصل إلى نتائج كانت مُذهلة وجريئة، تتعارض مع ما شاع بين الباحثين عن القصص القرآني لابل تتعارض مع الغرض من ذكر القصة في القرآن الكريم، وهو لم يقدم على دراسته من باب الطعن على القرآن الكريم، وإنما بدافع الدفاع عن القرآن

---

(١) القصبي محمود زلط، ١٩٧٨، قضايا التكرار في القصص القرآني، ط١، دار الأنصار، مصر، المقدمة.

الكريم، وسد الثغرات على المستشرقين ومن دار في فلكهم الذين يحاولون الطعن في القرآن الكريم[١] ، ولكنه لم يوفق في ذلك، وساهم من حيث لايدري في إثارة المزيد من الطعون.

وإنّ كنت لاأتفق معه في بعض النتائج التي توصل إليها، إلا أنه يُحمد له أن شحذ الهمم والأقلام لبيان بطلان ما توصل إليه، وهذا أثار نشاطاً فكرياً واسعاً؛ لأنه استفز مشاعر هؤلاء الباحثين في أعز مقدساتهم، إذ عادوا للنص القرآني يطيلون النظر فيه يتأملون ويتعمقون في دراسته ثم ألفوا المؤلفات، وكتبوا المقالات العديدة للرد عليه وكما يقولون رب ضارة نافعة.

ويُحمد له كذلك أنه لفت الانتباه إلى أهمية دراسة القرآن الكريم دراسة فنية وأدبية؛ لأنّ هذه الطريقة تساهم في الكشف عن مواطن الجمال في النص القرآني، وعندئذ لامبرر للخوض في تفاصيل القصص القرآني التي سكت عنها القرآن الكريم، لأنه لو كان ذكرها يحقق غاية بلاغية لذكر القرآن هذه التفاصيل، ولكن الدكتور محمد خلف الله انساق وراء المقاييس الفنية وأخذ يطبقها بحرفيتها على النص القرآني ناسياً أنه يختلف اختلافاً جذرياً عن القصص بالمفهوم الأدبي. ومن هنا ينبغي على الباحث أن يكون حذراً ويقظاً عندما يقوم بدراسة القصص القرآني وتحليله تحليلاً فنياً.

وعند المقارنة بين النتائج التي توصل إليها سيد قطب ومحمد خلف الله اللذان تناولا القصص القرآني بطريقة فنية جمالية. يتضح لنا كيف وُفّق سيد قطب في بحثه عندما خصص فصلاً مطولاً في كتابه "التصوير الفني في القرآن" لدراسة القصص القرآني، من الزاوية الفنية البيانية الجمالية؛ لأنّ كتابه يقوم على المنهج الجمالي البياني عند تحليل النص القرآني، ولكنه لم ينسَ -ولو للحظة واحدة- أنه يتعامل مع نص قرآني؛ لهذا كانت نتائجه تساهم في الكشف عن مواطن الجمال في النص القرآني، سواء من خلال حديثه عن مظاهر التنسيق الفني في القصة، والخصائص الفنية للقصة، وفي اطالته الوقوف عند ظاهرة التصوير في القصة، أو في تحليلاته البلاغية الفنية وبأسلوبه الشائق والممتع؛ ولهذا كان حديثه عنها مرجعاً أساسياً لكل باحث في القصة في القرآن الكريم[٢] ؛

---

(١) محمد خلف الله، ١٩٦٥، الفن القصصي في القرآن، ط٢، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ٨-٩، ١٩٠، ٢٢٦-٢٢٧، ٢٣٠، ٣٣٨-٣٣٩.

(٢) سيد قطب، التصوير الفني، ١١٩-١٦٣.

ولهذا فعلى الباحث في الجوانب الفنية للقصص أن يضع نصب عينيه باستمرار أنه يبحث في نص قرآني غرضه ديني بالأساس وإن قُدّم بشكل فني معجز.

وإذا ما بحثنا عن الغرض من وراء توظيف القرآن الكريم للقصة، نلاحظ أنه جاء لتحقيق أهداف تخدم الدعوة لهذا الدين من خلال التنويع في أساليب الدعوة ولخدمة الداعي -عليه السلام- لتثبيت قلبه والتخفيف عنه... الخ ولخدمة المدعويين لهذا الدين أي لأخذ العبرة والعظة مما حدث للأمم السابقة، وهذا هو المفهوم من الآيات القرآنية نفسها[1]، إذن القرآن الكريم ليس رواية فنية أو جاء للتسلية والمتعة كما هو الحال في القصص الأدبي، وفهمنا لهذه الأمور يساهم في الرد على كثير من الطعون التي وُجهت للقصص القرآني.

وعند امعاننا النظر في القصص القرآني نلاحظ أنه يتشابه في بيان وسائل الأنبياء في دعوتهم لأقوامهم، وأنّ استقبال أقوامهم لدعوتهم كان متشابهاً، وتتشابه كذلك في ذكر نهاية المكذبين والعقاب الذي نزل بهم، وفي هذا اثبات لامجال للشك فيه أنّ المصدر الذي صدرت عنه هذه القصص هو الله -سبحانه وتعالى- وليس محمداً -عليه السلام- كما زعم بعض الطاعنين، تتضح هذه الحقيقة من خلال قراءتنا لما ورد في القرآن الكريم[2]، وسأعرض الآن لأهم القضايا التي توقف عندها الباحثون المعاصرون عندما عرضوا للقصص القرآني.

---

(١) ينظر على سبيل المثال: السورة هود، الآيات ٢٥-٢٧، ٥١-٥٥، ٥٧.

(٢) السورة العنكبوت، الآيتان ١٤-١٥.

التكرار في القصص القرآني

وقد شغلت هذه القضية الباحثين قديماً وحديثاً، وأُلفت كتب خاصة لمعالجة هذه الظاهرة، وللرد على أقوال الطاعنين في بلاغة القرآن الكريم، وهذه الظاهرة -كما سيتضح بعد قليل- مظهر من مظاهر بلاغة القرآن؛ لأنّ من خصائص البلاغة، ابراز المعنى الواحد في صور مختلفة، وايراد المعنى الواحد في صور متعددة مع عجز العرب عن الاتيان بصورة مثلها أبلغ في التحدي[١] ، فالتكرار في القصص القرآني لم يكن تكراراً لفظياً، وإنما كان في كل مرة يرد جزء من القصة يتناسب مع موضوع السورة والغرض الذي تسعى لتحقيقه. ومن أين للإنسان العادي -مهما كان بليغاً- بالمقدرة على التفنن في عرض الكلام بصور متعددة ومع ذلك يبقى محتفظاً ببلاغته وفصاحته؟ ونجد في كل مرة أُعيد فيها الحديث شيئاً جديداً لم يُذكر في المرة السابقة.

وإذا ما يممنا نحو علم النفس فإننا نجده يفسر لنا هذه الظاهرة بأننا إذا أردنا توكيد كلامنا لجأنا إلى التكرار، وإذا ما أردنا التأثير في نفوس المستمعين نلجأ إلى التكرار فكيف بالقرآن الكريم، الذي كان يهدف فيما يهدف إليه من توظيف القرآن الكريم للقصص تثبيت أركان العقيدة في النفوس، فلا ضير من التكرار لما له من أثر نفسي وبخاصة عند بحث الأمور الجديدة التي لم تتعود عليها النفوس بعد.

وقد تشعبت آراء الباحثين المعاصرين الذين درسوا هذه الظاهرة، وحاولوا تفسيرها، ومن هؤلاء الباحثين:

أمين الخولي الذي رأى أنّ البلاغيين القدماء لم ينجحوا في الكشف عن الأسرار الجمالية للتكرار في القرآن الكريم عندما قال: "وهذا التكرار في القرآن قال فيه القدماء منذ عهد بعيد ولا يزال يقول فيه المحدثون حتى أمس القريب، ولعل القائلين جميعاً جاءوا هذه المسألة من غير طريقها النفسي الذي هو سبيل الاعجاز الفني في القرآن، فكان كلام كل رجل منهم محتاجاً لكلام من بعده"[٢] . فهو يتبنى المنهج النفسي لتفسير التكرار، والمنهج النفسي يسلط ضوءاً على هذه الظاهرة، ويكشف عن بعض أسرارها، ولكنه ليس

---

(١) عفيف عبدالفتاح طبارة، ١٩٨٢، اليهود في القرآن، ط٩، دار العلم للملايين، بيروت ، ٢٥٥.

(٢) أمين الخولي، مناهج التجديد، ٢٠٥.

صاحب الرأي الفيصل في هذا المجال، ولا ندري ما الضير أن يأتي باحث ثم يتابع ما بدأه باحث آخر، فكل منهما ينظر إلى النص من زاويته، ويكشف ما تيسر له من مظاهر الاعجاز في هذه الظاهرة، فالمناهج يكمّل بعضها بعضاً. وكذلك البحث العلمي يكمّل بعضه بعضاً.

أما محمد خلف الله فقد فسّر هذه الظاهرة كما فسرّها البلاغيون القدماء، أي أنّ التكرار ناشئ عن اختلاف المقامات وتنوع الأغراض، ولكنه يرى أنّ القدماء لو درسوا القصص القرآني على أساس فني أدبي، لعرفوا منذ اللحظة الأولى أنّ الذي عدّوه تكراراً ليس من التكرار في شيء؛ لأنّ هذه المواد التاريخية غير مقصودة من القصص، وأنّ مقاصد القرآن من مواعظ وعبر ومن انذارات وإشارات تختلف في موطن عنها في آخر ولهذا كان الاختلاف؛ لأنّ اختلاف المقاصد يدفع من غير شك إلى اختلاف الصور الأدبية، فمثلاً مقصد القرآن من قصة موسى في سوة طه غيره من قصة موسى في سورة النحل؛ لأنّ من الوجهة الأدبية هذه قصة وتلك أخرى، وعلى هذا فلا تكرار ولا اختلاف ولا تشابه... وقد تقتضي العملية الفنية أخذ عنصر واحد أو عناصر بأعيانها ورسمها من جوانب عديدة، وتصويرها من مواقع مختلفة لتنتج من ذلك رسوم عديدة للشخصية الواحدة، وصور كثيرة للحدث الواحد، بحيث يكون لكل رسم طابعه الخاص، ولكل صورة شخصيتها المميزة، ثم في بناء الأقاصيص المختلفة على هذه الرسوم، وهذه الصور، وهذا الصنيع دليل على الاعجاز البلاغي في القرآن الكريم، ولعله من هنا تحدى القرآن العرب تحداهم بالسور المفتريات وذلك؛ لأنه بنى أقاصيصه على ما يعرفون من عناصر، وبنى أكثر من قصة على عنصر واحد هو شخصية النبي أو الرسول وجعل لكل قصة غرضها الخاص ومقصدها الذي تصل حتماً بالقارئ إليه، وكل ذلك من الأمور التي لايستطيعها إلا من يقول للشيء كن فيكون[1] . ولا بد من الاعتذار عن الاطالة في ذكر النصوص المأخوذة من كتاب الدكتور محمد خلف الله ولكن سبب الاطالة يعود لبيان أنّ ليس كل ما قاله محمد خلف الله غير صحيح ولا يُقبل، فما قاله في هذا المجال لايتعارض مع ما تعارف عليه البلاغيون قديماً وحديثاً الذين عدّوا التكرار مظهراً من مظاهر اعجاز القرآن الكريم. وأنه لاتكرار في القرآن الكريم لأنه لايذكر من القصة إلا الجزء الذي يتناسب مع موضوع السورة، ويُذكر بطريقة فنية بحيث لايشعر القارئ أنّ

---

(١) محمد خلف الله، الفن القصصي، ٣٤، ٣٦، ١٣٨، ١٨٥، ٢٠٠-٢٠١، ٢٠٣، ٢٣٢.

القصة مقحمة على النص اقحاماً. ولكننا لانتفق معه في عدّ كل جزء من القصة ورد في سورة قرآنية قصة مستقلة[١] ؛ لأنّ هذا التفسير ينفي الوحدة للموضوعية بين آيات الموضوع الواحد في القرآن الكريم، وهذا ما أثبته للباحثون المعاصرون فلو جمعنا الآيات التي تحدثت عن قصة موسى في القرآن الكريم ودرسناها لوجدنا أنّها تكمل بعضها بعضاً، ولاتكرار فيها، فكيف سنعدها قصة مستقلة عن الأخرى؟

أمّا سيد قطب فقد ركز على خضوع القصة في القرآن الكريم للغرض الديني مما جعلها تسلك سبلاً متعددة منها التكرار، ولكن هذا التكرار لايتناول القصة كلها غالباً، إنما هو تكرار لبعض حلقاتها، ومعظمه اشارات سريعة لموضوع العبرة فيها، أمّا جسم القضية كله، فلا يكرر إلا نادراً ولمناسبات خاصة في السياق، وحين يقرأ الإنسان هذه الحلقات المكررة ملاحظاً السياق الذي وردت فيه يجدها مناسبة لهذا السياق تماماً، ويجب أن نذكر دائماً أنّ القرآن كتاب دعوة دينية، وأنّ التناسق بين حلقة القصة التي تُعرض والسياق الذي تُعرض فيه هو الغرض المقدّم، وهذا يتوافر دائماً، ولا يخل بالسمة الفنية اطلاقاً[١]. وحتى لايبقى كلامه السابق مجرد تنظير فقد أتبعه بالتطبيق على قصة موسى -عليه السلام- باعتبارها أفضل نموذج يمثل التكرار في القرآن الكريم حيث ورد الحديث عنها في ثلاثين موضعاً، ولم تُكرر الحلقات الأساسية فيها، وإذا كُررت حلقة منها جاءت بشيء جديد عند تكرارها[٢] ، ومعنى ذلك أنه لايوجد تكرار في القرآن الكريم وإن بدا في الظاهر أو في النظرة المتعجلة أنه تكرار.

وكذلك كان رأي عبدالكريم الخطيب الذي قام بدراسة بلاغية لقصة موسى -عليه السلام- واتضح له أنّ في كل مرة وردت فيه القصة فإنها كانت تكشف عن جانب من جوانبها أو تجسّم صورة من صورها أو تكمل حدثاً من أحداثها؛ ولهذا كان لابدّ من عرضها على مراحل لأنها لو عُرضت مرة واحدة لحدث اضطراب في الأسلوب، وقد يؤدي ذلك إلى التناقض أو ثقل[٣]مما يشعر القارئ بالملل، كما أنّ قصة موسى -عليه السلام-

---

(١) سيد قطب، التصوير الفني، ١٢٨-١٢٩، ١٣٤، وفي ظلال القرآن ٣/٥٧٤-٥٧٦ و ١٣/٦٠ و ١٥/٣٩٥.

(٢) السابق، في ظلال القرآن ١/٨١ و ٢/٣٨٥ و ١٦/٤٦٣.

(٣) عبدالكريم الخطيب، ١٩٧٤، القصص القرآني في منطوقه ومفهومه، دار الفكر العربي ومطبعة المدني القاهرة، ٢٣٣، ٢٤٢، ٢٤٧.

قد شهدت أحداثاً كثيرة ومتعددة ولايمكن عرضها في مكان واحد أو في نص واحد.

ثم توقف وقفة مطولة عند قصة آدم التي ورد ذكرها في القرآن الكريم في أكثر من موضع، كما أنها كانت مجالاً لشطحات بعض المفسرين، وتخبطات كثير من الرواة الذين لم يتركوا صغيرة ولا كبيرة مما وقع في أيديهم من أخبار وأساطير[١] إلا ذكروه ولهذا كان لابدّ من جمع الآيات التي تناولت هذه القصة ثم تأملها، وهذا ما فعله عبدالكريم الخطيب فتوصل إلى ما توصل إليه سابقاً.

وتميز الدكتور محمد محمود حجازي في طريقة بحثه لهذه الظاهرة، استمع إليه يقول: "وستكون دراستنا دراسة منهجية بمعنى أننا نأتي بالعنصر من البقعة أو المشهد منها، ثم نذكر الآيات التي تعرضت لهذا المشهد بالتفصيل، ثم نحاول أن نأخذ صورة عامة للمشهد من الآيات ثم نبحث وجه الاختلاف في التعبير في الآيات، ولِمَ كان هذا الاختلاف؟ وما دلالته؟ ثم نرسم صورة كاملة للمشهد"[٢] وهو درس بهذه الطريقة قصة موسى -عليه السلام- التي قسّمها إلى سبعة مشاهد وحللّ الآيات القرآنية التي تناولتها وانتهى إلى أنّ كل آية كانت تتحدث عن المشهد من زاوية معينة وتختلف عن الأخرى إمّا بالإجمال أو التفصيل. وقد تترك آية الكلام على جزئية فتجيء آية ثانية فتكمل الحديث عنها. ولو جمعنا هذه الصور في مكان واحد لوجدنا أنها تكمل بعضها بعضاً، وأنها توضح تماماً المشهد بأجمعه مع احتفاظ كل سورة بمشخصاتها ومقوماتها. وعلى الرغم من نزول القرآن، الكريم مُفرقاً، ثم ترتيبه في المصحف على خلاف النزول إلا أنّ النتيجة كانت مع ذلك وحدة في الموضوع وحدة كاملة لاتباين فيها ولا اختلاف[٣] . فهو قد درس التكرار في القصص القرآني في اطار الفكرة التي يؤمن بها وهي توفر الوحدة في القرآن الكريم بمفهوميها: أي الوحدة الموضوعية في السورة القرآنية؛ لأنّ كل أجزاء السورة تتجمع لتخدم غرضاً واحداً، والقصص جزء من هذه الموضوعات. والمفهوم الثاني القائم على وجود الوحدة بين الموضوعات التي تناولها القرآن الكريم في سوره المتفرقة[٤] والوحدة الموضوعية بمفهوميها مظهر من مظاهر بلاغة القرآن الكريم.

---

(١) عبدالكريم الخطيب، القصص القرآني، ٣٥٢-٣٥٨.

(٢) محمد محمود حجازي، الوحدة الموضوعية، ٣٢٨.

(٣) السابق، ٣٢٨-٣٤٨ وأحمد جمال العمري، دراسات في التفسير الموضوعي، ٩، ٣٣.

(٤) محمد محمود حجازي، الوحدة الموضوعية، ١٢٩، ٤٠٤.

أمّا الدكتور فضل حسن عباس فقد قام بدراسة القصص القرآني دراسة موضوعية تاريخية تقوم على جمع الآيات ثم ترتيبها حسب تاريخ النزول قدر المستطاع[١] ودراستها وتحليلها، حتى يُبطل بعض الشبه التي تُثار ضد القصص القرآني من حين لآخر وبخاصة للتكرار، ومعرفة مكان النزول تساهم أيضاً في تسليط بعض الأضواء التي يمكن من خلالها الكشف عن مواطن الجمال في القصص القرآني.

وقبل حديثه عن ظاهرة التكرار في القرآن الكريم قام بتوضيح مفهوم التكرار عنده وهو : "اعادة اللفظ نفسه في سياق واحد، والمعنى واحد"[٢] وهذان الشرطان لايتحققان في التكرار الوارد في القرآن الكريم؛ فإنّ لكل موضع سياقه الخاص، ومعناه الخاص. إذن لامجال لتسمية ما ورد في القرآن الكريم تكرارا، وهو أحسن صنعاً عندما حدد دلالة هذا المصطلح قبل الخوض في التفاصيل؛ لأنّ في بيان دلالة المصطلحات تقليلاً للنقاش والجدال.

ويمتاز كتابه بأنه شامل لقصص القرآن حيث تحدث عن قصة آدم، وقصص الأنبياء التي تكرر ذكرها أكثر من مرة، وقصص الأنبياء الذين لم تُذكر قصصهم إلا مرة واحدة في القرآن، ومنها قصة يوسف والياس -عليهما السلام- وحدثنا عن نماذج من القصص القصيرة الموجودة في القرآن ومنها: قصص طالوت، وقارون، وأصحاب الجنة.

وسأختار حديثه عن قصة آدم لبيان منهجه في دراسة القصة في القرآن الكريم ومن خلال بحثه لها نفى التكرار عن القصص القرآني أي بعد الدراسة التطبيقية. وفي البداية قام بجمع السور[٣] التي تناولت الجزيئات والموضوعات والمواقف والمشاهد الخاصة بقصة آدم، ثم رتب هذه السور حسب ترتيبها في النزول والجديد في طريقته أنه بدأ بدراسة السور التي نزلت في العهد المكي ثم العهد المدني، وبذلك استطاع اعطاءنا فكرة عن المراحل التي تمّ من خلالها الحديث عن القصة والتسلسل الدقيق لهذه المراحل، وتوصل إلى أنه في كل مرة كان يرد الحديث عن القصة كنا نجد جديداً لم نجده في

---

(١) فضل حسن عباس، ١٩٨٧، القصص القرآني ايحاؤه ونفحاته، ط٢، دار الفرقان، عمان، ٨.

(٢) السابق ١٩.

(٣) وهذه السور مرتبة حسب النزول: ص والأعراف وطه والاسراء والحجر والكهف والبقرة.

السورة السابقة، وفي كل آية نجد خصوصية تتناسب مع موضوع السورة وغرضها[١]. مهما كان حجم القصص الوارد في السورة.

ولو قرأنا ما ورد في سورة الكهف عن قصة آدم فإننا نجد إشارة واحدة فقط عن قصته تتمثل في قوله تعالى ﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا ابليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلاً﴾[٢] وعلى وجازة هذه الآية فإنها لم تخل من جديد فهي الآية الوحيدة في القرآن الكريم التي تشير إلى أصل إبليس وأنه من الجن.

وإذا ما انتقلنا إلى العهد المدني فإننا نجد الحديث عن هذه القصة ورد في سورة البقرة[٣] فقط وقد يتبادر إلى الذهن أننا لن نجد فيها جديداً عما ورد ذكره في سور العهد المكي على اعتبار أنّ القصة باتت معروفة للقرّاء. ولكن امعان النظر فيها يبيّن أننا نجد فيها حديثاً جديداً لم نعهده سابقاً، هو تكريم الله-سبحانه وتعالى- لآدم، وتعليمه الأسماء كلها، واعتراف الملائكة بعدم معرفتها[٤] وهذا آخر حديث عن قصة آدم، وبجمع الآيات التي وردت فيها قصة آدم تتكامل الصورة وتتضح معالمها، وينبغي الاقتصار على ما ورد في القرآن الكريم حول هذه القصة، وعدم محاولة البحث في تفاصيل أخرى لافائدة من معرفتها مثل ما نوع الشجرة التي أكل منها آدم وحواء، أو تحميل حواء مسؤولية اخراج آدم من الجنة. فالآيات القرآنية صريحة في هذا المجال منها قوله تعالى ﴿فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لايبلى﴾ إلى قوله تعالى ﴿فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى﴾[٥] .

وأخيراً سأتوقف عند الدكتور التهامي النقرة لنرى كيف فسّر هذه الظاهرة التي رأى أنها وثيقة الصلة بمنهج القرآن في سرد القصة، إذ التكرار يخدم غرضين في آن واحد غرضاً فنياً: يتمثّل في تجدّد أسلوبها ايراداً وتصويراً، والتفنّن في عرضها ايجازاً

---

(١) فضل حسن عباس، القصص القرآني، ٤٤-٥٣.

(٢) السورة الكهف، الآية ٥٠.

(٣) السورة البقرة، الآيات ٣٠-٣٨.

(٤) فضل حسن عباس، القصص القرآني، ٥٢-٥٣.

(٥) السورة طه، الآيات ١٢٠-١٢٣ وفي سورة الأعراف، الآيات ٢٠-٢٥.

واطناباً والتنوع في أدائها لفظاً ومعنى. وغرضاً نفسياً: بما للقرآن من تأثير في النفوس؛ لأنّ المكرر ينطبع في تجاويف الملكات اللاشعورية التي تختمر فيها أسباب أفعال الإنسان ودوافعه كما هو مقرّر في علم النفس[١] . ولذلك قيل: "الكلام إذا تكرر تقرر، لأنه كلما تكرر ذكر الشيء وأُعيد بيانه، ثبت واستقر في القلب لكثرة وروده"[٢] . فنحن نرى وسائل الإعلام إذا ما أرادت التأثير في النفوس فإنها تلجأ إلى الاعادة والتكرار، وكذلك في الإعلانات التي تكرارها يجعلها ترسخ في الأذهان، ولا يمكن مقارنة أثر القرآن الكريم بأثر هذه الوسائل الدنيوية ولكن الغرض تقريب الفكرة للأذهان ليس إلا.

ولكن الدكتور التهامي النقرة قد ناقض نفسه حين قال "في رأيي إنّ التكرار في القرآن لايُقصد به الاعجاز البياني بقدر ما قُصد به التأثير النفسي لما يعلم الله من تفاوت في مدارك البشر وأمزجتهم"[٣] وقدرتهم على الاستيعاب، وقوله في موضع آخر "وما تكرر من قصص القرآن ليس من التكرار الآليّ الذي يُخلّ بالفن ويَعيبه النقاد؛ لأنّ الحقيقة الواحدة يطالعنا بها القرآن في مواطن مختلفة، ولكن في أثواب جديدة مع تصرّف بارع في صيغ التعبير وطرق الأداء، واعادة الكلام في الموضوع الواحد مع التنويع والطرافة والتجديد من بلاغة القرآن واعجازه"[٤] وكان بامكانه اعادة صياغة عباراته بحيث يجمع بين الرأيين دون تناقض أو تعارض بينهما؛ لأنّ كلا الرأيين لهما دُعاة يؤمنون به. ولكن الاعجاز البياني هو الأقوى هنا لأننا قد نقرأ قصة ونستمتع بما ورد فيها، وتؤثر في نفوسنا دون التكرار، فالتكرار ليس شرطا في التأثير أو ليس الشرط الوحيد، فمن منا لم يتأثر بقصة موسى مع العبد الصالح[٥] وهي لم ترد إلا مرة واحدة. كما أنّ الاعجاز البياني بما فيه من تكرار للقصص هو مناط التحدي.

ومن أبرز النتائج التي توصل إليها لتفسير هذه الظاهرة:

القرآن الكريم لم يكرر من القصص أو من حلقاتها إلا ما كان أشد تجاوباً مع بيئة الدعوة وأكثر استجابة لأهدافها، وخدمة لأغراضها بينما لم تكرر قصص غير الأنبياء

---

(١) التهامي نقرة، ١٩٧١، سيكولوجية القصة في القرآن، الشركة التونسية للتوزيع، ١١٥-١١٦.

(٢) سموع أحمد أبو طالب، ١٩٨٥، الدراسة القرآنية الموضوعية، ط١، دار الطباعة المحمدية، القاهرة، ١٠٧، ١٠٨.

(٣) التهامي نقرة، سيكولوجية القصة، ١٢٨.

(٤) السابق، ١٣٨.

(٥) السورة الكهف، الآيات ٦٥-٨٢.

كقصة أهل الكهف[١] . إذ لم يرد الحديث عنها إلا مرة واحدة. وحتى قصص الأنبياء لم تُكرر كلها.

ومن أكثر القصص وروداً في القرآن الكريم هي قصة موسى -عليه السلام- وذلك لحكم شتى، ليس هنا موضع الحديث عنها ولكن ينبغي التذكير أنّ أحداثاً كثيرة حدثت لموسى -عليه السلام- لم يتم تكرار الحديث عنها. كقصته مع الرجل الصالح[٢] وقصته مع ابنتي شعيب[٣] . وكذلك حديث امرأة فرعون عندما طالبت بتبني موسى[٤] فلم يرد ذكر لهذه الأحداث سوى مرة واحدة لأنه لا توجد حكمة دينية من العودة للحديث عنها ثانية.

ولو توقفنا عند أول مشهد من مشاهد قصة موسى -عليه السلام- كما وردت في القرآن الكريم؛ فإننا نلاحظ أنّ الحديث عنها كان في سورتي القصص وطه فقط. ففي سورة القصص[٥] نجد حديثاً مفصلاً عن المراحل الأولى من حياة موسى -عليه السلام- منذ ولادته ونشأته في بيت فرعون، وما جرى معه في شبابه، ثم رحلته إلى مدين ثم اختياره للرسالة ومواجهته لفرعون. وكأنّ هذه السورة كانت بمثابة التمهيد لقصة موسى -عليه السلام- ولا نجد حديثاً عن هذه الأحداث سوى مرة واحدة في سورة طه حيث تحدثت الآيات عن موقف أم موسى -عليه السلام- عندما نفذت الخطة وألقته في اليم[٦] . والحديث جاء مفصّلاً في سورة القصص، بينما جاء مجملاً في سورة طه؛ لأنّ الحديث فيها كان على شكل تعداد لنعم الله -سبحانه وتعالى- على موسى ومنها عودته إلى أمه التي جاءت وأرضعته في قصر فرعون.

وإذا ما عدنا بالذاكرة إلى الغرض من ذكر القصص في القرآن نجده متمثلاً في هذا الجزء من قصة موسى؛ لأنّ الله -سبحانه وتعالى- يريد أن يبين للرسول -عليه السلام- وللمؤمنين

---

(١) التهامي نقرة، سيكولوجية القصة، ١١٨، ١٢٠-١٢٦.

(٢) السورة الكهف، الآيات ٦٥-٨٢.

(٣) السورة القصص، الآيات ٢٢-٢٨.

(٤) السورة السابقة، الآيتان ٨-٩.

(٥) الآيات، ٦-٢٨.

(٦) السورة طه، الآيات ٣٨-٤٠.

بأنه -سبحانه وتعالى- قادر على حماية أحبائه ونصرتهم ولو كانوا قلة وسط مجتمع معادٍ لهم كحال موسى -عليه السلام- في قصر فرعون[١] . وفي ذلك تثبيت لهم وبشرى.

ومن المشاهد الأخرى من قصة موسى التي كانت مثار بحث بين الباحثين هي الأقوال التي رددها موسى -عليه السلام- عندما كان في طريقه إلى مصر، بعدما رحل عن أهل مدين ومعه زوجته، حيث ورد هذا المشهد في ثلاث سور فقط[٢] ، ولو قرأنا ما ورد فيها لوجدنا أنها ثلاث آيات تتحدث عن مشهد واحد.

يرى الدكتور محمد محمود حجازي أنّ سبب الاختلاف في العبارات التي وردت على لسان موسى -عليه السلام- في الآيات السابقة عائد للحالة النفسية التي مرّ بها موسى -عليه السلام- عندما رأى النار، فهو عندما رأى النار أخذ يفكر ماذا يكون عند النار ومن حولها؛ فمرة تغلّب خوفه على رجائه. ومرة استبشر وثالثة توجّس خيفة[٣] ، وانعكست حالته النفسية في أقواله فمرة لجأ إلى (لعل) فهو يرجو، ومرة لجأ إلى قوله (سآتيكم) ولكنه ختم كلامه بـ (لعلكم تصطلون) دليل أنه مازال غير واثق مما سيحدث له وهذا أمر طبيعي لإنسان وحيد في صحراء مجهولة بالنسبة إليه ولا يعرف أحداً، أن تختلط عليه مشاعره وأحاسيسه.

ومما يُلحظ أنّ الاختلاف بين نصوص الآيات[٤] الثلاث يكمن في النقاط التالية: ورود أسلوب الشرط (إذ) في سورتي طه والنمل وأسلوب الشرط (لمّا) في سورة القصص. وورود اسم موسى صريحاً في سورتي النمل والقصص أمّا في سورة طه فقد اُكتفي بذكر الضمير. وورد الفعل (قال) في آيتي النمل والقصص أمّا في سورة طه فورد بالفاء (فقال). وطلب موسى من أهله البقاء في مكانهم في آيتي طه والقصص أمّا في آية النمل فلم يطلب منهم ذلك. وأخيراً اشتركت الآيات الثلاث في ايراد أسلوب التوكيد والعبارة نفسها (إني آنست ناراً) وتنكير كلمة (ناراً).

---

(١) محمد محمود حجازي، الوحدة الموضوعية، ٣٣٥.

(٢) السورة القصص، الآية ٢٩ وفي سورة طه، الآية ١٢ وفي سورة النمل، الآية ٧.

(٣) محمد محمود حجازي، الوحدة الموضوعية، ٣٤٣، ٢٩٦-٢٩٨ وعبدالكريم الخطيب، القصص القرآني، ٦١.

(٤) يُنظر على سبيل المثال: السورة طه، الآيات ٢٠-٢٢ وفي سورة النمل، الآيتان ١٠-١٢ وفي سورة القصص، الآيتان ٣١-٣٢. فهذه الآيات تحدثت عن مشهد واحد من حياة موسى عليه السلام.

وتختلف الآيات الثلاث في التعبير عن الكمية التي نوى موسى -عليه السلام- أخذها من النار فمرة قال (قبس)، وثانية (شهاب قبس) وثالثة (جذوة) وهذا ما قاله موسى -عليه السلام- في ذهنه أو فكّر فيه.

وإذا أمعنا النظر في الآيات الثلاث نلحظ أنّ الآية في سورة طه تحدثت عن رؤية موسى -عليه السلام- للنار ثم طلبه من أهله المكوث ريثما يحضر جزءاً من تلك النار. أمّا في آية النمل فكان التركيز على غايته من احضار النار، وفي آية القصص نجد زيادة على ما ورد في الآيتين السابقتين حيث وجدنا فيها حديثاً عن المكان الذي كان فيه موسى -عليه السلام- وأهله. وفي أثناء ذهابه لاحضار النار، خاطبه الله -سبحانه وتعالى- وكان ذلك أول عهده -عليه السلام- بالنبوة. ومما سبق ذكره يتضح أنه لاتكرار في النصوص السابقة، وكل نص عبّر عن الموقف نفسه بطريقة مغايرة. وهذا ينفي شبهة التكرار عن الآيات السابقة.

ولو حللنا بالطريقة نفسها الآيات التي تحدثت عن مواقف أخرى من قصة موسى -عليه السلام- لتوصلنا إلى النتيجة نفسها. فظاهر النصوص والنظرة المتعجلة تحكم على القصص القرآني بالتكرار، ولكن امعان النظر وطول التأمّل وحصر الفروق ووجوه التنوّع في المشاهد ينطق بأنّ هذا التكرار ليس تكراراً على الحقيقة فالقصة في كل موطن لها سمتها وطريقة عرضها، ومشاهدها التي تختص بها وتتلاءم مع السورة التي وردت فيها[1] . ولو أخذنا المشهد الذي قابل فيه موسى فرعون وجهاً لوجه لرأينا أنّ القرآن الكريم تحدث عنه في عدة سور قرآنية[2] تباينَ الحديث فيها ما بين اجمال واطالة للمشهد وذكر للحوار الذي جرى بينهما، وكيف تدرّج موسى -عليه السلام- في الحديث مع فرعون حتى أعلن صراحة أمامه أنه مُرسل من قبل الله -سبحانه وتعالى-، كل ذلك جاء متناسباً مع موضوع السورة، فمثلاً رأينا أنّ الحديث عن المشهد تمّ بصورة مختصرة في سورة

---

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، ١١/٤٦٠-٤٦٣. ومحمود السيد حسن، ١٩٨٢، روائع الاعجاز في القصص القرآني، المكتب الجامعي الحديث، الاسكندرية، ١٥.

(٢) طه والشعراء والأعراف ويونس والمؤمنون.

يونس والسبب لأنّ جو السورة كله اجمال وتلخيص[١] وكذلك بالنسبة إلى مشهد موسى مع السحرة الذي جاء في أربع صور. صورة منها موجزة وردت في سورة يونس أمّا السور الأخرى التي تحدثت عن هذا المشهد ففيها تصوير دقيق للموقف، لكن من ثلاث زوايا مختلفة، ففي سورة طه كان التركيز على مشاعر موسى-عليه السلام- عندما رأى السحرة أنفسهم قبل المباراة مع موسى-عليه السلام- وبيان مدى اعجابهم بأنفسهم وتملقهم لفرعون، أمّا في سورة الأعراف فكان المشهد تصويراً لمشاعر المشاهدين الذين رأوا الحدث وكيفية استقبالهم له[٢] . فالتحليل للنص نفسه ومن داخله أفضل طريقة للرد على الزاعمين بوجود التكرار في النص القرآني. كما أنّ بعض السور القرآنية التي تحدثت عن حياة موسى-عليه السلام-. اختارت مشاهد محددة من حياته للحديث عنها وتركت الحديث عن المشاهد الأخرى التي لاتتعلق بموضوع السورة. فمثلاً خلت سور (الأعراف ويونس والمؤمنون) من الحديث عن مقابلة موسى لفرعون والأفكار التي دارت في مخيلته -عليه السلام- لحظتها. وبالمقابل نجدها تتحدث عن المشهد الذي قابل به موسى-عليه السلام- فرعون والسحرة وجهاً لوجه، فالقرآن لايأخذ من القصة إلا المشهد الذي يتناسب مع طبيعة السورة؛ ولهذا لم يأتِ الحديث عن المشهد بصورة واحدة، بل جاء على أشكال مختلفة وبأساليب متباينة.

ولا يستطيع القارئ تكوين صورة تامة عن قصة موسى-عليه السلام- كما وردت في القرآن إلا إذا جمع الآيات القرآنية التي وردت في سور متعددة، والبيان القرآني لم يجمع هذه اللقطات، وهذه الصور في سورة واحدة، وإلا كان ذلك داعية من دواعي الملل والسأم[٣] ، ومن مظاهر اعجاز القرآن الكريم أننا إذا ضممنا هذه الآيات معاً فإننا لانلاحظ أي تكرار فيها، أو تدافع بينها؛ لأنّ في كل آية لوناً جديداً تفتقده الآيات السابقة، وكل آية تُصوّر جانباً من المشهد بحيث تتكامل المشاهد في النهاية، على الرغم من التباعد الزمني الذي نزلت فيه الآيات، وكذلك تُصوّر أحوالاً مختلفة، ومن اعجاز القرآن الكريم جمعها في مشهد واحد. تمسك به تلك المشاعر التي كان يعيش بها أصحابها في هذا الموقف

---

(١) محمد محمود حجازي، الوحدة الموضوعية، ٣٥٤، وسيد قطب، في ظلال القرآن، ١١/ ٤٥٩.

(٢) السابق، ٣٦٢.

(٣) السابق، ٣٠٢.

-الذي تتحدث عنه الآيات- دون أن يُحدث الانفصال الزماني أو المكاني فيها خلخلة أو ازدواجاً[١] وكذلك تأتي هذه القصص منسجمة تمام الانسجام مع السورة والأهداف التي تسعى إلى بيانها، ولا يشعر القارئ بأنه تم بتر الآيات القرآنية لاقحام الحديث عن القصة القرآنية.

وقد نجد تشابهاً في الصور اللفظية لبعض الآيات لايكاد يختلف إلا في بعض الحروف كما في الآيات التالية التي تتحدث عن معاداة إبليس لبني آدم ﴿قال رب فأنظرني إلى يوم يبعثون قال فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم، قال فبعزتك لأغوينّهم أجمعين﴾[٢] وقال تعالى ﴿قال أنظرني إلى يوم يبعثون قال إنك من المنظرين قال فبما أغويتني لأقعدنّ لهم صراطك المستقيم﴾[٣] وقال تعالى ﴿قال ربّ فانظرني إلى يوم يبعثون، قال فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم قال ربّ بما أغويتني لأزيّنّن لهم في الأرض ولأغوينّهم أجمعين﴾[٤] إذ لاحظنا وجود الفاء في (فأنظرني) في سورتي ص والحجر وخلو سورة الأعراف منها وذلك لأنه ذُكر -قبل الآيتين في سورة (ص) والحجر -ذُكر قبلهما طرد إبليس من الجنة ثم لعنة الله عليه ليوم الدين[٥] فجاءت الفاء وكأنه: قال إن حكمت عليّ باللعنة ربِّ فانظرني، وجاء الجواب له في الآيتين كذلك بالفاء "فإنك من المنظرين". أمّا سورة الأعراف فلم يتقدم بها شيء من هذا لذلك نراها خلت من النداء (ربِّ) كما خلت من الفاء وقد خلا الجواب كذلك "إنك لمن المنظرين" حتى يطابق السؤال الجواب، أمّا قول إبليس (فبعزتك) في سورة (ص) فجاء متلائماً مع تكريم آدم واعزازه بأن خلقه -سبحانه وتعالى- بيده، وأمّا سورتا الأعراف والحجر فلم يُذكر فيهما هذا التكريم لآدم من خلقه -سبحانه وتعالى- بيديه وإنما ذُكر الإغواء[٦] . فهذه هي البلاغة ومطابقة الكلام لمقتضى المقام، وهذا هو الاعجاز البلاغي الذي تدق أحياناً معرفته فيدّعي من يدّعي وجود التكرار في القرآن الكريم.

---

(١) عبدالكريم الخطيب، القصص القرآني، ٢٤٧، ٢٤٨، ٢٥٧.

(٢) السورة ص، الآيات ٧٩-٨٢.

(٣) السورة الأعراف، الآيات ١٤-١٦.

(٤) السورة الحجر، الآيات ٣٦-٣٩.

(٥) السورة ص؛ الآيتان ٧٧-٧٨ وفي سورة الحجر، الآيتان ٣٤-٣٥ وفي سورة الأعراف، الآيات ٥٧-٥٩.

(٦) فضل حسن عباس، القصص القرآني، ١٢٢-١٢٥.

الشخصية والحدث في القصص القرآني

والبحث في التكرار في القرآن الكريم يدفعنا للحديث عن كيفية تناول القرآن الكريم للشخصية والحدث في القصص القرآني، وكما اتضح لنا سابقاً أنه لاتكرار في القرآن الكريم بالمفهوم الحرفي لهذه الكلمة، وربما الذي دعا إلى القول بالتكرار في القصص القرآني هو ظهور الشخصية في مواقف متعددة، وهذا يعني أنّ الشخصية في القصص ليست مقصودة لذاتها؛ لأنها لو كانت المقصودة قصداً أصلياً لذُكرت أحداثها ومواقعها في معرض واحد(١) . ولمّا قُطّع الحديث عن مراحل حياتها في أجزاء متباعدة واعتبارنا الحادثة هي محور القصة في القرآن لا الشخصية يجعلنا نجد في كل حادثة أو موقف قصة كاملة، وهذا لايمنعنا من الالتقاء بالشخصية الواحدة في أكثر من حدث(٢) . تتفاعل معه بصورة تتلاءم مع الموقف نفسه؛ لأنها هي المُحرّكة للحدث ولم ترد القصة كاملة إلا إذا كانت اجابة لسؤال كما في قصة أصحاب الكهف، ويوسف -عليه السلام-.

والمتتبع للقصص القرآني يجد أنّ أحداثه تدور في معظمها حول الدعوة إلى الله وإخراج الناس من الظلمات إلى النور؛ ولهذا كانت دعوات الأنبياء هي الشخصية الغالبة في القصص القرآني(٣) ، والتكرار كان يتمحور حول الأحداث التي لها علاقة بالدعوة، أمّا الأحداث العادية التي كانت تحدث مع هؤلاء الأنبياء فلم يتم الحديث عنها مرة ثانية في القرآن الكريم، فقصة يوسف -عليه السلام- لم نجد ذكراً لها في سور القرآن الكريم – في غير السورة التي خُصصت للحديث عن قصته- إلا في سورتي(٤) الأنعام وغافر حيث ذُكر اسمه فقط، وكان ذلك في معرض تعداد أبناء ابراهيم -عليه السلام- وفي معرض تذكير بني إسرائيل على لسان الرجل المؤمن برسالة يوسف -عليه السلام- وعدم تصديقهم به، وتحذيرهم من ملاقاة مصير الأمم السابقة التي أهلكها الله -سبحانه وتعالى- عندما عصت أمر ربها.

---

(١) عبد الكريم الخطيب، القصص القرآني، ٤٢، ومحمد محمود حجازي، الوحدة الموضوعية، ٢٩١.

(٢) السابق، ٤٣ و السابق، ٤٠٧.

(٣) السابق، ٤٣، وفضل حسن عباس،القصص القرآني، ٢٣.

(٤) السورة الأنعام، الآية ٨٤ وفي سورة غافر، الآية ٣٤.

والأحداث التالية[١] في قصة موسى -عليه السلام- لم تُذكر إلا مرة واحدة في القرآن كقصته مع العبدالصالح ومع قومه في أثناء دخولهم الأرض المقدسة، ومع قومه في ذبح البقرة. وهذه هي القاعدة التي سار عليها القصص القرآني ولم تُستثن منها إلا قصة آدم حيث تمّ الحديث عنها في أكثر من موضع والسبب في ذلك أنّ قصة آدم جاءت لتحدثنا عن النواحي الفطرية والجوانب الرئيسية في حياة الإنسان وعن الاستعدادات التي تتكون منها طبيعته[٢] ، فآدم هو أبو البشر وقصته هي قصة الإنسان في أي زمان ومكان.

وكذلك لم نجد تكراراً في الحديث عن قصص غير الأنبياء. ومنها قصة أصحاب القرية الذين كفروا بالرسل[٣] ، والقرية التي كانت آمنة ثم بطرت معيشتها[٤] ، وأصحاب الجنة الذين قرروا عدم التصدق على الفقراء والمحتاجين[٥] . وبما أنّ الحديث هو الأساس في القصص السابقة لذلك لم نجد وصفاً دقيقاً محدداً للشخصيات أو صفاتهم. فالكلام عن أصحاب القرية أو أصحاب الجنة (البستان) صالح للانطباق على أي أشخاص تنطبق عليهم الأحداث التي وردت في القصص السابقة، والقرآن الكريم ذكر قصص هؤلاء لبيان قضية أو حكم من أحكام هذا الدين. وهذا قد يدفع إلى الاعتقاد بأنّ أصحاب هذه القصص ليسوا حقيقيين وإنما ذُكروا لضرب المثل فقط. وهذا غير صحيح لأنّ ما ورد في القرآن الكريم كله حق. بدليل قوله تعالى ﴿إنّ هذا لهو القصص الحق﴾[٦] وقوله تعالى ﴿نحن نقص عليك نبأهم بالحق﴾[٧] .

وعندما تكون الشخصية هي المحور المُحرّك للحدث عندئذ نجد تحديداً دقيقاً لتلك الشخصيات وتُذكر الأسماء؛ لأنّ هذه الأحداث لاتحدث إلا معهم بأشخاصهم ولاتتكرر مع غيرهم ولا يمكن أن تتكرر كما في قصة زوجة عمران، ومريم ابنة عمران، وعيسى ابن مريم، وزكريا ويحيى، وقابيل وهابيل، فمقتضى المقام تطلب التصريح بأسمائهم فصرّحت الآيات بذلك.

---

(١) السورة الكهف، الآيات ٦٥-٨٢ وفي سورة المائدة ، الآيات ٢٠-٦٢ وفي سورة البقرة، الآيات ٦٧-٧٣.

(٢) فضل حسن عباس، القصص القرآني، ٢٣.

(٣) السورة يس، الآيات ١٣-١٩.

(٤) السورة النحل، الآية ١١٢.

(٥) السورة القلم، الآيتان ١٨-٣٢.

(٦) السورة آل عمران، الآية ٦٢.

(٧) السورة الكهف، الآية ١٣.

والأمر نفسه يقال في توظيف الزمان والمكان في القصص القرآني، فالقرآن الكريم لايتعلق بذكر إلا ما كان من جوهر القصة وموضع للعبرة، ففي قصة أصحاب الجنة الوارد ذكرهم في سورة القلم، لم يحدد زمانهم ولا مكانهم ولا أسماءهم[١] وكذلك الحال بالنسبة إلى قصة قارون وقصة أصحاب الكهف، بينما لعب المكان دوراً مهماً في قصة موسى ويوسف -عليه السلام- ولهذا حُدّد تحديداً دقيقاً.

وبعض القصص القرآني كان يهتم بالتسلسل التاريخي؛ لأنّ ذلك كان يتناسب مع الغرض من السورة، كما في سورة الأعراف التي كانت تعرض سير الركب البشري منذ النشأة الأولى، وتعرض موكب الإيمان وهو يحاول هداية هذا الركب البشري واستنقاذه كلما ضل تماماً عن معالم الطريق[٢] ولذلك تمّ الحديث عن قصص الأنبياء -عليهم السلام- بدءاً بقصة نوح مروراً بقصة هود فقصة صالح وشعيب وأخيراً قصة موسى.

وسارت على المنهج نفسه سورة هود التي بدأت بذكر نوح ثم هود وألمت بابراهيم في الطريق إلى لوط ثم شعيب، وانتهت بقصة موسى. ولاحظ سيد قطب أنه قد تمت الإشارة إلى قصة إبراهيم في هذه السورة، بينما خلت سورة الأعراف من الإشارة إليه، والسر وراء ذلك كما يقول سيد قطب -بعد أن تأمل في سورة الأعراف- إنّ السياق فيها كان يتحرى مصارع المكذبين، ولهذا حدثتنا عن إهلاك الله -سبحانه وتعالى- لتلك الأقوام لمّا استحقت الإهلاك بينما لم يهلك قوم إبراهيم -عليه السلام- لأنه لم يطلب من ربه اهلاكهم واكتفى باعتزالهم هم وأصنامهم[٣] . وهذا يدل على بُعد نظر سيد قطب وأنه عايش النص القرآني معايشة حقيقية، جعلته يتوصل إلى نتائج دقيقة لايتم التوصل إليها إلا بجهد وتأمل.

ولما عرضت سورة الشعراء لقصص الأنبياء لم تلتزم بالتسلسل التاريخي فهي بدأت بالحديث عن قصص الأنبياء -عليهم السلام- حسب التسلسل التالي: موسى ثم إبراهيم ثم نوح ثم صالح ثم لوط وأخيراً شعيب، والسبب في عدم التزام التسلسل التاريخي؛ لأنّ المقصود من هذه السورة أخذ العبرة والعظة[٤] من مواقف أقوام هؤلاء

---

(١) عائشة عبدالرحمن، التفسير البياني ٦٧/٢ وعبدالكريم الخطيب، القصص القرآني، ٨٣، ٩٣.

(٢) سيد قطب، في ظلال القرآن، ٤٥١/٨-٤٥٤.

(٣) السابق، ٤٩٦/١٢، ٦٠٠.

(٤) السابق، ٢١٥/١٩، ٥٣٧.

الأنبياء. فالقرآن يختار الأجزاء من القصص التي تتناسب مع غرض السورة وكذلك الأمر بالنسبة إلى موقعها في السورة.

وهذا بدوره يقود للحديث عن واقعية القصص في القرآن الكريم التي يزعم بعضهم أنّ عرض القصة الواحدة في القرآن بأساليب مختلفة، وعدم الالتزام بذكر الزمان والمكان اللذين شهدا الحدث، ينفي الواقعية عن القصص القرآني وبما أنّ القصص القرآني جاء ترجمة لأحداث وقعت في الماضي البعيد بل أوغلت في القدم، وقد جرت أحداثها ومشاهدها على ألسنة غير عربية وكان القصص القرآني بلسان عربي مبين[١] . وهذا جعلهم يعتقدون بأنّ في القصص القرآني مكاناً للوهم أو الخيال ولكن الآيات القرآنية صريحة في الرد عليهم من مثل قوله تعالى ﴿لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ما كان حديثاً يُفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدًى ورحمة لقوم يؤمنون﴾[٢] وإذا ما أيقنا أنّ القرآن الكريم هو كلام الله -سبحانه وتعالى- فما الداعي للتشكيك في القصص القرآني وهو جزء من القرآن الكريم.

وعدم ذكر القرآن الكريم القصة كاملة بكل تفاصيلها دفع الدكتور محمد خلف الله إلى الاعتقاد بأنّ القصة في القرآن الكريم لاتلتزم الصدق التاريخي؛ لأنها بمثابة عمل فني والعمل الفني يجوز فيه الإبتكار والخلق، ويلعب الخيال دوراً أساسياً في صنع أحداثها كما يتجه الأديب إلى تصوير الحادثة تصويراً فنياً من غير التزام بصدق التاريخ[٣] . وللرد نقول: الحق الذي يلمسه كل من ينظر في هذا القرآن -وهو مستقيم الفطرة، مفتوح البصيرة – هو أنّ المناسبة الموضوعية هي التي تُحدد القدر الذي يُعرض من القصة في كل موضع، كما تُحدد طريقة العرض وخصائص الأداء، والقرآن كتاب دعوة، ودستور نظام، ومنهج حياة لاكتاب رواية ولا تسلية ولا تاريخ وفي سياق الدعوة يجيء القصص المختار الذي يعتمد على ابداع العرض، وقوة الحق، وجمال الأداء وليس على الخلق والتزويق[٤] .

---

(١) محمد محمود حجازي، الوحدة الموضوعية، ٣٠٣.

(٢) السورة يوسف، الآية ١١١.

(٣) محمد خلف الله، الفن القصصي، ٥٠-٥١، ٥٤، ١٢٨-١٢٩، ١٣٨، ٢٩٢-٢٩٣.

(٤) سيد قطب، في ظلال القرآن، ١/ ٦٤ و ٦٧٦/١٢ والتهامي نقرة، سيكولوجية القصة، ١٤٨ وتمام حسان، ١٩٩٣، البيان في روائع القرآن، ط١، عالم الكتب، ٥١.

والقصص القرآني اتسم بالواقعية المطلقة التي لازيف فيها، ولم يكن سرداً تاريخياً؛ ولهذا كان يختار من القصص الجزء الذي يتناسب مع موضوع السورة، ويتناسب مع الغرض[١] القرآني من توظيف القصة، فهو ينتقي من الأحداث التاريخية ما يراه مناسباً ويترك الحديث عن الأجزاء التي لافائدة بلاغية من ذكرها؛ ولهذا علينا الالتزام بما ورد في القرآن الكريم ولا يوجد داع للبحث عن الأجزاء التي لم يذكرها القرآن الكريم ومحاولة معرفتها؛ لأنّ الاعجاز البياني القرآني لايعجزه الحديث عن تلك الأجزاء، والاعجاز كذلك يظهر في اختيار مقاطع ذات مغزى، وما اقتضاه المقام، فلو كان في ذكر اسم ملكة سبأ مغزى بلاغي لذُكر ولو كان في اتمام القصة أي بيان ماذا حدث بين سليمان وبين ملكة سبأ بعد ذلك حكمة إلهيّة لما بخل القرآن الكريم علينا بذكرها.

فالقرآن كله حق وما جاء فيه فهو صدق، وهو لم يُعنَ بالتفصيلات، وإنماً عُني بالكليات والحقائق الثابتة والنظريات العامة التي لاتحتمل اختلافاً، أمّا مقارنته بما ورد في الإنجيل والتوراة -مثلاً- فهذا لايجوز؛ لأنّ هذه الكتب قد حُرّفت[٢] أمّا القرآن فلا مجال للشك أو الطعن في المعلومات التي وردت به؛ لأنه أصدق كتاب على وجه الأرض. والقرآن ليس كتاب تاريخ على أية حال. والتحديد التاريخي ليس هدفاً من أهداف القصة القرآنية، ولا يزيد في دلالتها شيئاً[٣] .

ولنأخذ قصة نوح-عليه السلام- نموذجاً لكيفية انتقاء القرآن للجزء الخاص من القصة المناسبة للهدف الذي تسعى السورة لتحقيقه، فقد وردت مختصرة في سورة الأعراف[٤] بينما جاءت مفصلة في سورتي هود[٥] ونوح[٦] ، بينما لم يُذكر منها إلاّ الحلقة الأخيرة في

---

(١) محمود السيد حسن، روائع الاعجاز، ٦١٠، ومحمد محمود حجازي، الوحدة الموضوعية، ٢٩٠، ٢٩٢.
ومنصور الرفاعي عبيد، ١٩٧٨، أهداف القصة في القرآن الكريم، ط١، دار الفرقان للطباعة ، القاهرة، ٣٩.

(٢) فتحي عبدالقادر فريد، ١٩٨٥، من بلاغة القرآن في سورة يوسف عليه السلام، ط١، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ٣٩، وسيد قطب، في ظلال القرآن، ٤٠٧/١٦ وعبدالكريم الخطيب، القصص القرآني، ٩، ٤٠.

(٣) سيد قطب، في ظلال القرآن، ٣٩٥/١٥ و ٤٠٦/١٦ وصلاح الخالدي، المنهج الحركي، ٤٣٣.

(٤) الآيات، ٥٩-٦٤.

(٥) الآيات، ٢٥-٤٩.

(٦) الآيات، ١-٢٨.

سورة يونس[١] . فلماذا هذا التفاوت في طول المشاهد وقصرها؛ إنه بلا شك يعود إلى التناسب مع موضوع السورة التي وردت فيها.

ولو قرأنا قصص الأنبياء الواردة في سورة الإسراء[٢] للاحظنا أنّ القاسم المشترك بينها الحديث عن الآيات والمعجزات التي أيّد الله -سبحانه وتعالى- بها أنبياءه منها: الناقة التي أرسلها الله لثمود، والآيات التسع التي واجه بها موسى -عليه السلام- فرعون والسحرة. وجاء الحديث على شكل اشارات دونما تفصيل؛ لأنّ هذه السورة تحدثت عن إحدى أهم المعجزات المادية التي أيدّ بها الله -سبحانه وتعالى- محمداً -عليه السلام- في صراعه مع المشركين. وكان لهذه المعجزة صدى مدوٍ في ذلك الوقت.

---

(١) الآيات، ٧١-٧٣.

(٢) الآيات، ٥٩، ١٠١-١٠٣.

الحذف في القصص القرآني

يمكن لقارئ القرآن الكريم أن يدرك وجود مشاهد محذوفة وبخاصة في القصص القرآني، وهذا الحذف مظهر من مظاهر بلاغة القرآن، فمع ادراكنا لوجود الحذف إلاّ أننا لانلمس خللاً في القصة أو انقطاعاً أو بتراً للأحداث فالحذف يزيد النص بهاء وجمالاً؛ لأنه يترك المجال لخيال القارئ أن يتم ماذا حدث، وتتمة المشاهد كما يتصور بشرط عدم تجاوز النص القرآني.

وقد تنبّه البلاغيون القدماء لهذه الظاهرة ولكنهم حصروها في سبب واحد وهو الايجاز، وهذا صحيح إلى حد ما، فالحذف فيه ايجاز واختصار. وقد سئل أحدهم عن البلاغة فأجاب هي الايجاز، واللغة تمتاز بايجازها وفصاحتها، ولكن هل كل حذف يكون للايجاز فقط، ألا نلمس دلالات بلاغية أخرى للحذف؟

ومن الدراسات المعاصرة التي تناولت هذه الظاهرة دراسة كاظم الظواهري التي حاولت الإجابة عن السؤال السابق، وخصصها لدراسة الحذف في القصص القرآني وهو اختار مصطلح "الاضمار" بدلاً من الحذف.

ومن أهم النتائج التي توصل إليها أنّ للحذف في القصص القرآني معنى جديداً. هو "تدعيم التصوير الفني للقصة، وخلق جو العرض فيها بتكثيف أحداثها، والإبانة عن وقائعها التي تؤدي إلى التحول والتصاعد في حبكتها، وتكريس السياق للألفاظ والأساليب المؤدية إلى تفاعل المتلقي مع القصة لضمان أكبر قدر من الإثارة والتأثير في هذا المتلقى؛ ليتحقق في النهاية الهدف الذي سيقت من أجله هذه القصة، وهو بالقطع هدف يتفق مع أهداف الدين[1] . ويُلحظ اكثاره من استعمال مصطلحات فنية جديدة لم تكن معروفة لدى العرب في القديم وهي وليدة عصرنا الحاضر، ولا مانع من توظيف هذه المصطلحات إذا ما شعرنا أنها تكشف عن مظهر من مظاهر جمال النص القرآني؛ لأنّ الحكمة ضالة المؤمن أخذها أنّى وجدها ولكن ينبغي الحذر عند تطبيق هذه المصطلحات على النص القرآني خشية التوصّل إلى نتائج غير دقيقة، كما أنّ المقاييس الفنية والمصطلحات غير ثابتة ويمكن أن تتغير بمرور الأيام فلا ينبغي اخضاع النص القرآني

---

(١) كاظم الظواهري، ١٩٩١، بدائع الاضمار القصصي في القرآن الكريم، ط١، دار الصابوني ودار الهداية، ٧.

لها، وليس أدل على ذلك من أنّ النقاد كانوا يرون مقومات القصة تنحصر في ثلاثة أمور وهي العرض والعقدة والحل ثم تغيرت النظرة لمقومات القصة، فهذه للقواعد غير ثابتة الأصول[١] ، وهذا يشبه اخضاع النص القرآني للتقدم العلمي ومحاولة التكلّف لإثبات أنّ النص القرآني يحتوي على أحدث ما يتوصل إليه العلماء في عصرنا، ونحن لسنا ضد بيان الاعجاز العلمي في القرآن الكريم ولكن ضمن حدود لايجوز تجاوزها.

ووضح هدفه من هذه الدراسة وهو محاولة التوصل إلى مقاييس جمالية لأنواع من الفنون كنا غافلين عنها، على الرغم من أنّ القرآن الكريم حافل بكثير منها، ولها نظائر في الحديث النبوي لكنها ظاهرة خافتة جداً في الحديث النبوي وهذا دليل على اختلاف المصدر في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف. كما أنّ هذه الظاهرة خافتة في الشعر العربي[٢] ، ولكنا نجد لها أثراً في مقامات بديع الزمان الهمذاني وبخاصة في بداية المقامة البغدادية عندما قال على لسان عيسى بن هشام: "اشتهيت الأزاد وأنا ببغداد... فخرجت انتهز محاله، حتى أحلني الكرخ، فإذا أنا بسوادي يسوق بالجهد حماره...، فقلت ظفرنا والله بصيد. وحياك الله أبا زيد من أين أقبلت؟ وأين نزلت؟ ومتى وافيت... الخ فنراه يضم كلامه الثاني المُوَجّه إلى السوادي إلى كلامه الأول الذي قاله في نفسه؛ وذلك لينقلنا من التقديم بالرواية على لسان الراوي إلى مسرح الأحداث المعروضة وكأننا نشاهدها رأي العين ونسمع أطرافها وهم يتجاورون أمامنا[٣] . ولا نستبعد أن يكون قد استمد هذا الأسلوب من طريقة القرآن الكريم عند وصف انتقال المتكلم من الإسرار إلى الجهر دون قطع الكلام بسرد ما يوضح هذا الانتقال، ومثاله قوله تعالى على لسان ابراهيم في أثناء حواره مع قومه لاقناعهم بترك عبادة الأصنام ﴿قال بل ربكم رب السموات والأرض الذي فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين، وتا لله لأكيدنّ أصنامكم بعد أن تُولوا مدبرين﴾[٤] فالقول الأخير لابراهيم -عليه السلام- مما قاله في نفسه لأنه لم يكن من مصلحته تحديهم صراحة، والإعلان عما سيفعله بأصنامهم؛ لأنهم حتماً سوف يتصدون له فالحذف

---

(١) فضل حسن عباس، القصص القرآني، ٢١.

(٢) كاظم الظواهري، ١٦-١٨.

(٣) السابق، ١٨.

(٤) سورة الأنبياء، الآيتان ٥٦-٥٧.

هنا كان ضرورياً؛ لأنّ بتر السياق بقول (وأسرها في نفسه) مثلاً اتهام للقارئ بالغباء[١]؛ لأنّ هذا هو المفهوم من السياق.

ولو قارنا ما ورد في قصة إبراهيم هذه بما ورد في قصة يوسف في قوله تعالى ﴿قالوا إنْ يسرق فقد سرق أخ له من قبل فأسّرها يوسف في نفسه ولم يبدها لهم قال أنتم شر مكاناً والله أعلم بما تصفون﴾[٢] للاحظنا أنه تمّ التصريح بعبارة "ولم يبدها لهم" بعد قوله "فأسرّها يوسف في نفسه" فلماذا ذُكرت هذه العبارة؟ على الرغم من أنّ القارئ يُدرك أنّ يوسف -عليه السلام- لم يُصرّح بما جال في نفسه أمام إخوته، ويمكن حذفها طلباً للايجاز، والسبب في ذكرها لأنّ الله -سبحانه وتعالى- يريد التوضيح للسامع أنّ خطة يوسف -عليه السلام- وتدبيره المُحكَم لايمكن أن يتعرّض للفشل إثر انفعاله واستثارته بما رُمي به بعد أن اتهموه بالسرقة؛ لأنّ اي انفعال سيظهره يوسف لهم، كفيل بلفت انتباههم[٣]. وكتمان مشاعره أمامهم فيه متعة وإثارة وتشويق للقارئ ليعرف ماذا حدث بينهم بعد ذلك.

وهذان النصان يوضحان أنّ الحذف ليس دائماً للايجاز، بل له أغراض تختلف باختلاف النص وما يتطلبه المقام. فالحذف يكون لحكمة، وكذلك الذكر لحكمة كما في قوله تعالى ﴿قال أأسجد لمن خلقت طيناً قال أرأيتك هذا الذي كرّمت عليّ لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكنّ ذريته إلا قليلاً﴾[٤] فقد ذكر الفعل (قال) في موضعين مع أنّ القائل هو إبليس وأصبح معروفاً للقارئ من الآية الأولى ولعل السبب في ذلك أنّ ابليس بعد أن ردّ على استفسار رب العزة عن سرّ امتناعه عن السجود "أأسجد لمن خلقت طيناً" لم يجرؤ على الجهر بمقالته ﴿أرأيتك هذا الذي كرّمت عليّ لئن أخرتن لأحتنكن ذريته إلا قليلاً﴾وبما أنه يتحدث أمام رب العزة الذي يعلم السّر وما أخفى فهو مُطّلع على ما في نفس ابليس، وردّ على مقالته كما لو كان قالها جهراً؛ ليعلم ابليس قدرة ربه، ولنعلم نحن أنّ الله -سبحانه وتعالى- يعلم ما نسرّ وما نعلن، وهذا يكون من الأهداف التي سعت الآيات إلى

---

(١) كاظم الظواهري، بدائع الاضمار، ٢٠٥.

(٢) السورة يوسف، الآية ٧٧.

(٣) كاظم الظواهري، بدائع الإضمار، ٢٠٤.

(٤) السورة الاسراء، الآيتان ٦١-٦٢.

بيانها[١] وهذا التفسير منسجم مع ما ورد في سورة الإسراء[٢] من تركيز على بيان قدرة الله -سبحانه وتعالى- على علم الغيب من مثل قوله ﴿ربكم أعلم بما في نفوسكم﴾ وقوله ﴿وربك أعلم بمن في السموات والأرض﴾ وهذا يبين لنا أننا نجد في القصص القرآني توجيهاً وارشاداً للمسلمين وبيانا لدلائل قدرته سبحانه وتعالى.

وفهمنا لظاهرة الحذف في القرآن ووظيفته التي يؤديها في النص القرآني، يجنبّنا البحث عن المعلومات التي لم يتم ذكرها في النص القرآني من مصادر أخرى؛ لأنه لو كان في ذكرها حكمة إلهيّة أو فائدة بلاغية لما حُذفت من النص القرآني، وهذا ما غاب عن أذهان بعض المفسرين القدماء الذين كانوا يحاولون بشتى الوسائل الحصول على المعلومات التي لم يتم ذكرها اعتقاداً منهم أنّ هذا يساهم في فهم القصص القرآني.

وإذا ما جعلنا النص القرآني هو الأساس عند دراستنا وتحليلنا فإننا سنتوصل إلى نتائج صحيحة، تساهم في فهم دلالة القصص القرآني كما في قوله تعالى ﴿ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب وأن الله لايهدي كيد الخائنين، وما أُبرّئ نفسي إنّ النفس لأمّارة بالسوء إلا ما من رحم ربي إنّ ربي غفور رحيم﴾[٣] حيث اعتقد بعضهم أنّ هذا القول قول يوسف -عليه السلام- وبالتالي قاموا بتفسير دلالة هذه العبارات وبيان غرض يوسف من النطق بها مع أنّ طبيعة المشهد تأبى أنّ يكون هذا القول ليوسف -عليه السلام- إذ ثبت أنه لم يرد في القرآن قول نُسب إلى غائب عن المشهد وحُذف لفظ القول من صدره، بل لابدّ من اثباته، لئلا يلتبس على الناس[٤] المقصود منه. فيستتبع الخطأ في الفهم خطأ آخر يتمثّل في كيفية تأويله وبيان المقصود به مما يؤدي إلى التكلّف، وإلى تشعّب الآراء وتعددها.

والمتتبع للقصص في القرآن الكريم يلاحظ بروز سمة الحذف فيه[٥] ، وتمتاز قصتا موسى ويوسف -عليهما السلام- بكثرة المشاهد المحذوفة فيهما، التي يمكن للقارئ بخياله أن يتصور تتمة المشاهد المحذوفة، ومن الأمثلة على ذلك ما ورد في سورة طه،

---

(١) كاظم الظواهري، بدائع الاضمار، ٢٠٦.

(٢) ينظر على سبيل المثال الآيات: ١، ١٧، ٢٥، ٣٠، ٤٧، ٥٤.

(٣) السورة يوسف، الآيتان ٥٢-٥٣ وفي سورة النمل، الآيتان ٤٢-٤٣.

(٤) كاظم الظواهري، بدائع الاضمار، ١٩.

(٥) ينظر الحديث عن مشهد تكليم الله موسى -عليه السلام- في سور: طه والشعراء ومريم.

حيث تمّ الانتقال من الوادي المقدّس طوى وما جرى فيه من أحداث إلى بلاط فرعون وحوار موسى معه[١] ، ولاحظنا أنّ الانتقال بين المشهدين تمّ مباشرة على الرغم من اختلاف المكانين والفارق الزمني بينهما، ولاشك أنّ هناك للمزيد من الأحداث جدثت بين المشهدين وحوارات كثيرة دارت بين موسى وأهله لحظة مقابلتهم له بعد غيابه الطويل عنهم، ثم حديثه مع أخيه هارون ليذهبا معاً إلى فرعون ثم كيفية دخولهما قصر فرعون وكيف سُمحَ لهما بمقابلته ومواجهته بالنبوة، وقد حُذفت هذه الأحداث والتفاصيل؛ لأنها من الأحداث اليومية التي تجري بين الناس العاديين ولاعلاقة لها بالدعوة.

ولو قرأنا المشهد نفسه في سورة الشعراء للاحظنا أنّ الحذف تمّ أيضاً في معظم الحوار الذي دار بين الله -سبحانه وتعالى- وموسى -عليه السلام- في الوادي المقدّس وتمّ تلخيصه في قوله تعالى ﴿وإذ نادى ربك موسى أن ائت القوم الظالمين﴾[٢] اعتماداً على أنّ القارئ يمكنه معرفة الحوار من خلال قراءته لسورة طه[٣] التي جاء الحديث فيها مُفصّلاً.

ولو تتبعنا المشهد نفسه في سورة مريم مثلاً للاحظنا أنه جاء مختصراً جداً في ثلاث آيات فقط[٤] ولكن لم تُغفل الأحداث المهمة التي تحدثت عنها المشاهد المطولة في السورتين السابقتين.

وفي قصة يوسف -عليه السلام- نجدُ حذفاً بين المشاهد منها: عندما روى الملك رؤياه وتطوع أحد أفراد حاشيته -وهو المسجون الذي بشّره يوسف -عليه السلام- بالنجاة، وبالعمل عند الملك- بالذهاب إلى يوسف والطلب منه تفسير رؤيا الملك، وتبدأ الآيات بقوله تعالى ﴿وقال الذي نجا منهما وادّكر بعد أمة أنا أنبئكم بتأويله فارسلون، يوسف أيها الصديق افتنا في سبع بقرات سمان... يعلمون﴾[٥] ففي الآيتين السابقتين تمّ الانتقال من القصر إلى السجن ويعني ذلك أنه قد تمت موافقة الملك وسمح له بالذهاب كل هذا فُهم

---

(١) كاظم الظواهري، بدائع الإضمار، ١٣٩-١٤٢.

(٢) السورة الشعراء، الآية ١٠.

(٣) السورة طه، الآيات ٩-٣٦.

(٤) السورة مريم، الآيات ٥١-٥٣.

(٥) الآيات ، ٤٥-٤٦ و ٥٠-٥٣.

ولمزيد من التفاصيل ينظر سيد قطب، في ظلال القرآن، ٧٢١/١٢، ٧٣١ و ٣١/١٣، ٤١ و ٤٥/١٦.

ضمناً من السياق دون ذكره. واتضح من الأمثلة السابقة كيف كان للتنقّل بين عدة أمكنة وأزمنة دور في اضفاء المتعة والتشويق على الأحداث.

وقد يجيء الحذف لتحقيق غايات أخرى -لاعلاقة لها بالايجاز- كالحذف الذي نجده في قوله تعالى ﴿فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيي الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون﴾(١) والخطاب مُوَجّه لبني اسرائيل عندما أمرهم الله -سبحانه وتعالى- ذبح بقرة لمعرفة القاتل، وعلى الرغم من أنّ ظاهر القصة يبين أنّ المطلوب كان الكشف عن القاتل، فإنّ هذه الجزئية قد حُذفت من القصة ووجّهت الآية نحو الحكمة الأهم وهي بيان قدرته -سبحانه وتعالى- على إحياء الموتى، عندئذ تصبح معرفة القاتل أمراً تافهاً، فالله إذن يريد توجيه بني إسرائيل إلى ما قد غفلوا عنه من قدرة الله وهم يحسبون أنه يعجز عن معرفة القاتل، فإذا هو يحيي لهم القتيل نفسه(٢) .. فالحذف إذا ما اقتضاه المقام يؤدي الغرض المطلوب منه، وكذلك الحال بالنسبة إلى الاطناب، وهذا من بلاغة القرآن الكريم، وفي القصة نفسها نلاحظ أنّ الآيات القرآنية قد ساقت لنا الحوار كاملاً -على الرغم من طوله- الذي دار بين موسى -عليه السلام- وقومه عندما أخبرهم أنّ الله -سبحانه وتعالى- يأمرهم بذبح بقرة لمعرفة القاتل، والهدف من الاطاله هنا لبيان حقيقة بني اسرائيل وما يتمازون به من كثرة الجدال والعناد(٣) ، فهاهم يسألون عن ماهيّة البقرة(٤) ، وكلما أجابهم موسى -عليه السلام- عن استفسارهم يسألون سؤالاً جديداً عن لونها وآخر عن صفاتها وشكلها بحيث أصبح المطلوب منهم -نتيجة لجدالهم- ذبح بقرة مميزة بصفات خاصة بها، ولا يجوز ذبح أي بقرة مكانها، بينما كان المطلوب منهم في البداية ذبح بقرة بدليل قوله تعالى ﴿وإذ قال موسى لقومه إنّ الله يأمركم أن تذبحوا بقرة قالوا أتتخذنا هزوا قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين﴾(٥) ونلاحظ أنّ كلمة بقرة جاءت نكرة وبالتالي لو ذبحوا أي بقرة لتمّ تلبية ما كلّفهم الله، ولكنهم دفعوا ثمن عنادهم فتشدد الله معهم وضيّق عليهم بحيث لم يعد مقبولاً

---

(١) السورة البقرة، الآية ٧٣.

(٢) كاظم الظواهري، بدائع الإضمار ١٠٧ وسيد قطب، في ظلال القرآن، ١/ ٨٩.

(٣) السابق، ١٠٧ والسابق، ١/ ٨٩.

ومحمود البستاني، ١٩٨١، دراسات فنية في التعبير القرآني، ط١، مطابع الكرمل الحديثة، بيروت، ١٩٣.

(٤) السورة البقرة، الآيات ٦٨-٧٠.

(٥) السورة السابقة، الآية ٦٧.

منهم إلا ذبح بقرة محددة بصفات خاصة بها. ولو قارنا هذا الموقف من بني اسرائيل مع موقف المسلمين الذين كانوا يسارعون إلى الالتزام بما يرد في القرآن ولا يكتفون بذلك بل نراهم يسألون الرسول -عليه السلام- عن أمور لم يكن الاسلام قد أصدر حكماً بشأنها؛ ليلتزموا بها لأدركنا الفرق بين مبدأ كل منهم في الحياة.

وهذا يبيّن أنّ المشاهد في القرآن كانت تزاوح ما بين الطول والقصر حسبما يقتضيه المقام، فحيناً يختصر الأحداث، ويعرضها عرضاً سريعاً تُطوى فيه التفاصيل وتُغني فيه الاشارة اللامحة، واللمحة الدالة عن العبارات المطولة، وأحياناً يُفصّل الأمر تفصيلاً، حيث لايكون غير الكلمة ما يُغني غناءها ويسد مسدها[١] وعلى سبيل المثال نلاحظ أنّ قصص الأنبياء الواردة في سورة العنكبوت يغلب على مشاهدها التلخيص، ولو بحثنا عن السبب لوجدنا أنها نزلت متأخرة[٢] ؛ ولهذا فهي كانت تتحدث عن قصص باتت معروفة للمسلمين؛ ولهذا فالعبارة الموجزة هنا تكفي ولا يوجد داع لتفصيل قصص أضحت تفاصيلها معروفة منذ زمن.

---

(١) عبدالكريم الخطيب، القصص القرآني، ١٢٤.

(٢) فضل حسن عباس، القصص القرآني، ٣٩.

التناسب في القصص القرآني

وهذه إحدى المزايا الفريدة التي تميّز القصص القرآني، وتتبدى هذه الظاهرة في عدة أوجه منها:

لو حللنا القصص القرآني حسب تاريخ النزول لوجدنا أنّ ما نزل من القصص القرآني في أوائل الدعوة كان يمتاز بعرض أحداث القصة في منتهى الايجاز، والفواصل القصيرة والتركيز على الأقوام الذين حلّ بهم العذاب؛ لأنّ الغرض الأول في هذه المرحلة كان يتمثّل في تحذير مشركي مكة من عنادهم والاصرار على الباطل حتى لايلاقوا مصير هذه الأمم(١) ومن الأمثلة على ذلك ما ورد في سورة الفجر(٢) حيث نجد حديثاً أشبه بالبرقيات عن هلاك ثمود وقوم فرعون إذ تمّ تلخيص ذلك بقوله تعالى ﴿فصبّ عليهم ربك سوط عذاب، انّ ربك لبالمرصاد﴾(٣) وخلت هذه الآيات من الاشارة إلى المحاورات التي دارت بين الأنبياء وأقوامهم، كما في سورتي الفجر والفرقان. وهذا الحديث كان يتناسب مع أجواء الدعوة الإسلامية في ذلك الوقت.

وإذا ما خطت الدعوة خطوة أخرى نجد اختلافاً في طريقة التعبير، حيث نجد الاكثار من الحوار وإطالة المشاهد وذكر التفاصيل، وذلك لإثارة التفكير والتأمل مما جرى للأمم السابقة(٤) ومن أمثلة ذلك الحوار الطويل الذي دار بين موسى -عليه السلام- وفرعون من جهة وبينه وبين السحرة من جهة أخرى الذي حدثتنا عنه سورة طه(٥). وتبيّن لنا السورة كذلك أنّ الله -سبحانه وتعالى- ينصر أنبياءه ويقف بجانبهم في أثناء مواجهتهم لأعدائهم. والعذاب الذي يُنزله بأعدائه عندما يستحقون ذلك. والقرآن الكريم يختار اللقطات المهمة وذات الدلالة من الحوار الذي كان دائراً بين الأنبياء وأقوامهم فيذكرها لنا.

---

(١) التهامي نقرة، سيكولوجية القصة، ٩١.

(٢) الآيات، ٦-١٤.

(٣) السورة الفجر، الآيتان ١٣-١٤.

(٤) التهامي نقرة، سيكولوجية القصة، ٩٢.

(٥) الآيات، ٤٩-٧٩.

ثم أخذت الآيات تميل للاختصار والتلخيص فيما بعد؛ لأنّ القصص القرآني أصبح معروفاً لدى المسلمين وقد اطلعوا عليه من خلال السور السابقة فسورة العنكبوت -مثلاً- حدثتنا عن المشاهد الأخيرة من الصراع الذي كان دائراً بين الأنبياء وأقوامهم لأخذ العبرة والعظة منها.

وللسياق دوره البارز في تحديد القدر الذي يُعرض من القصة في كل موضع تفي بحاجة ذلك الموضع، ففي المشهد الخاص بقصة نوح الوارد في سورة يونس[١] لم يتم الحديث فيه عن قصة السفينة وكيفية صنعها، وصعود المؤمنين إليها، والطوفان وماذا حدث في الكرة الأرضية، واكتفى بذكر الحلقة الأخيرة منها؛ لأنّ الهدف هو ابراز التحدي والاستعانة بالله وحده. ونجاة الرسول ومن معه وهم قلة، وهلاك المكذبين له. وهم أكثر وأقوى؛ لذلك يختصر السياق هنا تفصيلات القصة في حلقة واحدة[٢] .

بينما خُتمت قصة بني إسرائيل الواردة في سور طه -وهي الخاصة بعبادتهم للعجل عندما ذهب موسى -عليه السلام- لتلقي الألواح- خُتمت بقوله تعالى ﴿إنما الهكم الله الذي لا إله إلا هو وسع كل شيء علماً﴾[٣] ولم يزد السياق شيئاً بعد ذلك عن مراحل القصة؛ لأنه بعد ذلك يحل العذاب ببني اسرائيل لما ارتكبوه من آثام وطغيان، وبما أنّ جو سورة طه كان جو الرحمة أو رعاية الله لعباده المؤمنين، فلا حاجة إلى عرض مشاهد أخرى من القصة في هذا الجو الظليل[٤] وهذان المثالان يثبتان أنّ القصة في السورة تتناسب مع موضوعها والهدف الذي تسعى إلى تحقيقه.

كما يُحدد السياق طريقة العرض والأداء بما يحقق التناسق والجمال الفني، ومن الأمثلة الدالة على ذلك ورود قصة موسى مع فرعون مُفصّلة في سورة الأعراف[٥] ضمن مجموعة من قصص الأنبياء وكانت تُصور الصراع الدائر بينهم وبين أقوامهم. ومثل هذا الموقف يتطلب التفصيل والاطالة بينما وردت هذه القصة نفسها في سورة

---

(١) الآيات، ٧١-٧٣.

(٢) سيد قطب، في ظلال القرآن، ١١/٤٦٠-٤٦١.

(٣) السورة طه، الآية ٩٨.

(٤) سيد قطب، في ظلال القرآن، ١٦/ ٤٩٤ و ١١/٤٧١ و ١٤/١٩٩ ، ٢١٠، ٢١٦.

(٥) الآيات، ١٠٣-١٤١.

الذاريات[١] ضمن مجموعة من قصص الأنبياء أيضاً، ولكن الحديث هنا كان عن مصير أقوام هؤلاء الأنبياء عندما عصوا أمر الله -سبحانه وتعالى- وهذا يتطلب تجنّب ذكر التفاصيل للوصول سريعاً إلى بيان سوء عاقبتهم وأخذ العبرة والعظة من موقفهم[٢] فمقتضى البلاغة يتطلب ذكر الكلام وفق ما يتطلبه المقام وهذا ما تحقق في هاتين السورتين.

وهناك نوع آخر من التناسب يمكن تسميته التناسب في إبراز عناصر القصة وكلنا يعرف أنّ للقصة بالمفهوم الأدبي مقومات ينبغي توفرها، ولا خلاف بين الباحثين أنّ القصص القرآني لاتتوفر فيه كل مقومات القصة بالمفهوم الأدبي؛ لأنّ الغرض والغاية من إنشائهما مختلفة، وإن توفرت بعض عناصر القصة الأدبية في القرآن فلا يعني ذلك أنّ القصص القرآني يلتزم بهذه المعايير التزاماً تاماً.

والمقاصد التي يُوحي بها السياق هي التي تُوجّه أسلوب العرض في القرآن وتتحكم في ترتيب الأحداث وتسليط الأضواء على العنصر المراد ابرازه[٣] . فمثلا قد يكون القصد الانذار والترهيب فيبرز عنصر الأحداث كما في سورة الحاقة[٤] التي ركزت على بيان العذاب الذي حلّ بأقوام بعض الأنبياء الذين فسقوا عن أمر ربهم، ولم يؤمنوا، ثم الحديث عن أهوال يوم القيامة ومصير الناس. وإذا ما كان القصد تثبيت الرسول -عليه السلام- والمؤمنين على مبادئ الدين والصبر والتحمّل عندئذ يبرز عنصر الأشخاص كما في سورة الأنبياء[٥] التي ذكرت أسماء الأنبياء في أثناء الحديث عن المعاناة التي واجهت بعض الأنبياء وهم يدعون أقوامهم. ثم بيان أنّ الله-سبحانه وتعالى- يؤيد عباده المؤمنين بنصره وينجيهم على مرّ العصور ويبرز عنصر الحوار؛ ليروي لنا ما دار بين بعض الأنبياء وأقوامهم من جدال ونقاش، وإذا كان الغرض إقامة الحجة والإقناع أو بيان وجهة نظر الطرفين المتحاورين، أو التعريف بإحدى الشخصيات ثم

---

(١) الآيات، ٣٨-٤٠.

(٢) التهامي نقرة، سيكولوجية القصة، ١٤١.

(٣) السابق، ٩٣-٩٥.

(٤) الآيات، ٤-٨، ١٣-١٧.

(٥) الآيات، ٥١-٧١، ٧٤-٧٧، ٨٣-٩٠.

التعقيب على مواقفها كما في سورة هود[١] التي حدثتنا عن الحوار الذي دار بين نوح- عليه السلام- والملأ من قومه أولاً ثم بينه وبين عامة قومه وأخيرا بينه وبن ابنه الذي أراد اقناعه بالانضمام إليهم والنجاة من الغرق. وقد يكون الحدث والشخصية متساويين في الأهمية فيكمّل كلاهما الآخر ويتناوبان على مركز الاهتمام كما في قصة مولد موسى وتربيته في قصر فرعون[٢] حيث وجدنا ابراز شخصية المرأة المتمثلة في أمه واحساسها بالحزن والألم لرحيله وفي زوجة فرعون التي منعت فرعون من قتله. ومما هو جدير بالذكر أننا لانجد حدوداً فاصلة وقاطعة بين توظيف هذه العناصر في القصص القرآني. فالسياق القرآني هو الذي يحدد ذلك.

---

(١) الآيات ٢٥-٣٥، ٤٥-٤٧، ٦١-٦٦، ٧٧-٨٣.

(٢) السورة القصص، الآيات ٦-١٣.

قصة يوسف

حظيت هذه القصة بعناية الدارسين المعاصرين. وقد خصها بعضهم بمؤلفات خاصة بها[١] . ويعود هذا الاهتمام لما تمتاز به هذه القصة عن غيرها من القصص القرآني، فهي القصة الوحيدة التي وُصفت بأنها أحسن القصص[٢] . ووردت كاملة في موضع واحد ولم يتم اعادة الحديث عنها في موضع آخر، ووردت متسلسلة من حيث الزمن والأحداث التي حصلت مع يوسف -عليه السلام- من قصه الرؤية التي رأها على والده إلى الالقاء في البئر ثم بيعه في مصر إلى قصته مع امرأة العزيز فسجنه ثم وصوله إلى أعلى المناصب في الدولة. وكلها أحداث شائقة وممتعة وقلّما تحدث مجتمعة مع إنسان آخر، وهي بذلك لاتشبه قصة أي نبي من الأنبياء وهذا مما جعلها تُذكر في موضع واحد ومن الصعب تجزئتها إلى مشاهد، وعرضها في مواضع متفرقة.

ولذلك وجد فيها الباحثون عدة قضايا للبحث والدراسة منها:

مخالفة هذه السورة السُنة المتبعة في القصص القرآني في عدم العودة للحديث عنها مرة ثانية، وتفردّها ببعض الألفاظ والتعابير التي لم ترد في غيرها من السور القرآنية مثل: اطرحوه، غيابة الجب، يرتع، هيت، قدت، شغفها، حاش لله....، وببعض الصور البيانية مثل: يخل لكم وجه أبيكم، فهذه الصورة لم ترد إلا هنا. وفعل (يخل) لم يُستعمل مضارعاً إلا في هذه السورة[٣] . وغير ذلك من التعابير والتراكيب المبثوثة في ثنايا هذه السورة، وقلّما نجد نظائر لها في غيرها من السور القرآنية.

وعلى الرغم من أنّ هذه السورة من السور المكية -التي كانت تحمل في-الغالب- طابع الانذار والتهديد إلا أنها اختلفت عنها، فجاءت طرية ندية في أسلوب ممتع لطيف، يحمل جو الأنس والرحمة[٤] . كما أنها تُظهر قدرة الخالق -سبحانه وتعالى- في حماية عباده

---

(١) وقد قام الدكتور أحمد نوفل بتقييم لأهم الكتب المعاصرة التي بحثت في قصة يوسف -عليه السلام- في كتابه سورة يوسف دراسة تحليلية، ١٦-١٩.

(٢) السورة يوسف، الآية ٣.

(٣) أحمد نوفل، سورة يوسف دراسة تحليلية، ١٠-١١.

(٤) السابق، ١٤.

المؤمنين بعد أن يبتليهم ويمتحنهم؛ ليتناسب هذا المعنى مع الظروف التي كانت سائدة حين نزول هذه السورة التي نزلت تلبية لسؤال وجهه المسلمون للرسول -عليه السلام-.

وعند نظرنا في الأساليب التي عُبّر من خلالها عن المضمون الذي أراد الله -سبحانه وتعالى- ايصاله للمسلمين من خلال هذه القصة، لوجدنا أنّ هذه القصة تلتزم ضمير الغائب في التعبير، وضمير الغائب أقدر على التغلغل في أعماق الشخصيات المتعددة، وتقديم كل شخصية على حدة[١] ، كما في المشاهد التي روت لنا الحوار الذي دار بين إخوة يوسف -عليه السلام- وهم يتآمرون عليه، وحوارهم مع أبيهم وهم يطلبون منه السماح لهم باصطحاب يوسف معهم قبل تنفيذ المؤامرة[٢] .

وتلفتنا ظاهرة أساليب التوكيد التي أكثر إخوة يوسف -عليه السلام- من استخدامها؛ فهم كانوا يُتبعون قولهم بعبارة من مثل ﴿وإنا له لناصحون﴾[٣] ودلالة ذلك أنهم كانوا يشعرون في قرارة أنفسهم أنّ نواياهم ليست سليمة، وأنهم موضع شك فيحاولون ابعاد الشُبهة عن أنفسهم بأساليب التوكيد هذه، وكما نقول "يكاد المريب يقول خذوني" ومن أسطع الأمثلة على ذلك ما قاله الله -سبحانه وتعالى- على لسان إخوة يوسف ﴿قالوا لئن أكله الذئب ونحن عُصبة إنا إذاً لخاسرون﴾[٤] فها هم يلجأون إلى اللام الموطئة للقسم (لئن)، واللام الواقعة في (لخاسرون) والجملة المعترضة (ونحن عصبة) واسمية الجملة، وذلك ليزيلوا ما في نفس أبيهم من خوف على يوسف، ولاتبقى له علة يتشبث بها[٥] . ولبثّ مزيد من الاطمئنان في نفس أبيهم نلاحظ الضمير الدال على الجمع (نحن-إنا) وجمع المذكر السالم (خاسرون) ودلالة كلمة (عصبة) لبيان قوتهم ومقدرتهم على حماية أخيهم، وكان الوالد لديه احساس بأنهم يدبرون مكروهاً لأخيهم؛ لذلك عبّر أمامهم عن مخاوفه، لكنهم طمأنوه.

---

(١) أحمد نوفل، سورة يوسف دراسة تحليلية، ٥٣.

(٢) السورة يوسف، الآيات ٨-١٤.

(٣) السورة السابقة، الآيات ١١، ١٢، ١٤، ٦١، ٦٣، ٧٨، ٧٩، ٩١.

(٤) السورة السابقة، ١٤.

(٥) فتحي عبدالقادر فريد، من بلاغة القرآن، ٦٥.

بينما نجد الحديث عن الصبر والدعوة إليه وبيان فضله، وبثّ الشكوى والحزن إلى الله[١] على لسان يعقوب -عليه السلام- الذي كان بأمس الحاجة إليه، ليستطيع مواجهة الموقف الصعب الذي يرزح تحت عبئه.

ومن مظاهر الاعجاز البياني في القرآن الكريم أنه متناسق فقد قال الله تعالى ﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾[٢] وتظهر هذه السمة بصورة خاصة في سورة يوسف التي وجد فيها الدكتور أحمد نوفل ثمانية أوجه من التناسق منها: التناسق بين سورة يوسف وسورتي هود والرعد، والتناسق في الوحدة الموضوعية في تساوق أحداثها، والتناسق بين فاتحة السورة وخاتمتها [٣] . وحلل هذه الأوجه مبيناً مواطن الجمال فيها.

وتحدث الدكتور أحمد نوفل عن أربعة عشر مظهراً من مظاهر التناسق بين سورة يوسف وسورة هود[٤] ، بحيث بدت سورة يوسف متممة لما ورد في سورة هود. وهي تمثّل النموذج الكامل لمنهج الإسلام في الأداء الفني للقصة بقدر ما تمثّل الأداء الصادق الرائع بصدقه العميق وواقعيته السليمة. المنهج الذي لايهمل خلجة بشرية واقعية واحدة[٥]. ولهذا استحقت هذه السورة الدراسات الكثيرة التي درستها.

---

(١) السورة يوسف، الآيات ١٨، ٦٤، ٦٦، ٦٧، ٨٣، ٨٤، ٨٦، ٨٧.

(٢) السورة النساء، الآية ٨٢.

(٣) أحمد نوفل، ٨٧-١٢٣.

(٤) السابق، ٨٧-٩١ وفتحي عبدالقادر فريد، من بلاغة القرآن، ٤٣.

(٥) سيد قطب، في ظلال القرآن، ٦٣٣/١٢-٦٥٥.

ولمزيد من التفاصيل عن بلاغتها يُنظر تفسير سيد قطب لها، لما فيه من نظرات قيمة.

تأملات في الخصائص الفنية في القصة القرآنية

تتميز القصة في القرآن الكريم بأنها تمتزج بموضوعات السورة التي ترد فيها امتزاجا عضويا لامجال للفصل بينها وبين غيرها من موضوعات السورة[١] . بحيث لو حذفنا القصة من موقعها الوارد في السورة لاختلّ المعنى؛ لأنّ القصة تساهم في بيان مضمون النص وايضاحه للقارئ، فلو حذفنا قصة الغراب[٢] التي وردت في أثناء الحديث عن قصة ابني آدم (قابيل وهابيل) لما استقام المعنى؛ لأنّ الغرض من ذكر قصة الغرابين كان لحكمة إلهيّة لبيان كيفية دفن الموتى.

والقصة لاترد في القرآن الكريم إلا إذا تطلبها المقام، واقتضت البلاغة ذكرها، ويُذكر الجزء الذي له علاقة بموضوع السورة، ولا تُذكر القصة كاملة. ولهذا خلت سورتا الأعراف وهود من الحديث عن قصة إبراهيم -عليه السلام- على الرغم من أنّ السورتين تحدثتا عن قصص الأنبياء.

وقد يكون الدافع من ذكر القصة في السورة بيان قدرة الله -سبحانه وتعالى- كما في قصة أهل الكهف[٣] ، وقصة إحياء الموتى[٤] ، كما في سورة البقرة، فاستدعى المقام التذكير بقدرة الله وقد جاء الحديث عن قدرة الله -سبحانه وتعالى- ضمن السياق والجو العام الذي يتناسب مع موضوع السورة.

وإذا ما تأملنا مقدمة القصة القرآنية فإننا نجد أن الخطاب -في الغالب- يكون موجهاً للنبي -عليه السلام- دلالة على أن هذه القصة تُساق لأجله ولأجل دعوته، إمّا لتثبيته ولتأييد دعوته بسوق معجزة جديدة من خلال هذه القصة، وإمّا لردع معانديه وتخويفهم[٥]. كما في قوله تعالى ﴿نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون﴾[٦] ومن خلاله -عليه السلام- كان الحديث يوجه لعامة المؤمنين.

---

(١) كاظم الظواهري، بدائع الإضمار، ٢٧.

(٢) السورة المائدة، الآية ٣١.

(٣) السورة الكهف، الآيات ٩-٢٦.

(٤) السورة البقرة، الآيتان ٢٥٩-٢٦٠.

(٥) كاظم الظواهري، بدائع الإضمار، ١٠٢ وسيد قطب، في ظلال القرآن ٣/٥٨٤، ٥٩٧ و ١٦/٤٦٠-٤٦١.

(٦) السورة القصص، الآية ٣ وفي سورة يوسف، الآية ٣ وفي سورة الكهف، الآية ١٣.

وتمتاز بالبداية المُشوقة كما في سورة الفيل[١] التي ابتدأت بسؤال مثير للاهتمام ﴿ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل﴾ فالعرب يعرفون أنّ لعنة الله قد حلّت بأصحاب الفيل ولكنهم بحاجة إلى مزيد من التفاصيل، ثم ذُكرت نهاية القصة في بدايتها ﴿ألم يجعل كيدهم في تضليل﴾ وما زال الاستفهام قائماً وكيف كان ذلك؛ فجاءت الإجابة في ثلاث آيات قصيرة مركزة ﴿وأرسل عليهم طيراً أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول﴾ وهكذا وُصفت واقعة الفيل أبلغ وصف، واختُتمت بنهاية محكمة أشد الإحكام[٢] وروعة القصة القرآنية هنا ليست في جدة موضوعها، فهي قصة معروفة عند العرب ومتداولة بينهم، فهي حدث كان مميزاً ولا يمكن نسيانه، ولكن روعتها في الروح الجديدة التي عُرضت من خلالها[٣] وفي الأسلوب الموجز البليغ فهي تتحدث عن حدث عظيم قدّم مختصراً في خمس آيات.

ونجد التنويع في المقدمات فسورة الكهف ابتدأت بذكر ملخص كامل لوقائعها[٤] ، ولكن هل أطفأ هذا الملخص الرغبة في معرفة تفاصيل هذه القصة؟ وبالتالي أفسد التشويق عند القارئ؟ والاجابة لابدليل قوله بعد ذلك ﴿نحن نقص عليك نبأهم بالحق إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى﴾[٥] والقارئ يتلهف لمعرفة سبب ذهاب هؤلاء الفتية إلى الكهف وماذا حدث معهم بعد ذلك.

وابتدأت سورة يوسف بالتشويق الذي بلغ أعلى درجات الاثارة ففي مستهل القصة وصف الله -سبحانه وتعالى- القصص القرآني بأحسن القصص الذي يُخرج الناس[٦] من غفلتهم.

ثم انتقلت للحديث عن الرؤيا التي رآها يوسف -عليه السلام- وهذه وحده كفيل بإثارة اهتمام القارئ، وشوقه لمعرفة تفسير هذه الرؤيا، وبدلاً من تفسيرها إذا بالآيات تحدثنا عن تحذير يعقوب -عليه السلام- لابنه من رواية هذه الرؤيا لإخوته. وبعد هذا الاستهلال الرائع

---

(١) السورة الفيل، الآيات ١-٥.

(٢) محمد كامل حسن المحامي، ١٩٧٠، القرآن والقصة الحديثة، ط١، دار البحوث العلمية، ٣٢-٣٣.

(٣) الشهامي نقرة، ٤٩١.

(٤) السورة الكهف، الآيات ٩-١٢ وفي سورة القمر الآيات ١٨-٢١ وفي سورة الحجر الآية ٦٦.

(٥) السورة السابقة، الآية ١٣.

(٦) السورة يوسف، الآية ٣.

للقصة، إذا بالآيات تعود بنا إلى الماضي لتحدثنا عن تآمر إخوة يوسف عليه[١] . ثم تتسلسل الآيات في قص قصته كاملة منذ طفولته.

وهذا ينقلنا بدوره إلى الحديث عن المفاجآت الفنية في القصة القرآنية[٢] التي تتميز بتنوّع الأساليب التي كانت تُقدّم من خلالها. فقد يكتم القرآن سر المفاجأة عن بطل القصة والقرّاء حتى ينكشف لهم الأمر في آن واحد في نهاية القصة، وفي هذا تشويق للقارئ حتى يُتم القصة ويعرف نهايتها كما في قصة موسى -عليه السلام- مع العبد الصالح[٣] بينما في قصة ملكة سبأ كان السر معروفاً للقارئ في كيفية مجيء العرش إلى حيث سليمان -عليه السلام- بينما هي لم تكن تعرف والدليل على ذلك قولها عندما رأته كأنه هو لأنها لمست تشابهاً كبيراً بينه وبين قصرها[٤] ، فسرد هذه الأحداث بهذه الطريقة فيه إثارة لاهتمام القارئ وتشويقه.

ويرى محمود السيد حسن أنّ كثيراً من الباحثين قد غفل عن دراسة ظاهرة "اصابة المعنى" في القصص القرآني، والمقصود بها الدقة في انتقاء الألفاظ وحسن الإختيار؛ ولهذا توقف عند دلالة بعض الألفاظ الواردة في قوله تعالى ﴿قالوا نحن أولو قوة وأولو بأس شديد والأمر إليك فانظري ماذا تأمرين﴾[٥] من مثل دلالة الضمير (نحن) وقولهم (أولو قوة) و(الأمر إليك) مبيناً الغاية البلاغية الكامنة وراء استخدام هذه الألفاظ في هذا النص[٦].

ويمتاز القرآن الكريم بالدقة في اختيار الكلمات التي تحمل دلالات عميقة، وتعبّر عن أحداث كثيرة، بأقل عدد من الكلمات كما في كلمة (تذودان) الواردة في قوله تعالى ﴿ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان قال

---

(١) محمد كامل حسن المحامي، القرآن والقصة الحديثة، ٣٨-٣٩، ومحمد علي أبو حمدة، ص ١٩٨، في التذوق الجمالي لسورة يوسف، دار البشير، عمان ٢٩-٣٠.

(٢) السورة الكهف، الآيات ٦٥-٨٢.

(٣) سليمان الطراونة، ١٩٩٢، دراسة نصية (أدبية) في القصة القرآنية، ط١، ١٠٩-١١١.

(٤) السورة النمل، الآيات ٣٨-٤٤.

ولمزيد من التفاصيل عن مقدمات القصة في القرآن والمفاجآت الواردة فيها ينظر: في ظلال القرآن على سبيل المثال: ٣٩٩/٥ و ٢١٣/١٥ ، ٣٧٧.

(٥) السورة النمل، الآية ٣٣.

(٦) كاظم الظواهري، بدائع الإضمار، ٨٦-٨٧.

ما خطبكما قالتا لانسقي حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير﴾[١] فهذه الكلمة بيّنت أنّ الفتاتين كانتا تحبسان أغنامهما وتمنعانها من الاختلاط بأغنام الآخرين، فيدّعي أحدهم أنها له. وهذا يعني أنهما كانتا تنتظران -لضعفهما- حتى يخف الزحام فتسقيان أغنامهما، وأنّ أغنامهما كانت تريد الذهاب إلى مورد الماء مع سائر الماشية فكانتا تمنعانها، وهذه الكلمة ساهمت في تخيلنا للموقف وما فيه من حركة والدوافع النفسية التي تدفعهما للتصرف بهذه الطريقة كل ذلك لخصه القرآن الكريم في كلمة واحدة وهي (تذودان)[٢] ولا شك أنّ هذه الكلمة أيضاً تكشف عن نفسية هؤلاء القوم الذين كان يسيطر عليهم حب الذات، والحرص على مصالحهم الخاصة بهم دون الالتفات إلى حاجة الآخرين للماء وعدم مراعاتهم لضعف هاتين الفتاتين وكبر سن والدهما؛ ولذلك لفت هذا المشهد انتباه موسى -عليه السلام- وأثار تعجبه،ولمّا عرف القصة سقى لهما. وهذا يدل على حسن خلقه-عليه السلام- .

ونجد الأمر نفسه في الآيات ٢٤-٣٢ من سورة عبس حيث جمعت هذه الآيات في سرد رائع كل ما يمكن أن ينبت على وجه الأرض من مزروعات تفيد الإنسان، والدواب التي سخرها الله -سبحانه وتعالى- للإنسان، فكلمة (الحب) تشمل القمح والشعير والذرة والقضب فهو كل ما يُقضب من النبات كالقثاء وسائر البقول، والأب كل ما تنبته الأرض من عشب سواء ما يأكله الناس كالحصيد أو ما تأكله الدواب، ودلالة العنب والزيتون والنخيل واضحة ومفهومة، أمّا الحدائق الغُلبا فهي الحدائق بما فيها من أشجار غليظة وغير غليظة[٣] . فالآيات السابقة تُبيّن لنا كل ما يحتاجه الإنسان من طعام لقوام حياته، وحياة دوابه. وكذلك الفاكهة على مختلف أنواعها وكذلك الراحة النفسية والتمتع بالجمال.

ومما يثبت أنّ القرآن الكريم يميل إلى اختيار الألفاظ القليلة الكلمات الكثيرة المعنى والدلالات أننا نجد قصة قصيرة بليغة مركزة[٤] عن قوم عاد في الآيات ١٨-٢٠ سورة القمر. فهذه الآيات القصيرة تحدثنا عن تكذيب قوم عاد، والعذاب الذي حلّ بهم نتيجة لتكذيبهم والذي لم يبقِ على أحد جزاءً وفاقاً.

---

(١) السورة القصص، الآية ٢٣.

(٢) محمد كامل حسن، القرآن والقصة الحديثة، ٥١، ١٢٠-١٢١.

(٣) السابق، ١٢٩.

(٤) السابق، ١٢-١٤.

ومما يلفت الانتباه شيوع لفظة (ألقى) ومشتقاتها في قصة موسى وقد أحصيت أربعة وعشرين موضعاً وردت فيه، منها ثمانية في سورة طه وحدها، وستة في سورة الأعراف، وخمسة في سورة الشعراء. وقد فسّر الدكتور سليمان الطراونة كثرة ورود هذه اللفظة في قصة موسى -عليه السلام- لانبثاق الحياة من الموت مثلما يلقي الرجم ما فيه القاء، وحياة موسى اعتمدت على سبع القاءات من رحم أمه إلى التابوت فالساحل ثم القاء العصا ومواجهته للسحرة وضرب البحر بعصاه عندما كان فرعون يلاحقه ثم الالقاء بضرب الحجر[١] فتفجرت المياه ليشرب قومه ولكن هذه المرة لم يرد لفظ (ألقى) وإنما جاء لفظ (اضرب)[٢] في الآيات التي ورد فيها حديث عن هذه الحادثة.

ومن مزايا أسلوب القصص القرآني في سورة البقرة على الرغم من أنها تحدثنا عن اليهود الذين أُرسل إليهم موسى -عليه السلام- إلا أنها تسوق أخبارهم -غالباً- في أسلوب الخطاب المُوَجّه إلى يهود المدينة وكأنهم هم الذين اقترفوا كل تلك الجرائم، لابل إنّ القارئ ليشعر أنها مُوَجّهة إلى كل يهودي في كل زمان ومكان. وهذا الأسلوب يبين وحدة الشخصية اليهودية خلال التاريخ على أنها وارثة الخصائص نفسها[٣] كما في قوله تعالى ﴿وإذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون﴾[٤] فالله -سبحانه وتعالى- يخاطب يهود المدينة وكأنهم هم الذين كانوا مع موسى -عليه السلام- وكأن اليهود الذين عاصروا موسى قد اُستحضروا وتمثّلوا في يهود المدينة.

وقد نستغرب احتجاج الملائكة بأن نسل آدم سيفسدون في الأرض، ويسفكون الدماء وهذا الأمر ما زال في علم الغيب في ذلك الوقت -عندما أخبرهم الله -سبحانه وتعالى- أنه سيجعل آدم خليفة له في الأرض، كما اتضح ذلك من قوله تعالى ﴿وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يُفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لاتعلمون﴾[٥] ولعل في ذكرهم لسفك الدماء وشيجة

---

(١) سليمان الطروانة، دراسة نصية، ٤٦-٤٧.

(٢) السورة البقرة، الآية٦٠ وفي سورة الأعراف، الآية ١٦٠ وفي سورة الشعراء، الآية ٦٣.

(٣) محمد المجذوب، ١٩٩٢، نظرات تحليلية في القصة القرآنية، ط٥، دار الشواف للنشر والتوزيع، القاهرة، ٥١-٥٢ وسيد قطب، في ظلال القرآن، ١/٣٠.

(٤) السورة البقرة، الآيات ٥٠، ٤٩-٧٤.

(٥) السورة السابقة، ٣٠.

بالدم المسفوك في قصة البقرة ولذلك ذُكرت هذه الجزئية من قصة آدم في هذه السورة فقط[١] . وهذا ما تحقق بالفعل عندما قتل قابيل أخاه كما حدثتنا عن ذلك سورة المائدة.

وورد اسم الفاعل (جاعل) بتنوين الضم في الآية السابقة ليدل على الاستقبال المستمر غير المنقطع مما يوحي بأنّ الذي سيجعله خليفة ليس فرداً وكفى (آدم) فقط وإنما هو ونسله ولذلك لم يقل (سأخلق) وإنما قال (خالقٌ) ومما يؤيد هذا التفسير أنه لم يقل (خالق آدم) بل (خالق بشراً) في قوله تعالى ﴿وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من صلصال من حمأ مسنون﴾[٢] وكذلك نلاحظ تنكير كلمة (بشرا)[٣] لتشمل كل كائن وليس كائناً واحداً محدداً. وعندما جعله الله -سبحانه وتعالى- خليفة في الأرض أيضاً لم يقل إني (جاعل آدم خليفة) وإنما قال (إني جاعل خليفة) في الآية من سورة البقرة الآنفة الذكر.

وبما أن القرآن الكريم يفسر بعضه بعضاً فإننا قد لانستطيع فهم المقصود ببعض الألفاظ الواردة في الآيات إلا إذا جمعنا الآيات الأخرى التي تتحدث عن الموضوع نفسه ففي سورة هود حدثتنا الآيات عن العذاب الذي حلّ بعاد قوم هود ﴿ولمّا جاء أمرنا نجينا هوداً والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ﴾[٤] فكلمة (أمرنا) تحتمل ضروب العقاب جميعاً، وفي سورة الأحقاف نجد تحديداً لنوع العذاب الذي حلّ بهم ﴿فلمّا رأوه عارضاً مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب اليم﴾[٥] ثم حدثتنا عن الآثار المدمرة لهذه الريح، ولكنها لم تحدثنا عن شدة الريح نفسها وسأتحدث عن هذه الظاهرة عند الحديث عن جمال يوسف -عليه السلام- بعد قليل. وكذلك نلاحظ الصيغة المفردة لكلمة الريح. التي لاتأتي في القرآن الكريم إلا للعذاب. وفي سورة الحاقة نجد التفصيل عن هذه الريح وقوتها ومدتها وآثارها المدمرة[٦] .

---

(١) سليمان الطراونة، دراسة نصية، ٥٠.

(٢) السورة الحجر، الآية ٢٨.

(٣) السورة ص، الآية ٧١.

(٤) الآية، ٥٨.

(٥) الآية، ٢٤.

(٦) الآيات، ٥-٨.

ويمتاز القصص القرآني بتنوع الصيغ التي كان يُقدّم من خلالها الانذار للأقوام التي تستحق العذاب بعد استنفاذ وسائل الاصلاح كلها[١] ، وقد حدثتنا سورة هود عن صيغ الانذار التي وردت على لسان نوح وهود ولوط وصالح وشعيب – عليهم السلام– وعند قراءتنا لصيغ الإنذار نلاحظ أنّ المضمون نفسه ولكن الشكل الفني الذي قُدّم من خلاله كان يختلف من قوم إلى آخر ،بحيث لايدع مجالاً للشك بأنّ القرآن الكريم كلام الله–ﷻ– ولهذا كان الاعجاز البلاغي هو مناط التحدي، ويتضح لنا كذلك أنّ الله –ﷻ– ينصر أنبياءه والمؤمنين معهم وينجيهم، وينزل عقابه بمستحقيه.

وللانذار أهمية بالغة في القصة القرآنية لأنه مرتبط بعنصر "العقدة" ولهذا كان الانذار الأخير في كل قصة قرآنية يشير إلى "الذروة" في تأزم الأحداث، والوصول إلى الذروة يعني قرب حدوث "الحل" الذي كان يأتي في القصص القرآني من خلال معجزة إلهية ترمي إلى انزال الهلاك التام بالقوم المُفسدين[٢] ، كما اتضح لنا ذلك من خلال النصوص الآنفة الذكر، ولهذا كان المشهد الأخير من كل قصة قرآنية يتميز بانزال كارثة طبيعية بالمكذبين؛ الذين كانوا يستحقون العقوبة مثل: الطوفان، والزلزال، والعاصفة المدمرة أو الصيحة، لاظهار أنّ القوة الإلهية هي التي تُحرك الحدث[٣] ، وتحذير مشركي مكة من ملاقاة المصير نفسه مع الحرص على ربط طرق الإهلاك مع نوعية الذنب المرتكب من قبل المكذبين بالدين[٤] بقصد الاعتبار. وينتهي هذا المشهد بانتصار الرسول والفئة المؤمنة من قومه. وفي ذلك رفع للروح المعنوية للرسول –عليه السلام– وصحابته وللدعاة من بعدهم.

ونهاية القصة القرآنية مرتبطة بالغرض الديني من ايراد القصة في القرآن، وهذا وجه من وجوه الاختلاف بين القصة بالمفهوم الديني والقصة بالمفهوم الأدبي والفني، مما يجعلنا نطالب بأخذ هذه النقطة بعين الاعتبار عند تحليل القصص القرآني وعدم اغفالها.

---

(١) زاهية الدجاني، ١٩٩٣، أحسن القصص بين اعجاز القرآن وتحريف التوراة، ط١، دار التقريب بين المذاهب الاسلامية، بيروت، ١٤.

(٢) السابق، ١٤-١٥.

(٣) السابق، ٦.

(٤) السابق، ٢٤.

ومن أوجه الاختلاف الأخرى بين القصة الدينية والقصة الفنية أنّ القصة القرآنية تشيع فيها التعليقات التي تُلخص مغزى القصة فقد تسبق سرد أحداث القصة، أو تلحق السرد أو تأتي في أثنائه(١) ؛ لتفسر أسباب تلك الأحداث بما يبررها حتى يكون لها وقعها في النفوس؛ بما يُستخدم في التعقيب عليها من أساليب التذكير والوعظ والزجر(٢) ومن الأمثلة على ذلك طريقة عرض قصة أهل الكهف إذ نلتقي بملخصها في ثلاث آيات ثم يأتي التفصيل(٣) ، بينما نجد في قصة موسى -عليه السلام- الواردة في سورة القصص(٤) ، ذكر المغزى والعاقبة أولاً ثم سرد أحداث القصة من حيث مولده ونشأته وأهم أحداث حياته بعد ذلك وقد اهتم سيد قطب في تفسيره بإبراز هذه الظاهرة(٥) ، التي اقتضاها ارتباط القصص القرآني بالغرض الديني؛ ولهذا لايُستغرب مزج التوجيهات الدينية بسياق القصة(٦) ، ولكنها تأتي منسجمة مع السورة بحيث لاتشعر أنها مقحمة على النص اقحاماً.

ومما سبق ذكره يتضح أنّ القصة القرآنية تحرص على ابراز المغزى في حين لايجوز ذلك في القصة الفنية، والمحلل الأسلوبي لايحتاج إلى تبرير مثل هذا المنهج الذي يتناسب مع غايات القرآن الدينية، فالقصة القرآنية قصة ايمان، وهدفها تربية العقيدة في القلب الإنساني، والقرآن جاء لكلّ العقول والأذواق، وبعض الناس قد لايستطيع استنتاج العظة من القصة، فلابد من ارشاده إلى الغرض الذي تُجسّده القصة(٧) فلابد من التبسيط أحياناً في عرض العظة ليفهمها كل إنسان، ولكن هذا لايعني أنّ القصة القرآنية تأخذ بالتقرير والمباشرة، وإنما هي تهتم بالتصوير والتجسيم والاستحضار والايحاء فمن أول سورة يوسف إلى آخرها لم تقل السورة شيئاً عن جمال يوسف -عليه السلام- أو ملامحه، لكننا نرى هذا الجمال الأخاذ في أعين النسوة اللاتي عندما رأينه قطّعن أيديهن لفرط الذهول من جماله الأخاذ، فحقيقة جمال يوسف قُدّمت لنا مُجَسّمة تكاد تنطق في قوله تعالى ﴿فلما رأينه أكبرنه وقطّعن أيديهن وقلن حاش لله ما هذا بشراً إنْ هذا إلا ملك

---

(١) السورة يوسف، الآيات، ٧، ٣٦، ١١١ وفي سورة القصص، الآية ٧٨ وفي سورة يونس، الآية ٩٢ وفي سورة غافر، الآية ٣٧.

(٢) التهامي نقرة، سيكولوجية القصة، ٣٥٩.

(٣) نجد في سورة الكهف الملخص في الآيات ٩-١٢ ثم التفصيل في الآية ١٣.

(٤) الآيات ٣-٦.

(٥) سيد قطب، في ظلال القرآن، ٤٦٣/١١، ٤٦٤ و ٥٥١/١٢-٥٥٢ و ٢١٨/١٤ و ٣٦٢/١٥، ٣٨٠.

(٦) عبدالغني بركة، ١٩٨٣، أسلوب الدعوة القرآنية، ط١، مكتبة وهبة، مصر، ٣٠٩، ٣١٠.

(٧) سليمان الطراونة، دراسة نصية، ١٩.

كريم﴾[١] والتضعيف في الفعل (قطّعن) ساهم في ايضاح الموقف وتصويره بحيث يمكننا تخيّل مشهد النسوة وهن يقمن بتقطيع أيديهن. وهذا الموقف في القصة القرآنية يشبه قول شيوخ (اسبارطه) في الالياذة عندما مرت من أمامهم (هيلين) الجميلة التي اشتعلت نيران الحروب من أجلها، ولما رأوها أكبروا جمالها، وقالوا مجمعين: إنها تستحق الحرب الضروس التي تدور من أجلها فهذا وصف غير مباشر لكنه نافذ في دلالته الايحائية[٢] . فتشبيه يوسف بالملاك الكريم يعني أنّ جماله فاق الوصف أو جمال البشر.

ومن الخصائص البيانية للقصة القرآنية الاستئناس بذكر الكلمة الأجنبية، في القصة. أو كلمة من بيئة أخرى. وهذه الكلمة كثيراً ما تجري على لسان شخصية من شخصيات القصة. ومن هذه الألفاظ: هيت، صواع، اليم، منْسأته، التنّور، غيض، الكنز....الخ ليصوّر للقارئ البيئة والمجتمع واللغة وينقله إلى مجرى الأحداث زمانياً ومكانياً[٣] .

---

(١) السورة يوسف، الآية ٣١.

(٢) سليمان الطراونة، دراسة نصية، ٢٢-٢٣.

(٣) محمود السيد حسن، روائع الاعجاز في القصص القرآني، ٣٦٥، ١٠٩-١١٥.

الخاتمة

النتائج

وبعد أن وصلت -بحمدالله تعالى- نهاية المطاف في كتابة هذه الدراسة التي كانت تجربة عظيمة في رحاب القرآن الكريم، توصلت إلى مجموعة من النتائج أجملها فيما يلي:

لقد حظي القرآن الكريم على مر العصور باهتمام الباحثين على مختلف تخصصاتهم ومما لاشك فيه أنّ السبب الأول لهذا الاهتمام يرجع إلى أنّ القرآن الذي بين يدينا هو نفسه الذي أُنزل على الرسول-عليه السلام- كما هو دون تغيير أو تحريف، فهو كلام الله وكلمته الأخيرة المُوصى بها إلى البشرية[1] ؛ ولهذا تركزت جهود الباحثين في الحديث عن مواطن البلاغة فيه ومظاهر اعجازه.

وقد ساهمت دراسة القرآن الكريم في تأليف بعض الكتب التي بحثت في بلاغة القرآن الكريم فيما بحثته؛ لأنها لم تكن مخصصة للبحث البلاغي فقط، ويمكن تسمية هذه المرحلة مرحلة التأليف المشترك إذ اختلط فيها بحث البلاغة بغيرها من العلوم. وفي أثناء بحثهم توصل هؤلاء الباحثون إلى اكتشاف معظم المصطلحات والمفاهيم التي تهم البلاغة، وفي هذه المرحلة انعكس التخصص -إن جاز هذا التعبير- للباحث فيما يقوله إذ كان يغلب طابعه اللغوي إن كان لغوياً في تحليله للآيات القرآنية، والأمر نفسه يقال إن كان الباحث من علماء الكلام. إذ سيغلب طريقة علماء الكلام في فهم النص القرآني، وهذا -أحياناً- كان يجعلهم يغفلون عن بعض النواحي الفنية البلاغية في أثناء تحليلهم لآيات القرآن الحكيم، ولكن البلاغة القرآنية تجاوزت هذه المرحلة إذ أصبحنا نجد المؤلفات التي تتناول البلاغة القرآنية بالتحليل الفني الذي يدل على ذوق رفيع، وفهم عميق للنص، وبأسلوب ممتع؛ وهذه المرحلة مرحلة استقلال البلاغة عن غيرها من العلوم.

ونحن نبدأ في دراستنا لبلاغة القرآن الكريم من حيث انتهى السلف، مستلهمين التراث الضخم الذي تركه لنا القدماء في هذا المجال؛ ولهذا كان لابد من دراسة ماقاله

---

(١) محمد بلتاجي، ١٩٧٤، بحوث اسلامية في التفسير والحديث وأصول التشريع، مكتبة الشباب، مصر: ٦.

القدماء، وهذا ما قام به الباحثون المعاصرون في أول الأمر عندما اتجهوا إلى دراسة مؤلفات القدماء التي بحثت في بلاغة القرآن الكريم وكان هدفهم من ذلك ابراز جهود القدماء في دراستهم لبلاغة القرآن الكريم، وتقريب المادة التراثية إلى أبناء العصر الحاضر؛ لتكون الصلة قوية ما بين ماضي الأمة وحاضرها.

وقد تنوعت المناهج التي اعتمد عليها الباحثون المعاصرون في تحليلهم لدراسات القدماء، فبعضهم اكتفى بالعرض لأهم ما ورد في كتب القدماء، وهدفهم من ذلك اعطاء القارئ فكرة عامة عن مضمون الكتب السابقة، وأغلب هذه الدراسات جاءت في فترة مبكرة في بداية النهضة العربية الثقافية؛ ولهذا لانطالبها بأكثر مما قامت به في تلك الفترة، فهي أدت ما هو مطلوب منها، ولا يمكننا نسيان أنّ بعض الكتب التي عرضت لها كانت مازالت مخطوطات حبيسة جدران المكتبات فلها فضل تسليط الأضواء على هذه الكتب وتعريف الناس بمضمونها.

وبعضهم مال إلى المنهج التحليلي في أثناء دراسته لمؤلفات القدماء، مناقشاً ومحللاً لمّا قالوه ذاكراً المواطن التي تميّز بها القدماء وكذلك المآخذ التي أخذها على دراستهم. وقسم منهم امتاز بالموضوعية عند اصدار الأحكام وتجنّب التعميم واعتمد على الحجة والبرهان ليقنع القارئ بما توصل إليه من نتائج. وقلة من الباحثين غاب عن أذهانهم الفترة الزمنية التي يمثّلها الكتاب موضع الدراسة فطالبوا بأكثر مما هو متوقع معرفته في تلك الفترة، وقد يحدث العكس تحميل النص القديم أكثر مما يحتمل فيسقطون عليه ما استجد في عصرنا من أبحاث فيصلون إلى نتائج مبالغ فيها.

وقيمة هذه الدراسات تبرز باعتبارها تُشكّل المهاد التاريخي الذي لاغنى عنه لأي باحث، ولابد له من التمكّن منه ومعرفته حق المعرفة؛ لأنّ دراسة التراث الفكري البلاغي العربي يعتبر مقدمة للدراسات البلاغية القرآنية المعاصرة حتى يمكننا معرفة مقدار استفادة اللاحق من السابق، ومقدار التطور الذي حدث في البحث البلاغي.

وقد لاحظت أنّ الكتب التي تولت التأريخ للبلاغة العربية في بادئ الأمر كانت تقوم بالتتبع التاريخي لجهود القدماء؛ ولهذا غلب عليها المنهج الوصفي الذي يهدف إلى تسليط الأضواء على أمهات الكتب في البلاغة العربية، وهذه المرحلة لابدّ منها لأنها الأساس الذي ستنطلق منه الدراسات فيما بعد، حيث بدأت تميل إلى المنهج التحليلي والنقد

البنّاء لما في هذه الكتب، وتبحث في التفكير البلاغي عند العرب، والمذاهب التي لجأ إليها البلاغيون القدماء في نظرتهم إلى بلاغة القرآن الكريم. وتمتاز مؤلفات هذه المرحلة بالشمول والنظرة العامة، ثم أخذت الدراسات تميل إلى التخصص في دراسة كتاب معين، أو بلاغي محدد أوسورة قرآنية.

ومن الأمثلة التي تبيّن ميل المعاصرين إلى التخصص في مجال بلاغي معين وجود عدة دراسات بلاغية مُخصصة لبحث موطن من مواطن الجمال في سورة البقرة وحدها، عدا التفاسير الخاصة بتفسيرها[١] . ومثل هذه الدراسات كانت نتائجها دقيقة؛ لأنها أتت بعد دراسة متعمقة لسورة البقرة.

وكذلك دراسة الدكتور عبدالرزاق أبو زيد زايد التي قام من خلالها بدراسة المصطلحات البلاغية والنقدية التي وجدها في كتاب "الطراز" للعلوي، ودوافعه لذلك ابراز جهود العلوي باعتباره من أبرز البلاغيين الذين أنجبتهم الجزيرة العربية في القرن الثامن الهجري[٢] ، ومما يدل على أنّ الباحثين المعاصرين يبحثون عن الجديد في أثناء دراستهم لبلاغة القرآن الكريم. اغفال الدكتور عبدالرزاق الحديث عن المصطلحات البلاغية الشائعة مثل الحقيقة والمجاز؛ لأنه شعر أنّ العلوي لم يأتِ بجديد في أثناء حديثه عنها. ولكنه ركز على ابراز المصطلحات التي تحدث عنها العلوي ولم يكثر الحديث عنها في كتب البلاغة منها: التسجيل، والالهاب والتهييج[٣] . وبيّن مفهومها وذكر أمثلتها من القرآن الكريم، وحللّ مافيها من مواطن الجمال.

وفي أثناء بحث المعاصرين عن الجديد لدراسته بدأوا بدراسة أعلام بحثوا في بلاغة القرآن الكريم، ولكن الأضواء لم تُسلّط على جهودهم كما فعل الدكتور عبدالفتاح لاشين في أثناء دراسته لجهود القاضي عبدالجبار في فهم الاعجاز القرآني، وكنت قد أشرت إلى ذلك في الفصل الأول من هذه الدراسة.

---

(١) حسين أحمد علي الدراويش، ١٩٨٦، النظم القرآني في سورة البقرة، دراسة في الدلالة والأسلوب، رسالة دكتوراة الجامعة الأردنية، كلية الآداب، قسم اللغة العربية.

والتيجاني بوريقة، ١٩٩٠، حروف الجر في سورة البقرة: أداة من أدوات المعاني، تونس.

ومحمد علي أبو حمدة، في التذوق الجمالي للآيات الثلاثين خواتيم سورة البقرة.

(٢) عبدالرزاق أبوزيد زايد، ١٩٨٩، المصطلحات البلاغية النقدية في كتاب الطراز للعلوي، مكتبة الشباب، ١٠.

(٣) العلوي، الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الاعجاز، تدقيق جماعة من العلماء، ١٩٨٠، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٦٥/٣-١٦٩ وعبدالرزاق أبو زيد زايد، المصطلحات البلاغية والنقدية، ١٣٢-١٣٥.

وهذا ما فعله الدكتور محمد بركات أبو علي عندما بحث في كتب لم يعرف عن مؤلفيها البحث في البلاغة وإذ به يعثر على مادة بلاغية تستحق الدراسة في مؤلفات هؤلاء الأعلام منهم: ابن فارس وابن الشجري والنويري[١] .

ومن الجديد الذي أتى به المعاصرون –بالاضافة إلى ما كنت قد أثبته في مواضعه من هذه الدراسة– أنهم قاموا باستكمال النقص الذي وجدوه في مصنفات القدماء؛ الذين قدموا ما استطاعوا تقديمه من أبحاث وفق امكانات عصرهم، وأدوات البحث التي كانت متيسرة لهم.

ولعل خير مثال على ذلك ما قام به سيد قطب في نظريته "التصوير الفني" التي كانت استكمالاً لجهود عبدالقاهر[٢]؛ لأنّ سيد قطب صرّح مراراً أنّ عبد القاهر كان على ضربة معول من اكتشاف هذه النظرية التي ساهمت في الكشف عن مواطن الجمال في النص القرآني وبيّن فضل النظرة الكلية للنص القرآني لاظهار مواطن البلاغة فيه، وكثير من المعاصرين قد تأثروا بما قال ونهلوا من نبعه الصافي سواء أقروا بفضله عليهم؛ أم لم يقروا، فإنّ أثره في الدراسات البلاغية المعاصرة لايمكن إنكاره أو التقليل من شأنه.

وثبت أنه لاجدال بين الباحثين في اعجاز القرآن الكريم، ولكن الجدال في أسرار الاعجاز ودلائله التي تحتاج إلى بحث وتأمل لادراكها. والكشف عن مواضعها في القرآن الكريم، وهذه المواطن قد يصعب على القارئ العادي التوصل إليها فيتولى الباحثون المتخصصون ابراز هذه الدلائل، وبذلك يوطدون صلة القارئ بكتابه المقدّس.

أما سبب تشعّب الآراء وكثرتها فيعود؛ لأنّ كل باحث وظّف قدراته العلمية وملكاته عندما نظر في القرآن الكريم، معتمداً على تذوقه للآيات القرآنية؛ ولهذا تعددت الآراء، ومما ساعدهم على ذلك أنّ النص القرآني يحتمل وجوه متعددة من التفسير، وفيه مواطن عدة من الاعجاز العلمي والرياضي والتشريعي... الخ ولكن الاعجاز الذي كان

---

(١) محمد بركات أبو علي، فصول في البلاغة، ١٢٥-١٦١.

(٢) وليد محمد مراد، ١٩٨٣، نظرية النظم وقيمتها العلمية في الدراسات اللغوية عند عبدالقاهر الجرجاني، ط١، دار الفكر، دمشق، ١٣٨-١٣٩، ١٧٦.

ومحمد الصباغ، ١٩٧٤، لمحات في علوم القرآن واتجاهات التفسير، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٧٠.

مناط التحدي هو البلاغي وليس غيره؛ لأنّ العرب في ذلك الوقت لم يكونوا أطباء أو علماء... الخ فتحداهم القرآن بما هم متفوقون به حتى يكون التحدي أبلغ.

كما أنّ الاعجاز البلاغي يشمل كل آية من آيات القرآن الكريم بينما الوجوه الأخرى للاعجاز لم تكن شاملة لكل آية من آياته، ولا ننسى أنّ القرآن الكريم نزل مُفرّقاً ولم ينزل دفعة واحدة؛ ولهذا لايستطيع المرء ادراك وجوه الاعجاز الأخرى إلا إذا كان القرآن الكريم كاملاً بين يديه وهذه الوجوه تُعتبر أدلة تدل على مصدر القرآن الرباني؛ لأنّ وجودها في القرآن وتوفرها فيه، يجعل من المستحيل اعتقاد أنه كلام بشر[١].

وبشكل عام سار الباحثون المعاصرون على خطى القدماء في بيان اعجاز القرآن الكريم، وكان لهم فضل توضيح بعض الآراء وتقديمها بصورة أقرب إلى عصرنا، ولهم أيضا الفضل في توظيف أهم النتائج التي توصلت إليها الدراسات في حقول علم اللغة والصوتيات وعلم الاجتماع والنفس والجمال؛ للاستفادة منها في الكشف عن مواطن الاعجاز في النص القرآني؛ والتأكيد على أنّ القرآن الكريم يصلح لكل زمان ومكان ويبقى متميزاً في اعجازه على مرّ العصور.

ونحن نتفق مع محمد متولي شعراوي عندما قال : إنّ اعجاز القرآن مستمر ومتجدد؛ وأنّ المستقبل يضيف أبعاداً جديدة لمعاني الآيات، وأنّ الإنسان كلما تقدّم في العلوم والمعارف أدرك الاعجاز القرآني بصورة أوضح. ولو أعطى الله -ﷻ- كل ما عنده وقت نزول القرآن لجمد بعد ذلك ولم يكن له عطاء، ومن هنا فإنه يحمل عطاء لكل جيل يختلف عن العطاء الذي أعطاه للجيل الذي سبقه[٢] وهكذا؛ ولهذا فإنّ حديث الاعجاز القرآني يتجدد مع استمرار الأيام على هذه البسيطة.

واتضح كذلك أنّ هذا العصر قد شهد قفزة كبيرة في تطور أساليب تفسير القرآن الكريم، والدليل على ذلك كثرة التفاسير المعاصرة وتنوعها، إذ قام سيد قطب بتفسير القرآن كاملاً، وقام بعضهم بتفسير أحد أجزاء القرآن الكريم، واختيار مجموعة من السور القرآنية وتفسيرها، ومعظمهم قام بتفسير سورة من سور القرآن الكريم، وكلهم يسعون للكشف عن مواطن الجمال في النص القرآني ليتعرف أبناء هذا العصر على مظاهر

---

(١) صلاح الخالدي، البيان في اعجاز القرآن، ٧.

(٢) محمد متولي الشعراوي، معجزة القرآن، ١٤٥/٢، ١٤٩، ١٥٢.

الاعجاز في القرآن الكريم، وكيف أثّر على نفوس العرب، وكيف استقبلوه في ذلك الوقت؛ لأننا في عصر فسدت فيه الأذواق، فنحن في هذا العصر بأمس الحاجة إلى مثل هذه التفاسير التي تعيدنا إلى منابع البلاغة في القرآن.

أمّا التفسير الذي لمست أنه خير ممثل لأتباع المنهج البلاغي في التفسير فهو تفسير الدكتورة عائشة عبدالرحمن؛ ولهذا أطلت الوقوف عند تفسيرها، وأكثرت من الاقتباس منه، وكنت أتمنى لو أنها فسّرت بالطريقة نفسها طوال السور في القرآن الكريم أو تشمل القرآن الكريم كله بتفسيرها ولكن الذي لا يُدرك كله لايُترك جله. ويمكن اعتبار تفسيرها قدوة لغيرها من المفسرين البلاغيين للسير على خطاها ونهجها. ويكفي أنها الوحيدة التي أطلقت على تفسيرها عنوان "التفسير البياني" وتناولت قضايا أسلوبية في القرآن وفق المنهج الذي أرسى قواعده شيخها أمين الخولي. وقد أكدت الدكتورة من خلال تفسيرها على أهمية النظر في القرآن نفسه عند تفسير بعض الآيات؛ لأنّ بيان القرآن بالقرآن من أشرف أنواع التفسير وأجلّها تفسير كتاب الله -ﷻ- بكلامه إذ لا أحد أعلم بمعنى كلام الله -جلّ وعلا- من الله -جلّ وعلا-(١) .

وقد لاحظت أنّ هناك عدة تفاسير معاصرة للقرآن الكريم، كان يرد في ثناياها اشارة إلى النواحي البلاغية في القرآن الكريم، ولكن بحثهم لم يكن بحثاً متخصصاً بحيث يتم التركيز عليها، وإنما كانت تأتي على شكل ملاحظات في أثناء تفسيرهم للآيات القرآنية، ولكن هذه الطريقة لاتكفي لتبيّن مواطن الاعجاز في النص القرآني، وهي بحاجة إلى تطوير والمزيد من الشرح والتوضيح، والتركيز على ذكر الغاية من استعمال الفنون البلاغية في الآيات القرآنية، وعدم الاكتفاء بالقول إنّ في الآية كناية أو استعارة أو تشبيهاً أو طباقاً... الخ فهذا لايكشف عن أسرار النص القرآني.

وهذا يشعرنا بمقدار حاجتنا إلى تفسير بلاغي صرف شامل للقرآن الكريم؛ لأنّ من حق القرآن علينا أن يُفسّر بهذه الطريقة فالجوانب الأخرى للقرآن الكريم قد أشبعت بحثاً ودراسة، أمّا الجانب البلاغي فما زال بحاجة للمزيد من التحليل فالقرآن الكريم يمتاز بعطائه المتجدد، وغنى نصوصه بحيث تحتمل تفاسير متعددة؛ ولأنّ هذا الجانب هو الذي

---

(١) محمد الأمين الشنقيطي، ١٩٦٧، أضواء البيان في ايضاح القرآن بالقرآن، مطبعة المدني، ٣/١.

كان به التحدي، وهو الذي بهر العرب عندما سمعوا القرآن الكريم لأول مرة، كما أنه في كل آية من آيات القرآن الكريم.

وبعد هذا التطواف في الدراسات البلاغية المعاصرة للقصص القرآني يمكنني القول: إنّ من أفضل الطرق لدراسة القصص القرآني هي جمع الآيات القرآنية التي تناولت القصة، ثم ترتيبها حسب تاريخ النزول -كلما أمكن ذلك- والاستفادة من أماكن النزول، ثم النظر في الآيات نظرة فاحصة ثم تحليلها حسب المنهج الذي يرتئيه الباحث عندئذ يتم التوصل إلى مجموعة من النتائج المهمة والدقيقة، كما أنّ الباحث يستطيع أن يردّ بالحجة والبرهان من النص القرآني نفسه على مزاعم بعض الطاعنين.

وينبغي أن يُجرد القصص القرآني من الخوض في التفاصيل التي لم يرد لها ذكر في القرآن والاكتفاء بما قصه القرآن الكريم؛ لأنه لو شاء -ﷻ- ذكر هذه التفاصيل لذكرها، فما يذكره القرآن الكريم هو الذي يتطلبه المقام، وينسجم مع مقتضى البلاغة، ونتساءل كما تساءل سيد قطب والدكتورة عائشة عبدالرحمن من أين جاءت كل هاتيك التفصيلات والحكايات التي حُشيت بها كتب التفسير -ولا علم للمصطفى وقومه إلا بما جاء به القرآن الكريم-[1] . بدليل قوله تعالى ﴿تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولاقومك من قبل هذا فاصبر إنّ العاقبة للمتقين﴾[2] كما أنها تشير إلى أحداث حدثت قبل تدوين المعارف فمن أين للرواة بتلك التفاصيل في ذلك الوقت؟

وبدلاً من البحث في تحديد زمان القصة أو مكانها وملابساتها والتفاصيل التي لم يذكرها القرآن ينبغي أن تتجه أنظارنا نحو دلالات القصة وحقائقها وايحاءاتها أو أخذ العبر والدروس المستفادة منها[3] وبيان مواطن الجمال فيها. وهذا يتطلب الكف عن ذكر الاسرائيليات التي كان بعض المفسرين والبلاغيين القدماء يستيعنون بها أحيانا لتوضيح تفاصيل بعض الأحداث التي لم يهتم القرآن الكريم بسردها. معتقدين بذلك أنهم يساهمون في القاء الأضواء على بعض جوانب القصة الغامضة، وهذا غير صحيح؛ لأنّ القصة في القرآن الكريم ليست سرداً للأحداث التاريخية فقط، وإنما لها غايات بلاغية.

---

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، ١٣٠/١ و ٣٧٣/٥ وعائشة عبدالرحمن، التفسير البياني، ١٤٨/٢.

(٢) السورة هود، الآية ٤٩.

(٣) سيد قطب، في ظلال القرآن، ٣٩٥/١٥ و ٤٠٦/١٦ وصلاح الخالدي ، المنهج الحركي، ٤٣٣-٤٣٤.

ومما يؤيد ذلك أننا نلاحظ على الرغم من تكرار الحديث عن قصة نوح -عليه السلام- في القرآن إلا أنه لم يتم ذكر تفاصيل وجزئيات قد تحوّل الشعور إلى غير الاتجاه المقصود لأنه لم يتعلق غرض ديني بذكرها من ذلك مثلاً: كم يوماً دام الطوفان، وكم مكث المؤمنون في السفينة، وماهيّة التنّور، كما أنه لم يتحدث عن المُغرقين ولا عن مجهودهم ومحاولاتهم للنجاة من الغرق، ولا عما لاقوا من الألم في أنفسهم، ولا عمّا أحسوا من الندم لإعراضهم عن نوح ودعوته[١] ، بالاختصار فإنّ للقصة القرآنية هدفاً تسعى لتحقيقه؛ ولهذا يتم اختيار المشاهد والأحداث التي لها علاقة بهذا الهدف وما عداه فلا يحفل به القرآن الكريم.

وبيّنت كذلك أنّ للحذف في القصة غايات بلاغية؛ لاتقتصر على الايجاز فقط، وإنما ترتبط بأغراض لها علاقة بالسورة نفسها وبأحداث القصة، وأحياناً يكون الحذف لتحفيز خيال القارئ ليكمل التفاصيل وأن يتصور ماذا حدث بعد ذلك.

وقد ثبت أنّ معظم القصص القرآني لاتنطبق عليه الحدود التي رسمها النقاد المحدثون للقصة الفنية، فالبناء غير البناء والنسب والأبعاد غير النسب والأبعاد إلا في نواح محددة[٢] . فالقصة في القرآن لاتحمل في كلياتها كل العناصر الفنية التي يشترط النقاد توفرها في القصة الفنية الحديثة، وهذا التقرير لاينقص من قدر القصة القرآنية شيئاً، لكنه يؤكد مكانها بلا لبس، أو تبرير هي في غنى عنه[٣] ؛ ولهذا يخطئ من يتمحك في سبيل اثبات تفوق القصة القرآنية على القصة الفنية، وهو بذلك يكون قد أقحم القصة القرآنية في مقارنة تفضيلية[٤] ، لاطائل من ورائها؛ لأنّ مشارب القصة القرآنية وأهدافها غير مشارب وأهداف القصة الفنية الحديثة[٥] ، ولئن وجدنا تشابهاً بينهما في بعض العناصر فإنّ هذه العناصر تُقدّم بصورة مختلفة في القصة القرآنية، ولهدف مغاير عن أهداف القصة الفنية، ولقد عرضت نماذج لذلك في ثنايا الفصل الرابع ولكن لاينبغي أن يمنعنا هذا الاختلاف من اللجوء إلى المناهج الأدبية في تحليل القصة القرآنية لاكتشاف مواطن الجمال والبلاغة في النص القرآني.

---

(١) التهامي نقرة، سيكولوجية القصة ٥٧ والشحات محمد أبو ستيت، خصائص النظم القرآني، ٧، ٨، ١٠.

(٢) سليمان الطراونة، دراسة نصية، ١٦.

(٣) السابق، ٥٠

(٤) السابق، ١٣.

(٥) السابق، ١٣.

ومن أبرز قضايا القصص القرآني التي كانت مثار بحث ونقاش من قبل الباحثين على مر العصور قضية التكرار، وقد أثبتت الدراسات البلاغية المتعددة لهذه القضية، أنه لاوجود للتكرار في القرآن الكريم، والنظرة المتسرعة هي التي توحي بوجود تكرار لكن النظرة العميقة للقصة القرآنية تثبت بجلاء ليس جميع القصص القرآني تمّ اعادة الحديث عنه في أكثر من موضع، ولم تُكرر قصة كاملة وإنما كان يتم اختيار مشاهد أو لقطات من القصة القرآنية فيتم عرضها بأكثر من صورة، وهذه المشاهد لها علاقة بالدعوة، وتنسجم مع أغراض القرآن الكريم من توظيف القصة لتحقيق أهدافه.

ولايمكننا نسيان أنّ قصص بعض الأنبياء لم تُذكر إلا مرة واحدة كقصة يوسف -عليه السلام- وقصة موسى مع العبد الصالح وقصته مع ابنتي شعيب... الخ وقصص غير الأنبياء لم يتم تكرارها نهائياً، كقصص الأمثال، وقصة ابني آدم قابيل وهابيل.

ومما سبق ذكره عن التكرار نقول: إنّ كل سورة من سور القرآن على اطلاقها لها شخصيتها المتميزة وجوها الخاص. وكل نص من نصوص القرآن -وإن بدا متشابهاً- فإنه يأخذ جو السورة التي يرد فيها، ومن ثم تكون له ملامحه الخاصة في كل مرة[1] .

وقد لاحظت أنّ الباحثين المعاصرين قد خصوا التكرار في قصص القرآن بدراسات متعددة، وأكثروا القول في أسرار هذا التكرار على امتداد القصص القرآني جميعه متأثرين في ذلك بالدراسات الحديثة في علم النفس والاجتماع والنقد والأدب ويسيرون في تحليلهم على ضوء آخر ما توصلت إليه الدراسات في مجال القصة حديثاً أيضاً، وهذا هو الذي جعل لدراساتهم قيمة، وميزة على دراسات القدماء، فالمعاصرون قد خلصوا إلى تقرير ما أثبته البلاغيون والنقاد القدامى من قيمة هذا التكرار وأثره ومنزلته في احداث الاعجاز للقصص القرآني[2]. ولعل من أبرز الأمثلة على ذلك كتاب سيكولوجية القصة في القرآن الذي كان جديده يتمثل في محاولة استخدام بعض القواعد والأصول المقررة عند علماء النفس والتربية والاجتماع، وفي استعمال المنهج التحليلي، وربط الجانب الفني في القصة القرآنية بالجانب النفسي؛ لأنهما يلتقيان في الهدف وهو

---

(١) محمد قطب، ١٩٨٠، دراسات قرآنية، ط٢، دار الشروق، ٢٤٨، ٢٥٦، ٢٦١.

(٢) فتحي عبدالقادر فريد، بلاغة القرآن في سورة يوسف، ٣٤.

التأثير الديني لأنّ صلة الفن بالدين عريقة[١]؛ ولهذا ينبغي على الباحث في القصص القرآني أن يبقى مواكباً لما يستجد من دراسات في العلوم الأخرى للاستفادة من نتائجها.

ومما يلفت الانتباه على الرغم من اتفاق الباحثين والمفسرين، القدماء والمعاصرين على نفي التكرار عن القصص القرآني، إلا أنهم لم يحاولوا البحث عن مصطلح بديل لمصطلح التكرار الذي يشوبه بعض التمويه، بحيث ارتبط بالأذهان بمفهوم الإعادة بغض النظر عن الشكل الذي تتم به الإعادة، ومن يستخدمه عند تحليل النص القرآني يكون بحاجة إلى لفت الانتباه إلى أنه لايعني به المعنى المتبادر إلى الأذهان، أو يكون بحاجة إلى توضيح مفهومه له. وهذه المشكلة واجهت سيد قطب، وكانت من أبرز المآخذ التي أُخذت عليه أنه استخدم مصطلحات فنية ونقدية لها مفاهيم خاصة بها والقرآن الكريم لايستخدمها بهذا المعنى أو الدلالة فلا بد عندئذ من بيان المقصود بها فيما لو أُطلقت على النصوص القرآنية في أثناء تحليلها ودراستها.

وطالب حمادي صمّود بضرورة تغيير منهج الدراسة البلاغية الذي تولى من خلاله الباحثون المعاصرون الحديث عن نشأة البلاغة العربية وتطورّها؛ لأنه وجد قصوراً في منهجهم يتمثل في عدم اهتمامهم ببيان الأسس التي يقوم عليها التفكير البلاغي في جمالية اللغة عند العرب فجاء تأريخاً للتأليف البلاغي لا للبلاغة؛ ولهذا تشابهت هذه المؤلفات في هيكلها العام، وحتى في مواقف أصحابها من بعض المسائل الجزئية فنراها تعيد النصوص نفسها، وتوظفها بالكيفية نفسها أمّا سبب هذا القصور فيعود إلى غياب جدلية التراث والحداثة في هذه المؤلفات؛ ولهذا ينبغي اعادة قراءة البلاغة في ضوء المكتسبات الجديدة[٢] . لنأخذ منها ما يغني تراثنا العربي ويقوي شخصيتنا العربية من غير أن تتبدل بعض معالمها في أثناء تجوالنا بين المصطلحات الأجنبية، والبحوث الخاصة بملامح أدب من آداب الأمم القديمة والحديثة[٣] وهذا الأمر تحقق في دراسات معظم البلاغيين المعاصرين الذين تولوا البحث في بلاغة القرآن الكريم.

---

(١) التهامي نقرة، سيكولوجية القصة، ٢٣.

(٢) حمادي صمود، التفكير البلاغي، ١٠-١٣ وشرف الدين الراجحي، الابتداء بالفكرة ١٦٨ وسعد أبو الرضا، البلاغة العربية، ١٨٠.

(٣) فايز الداية، البلاغة العربية البيان والبديع، منشورات جامعة حلب، ١٢.

وعلى الرغم من وجود التفاوت بينهم في الاستفادة من نتائج الدراسات التي توصل إليها علماء اللغة والصوتيات والجمال والفن والنفس والتربية...الخ، إلا أننا لمسنا اطلالة جديدة لفهم النص التراثي وعرضه بطريقة تمكّن من تقريبه الى أذهاننا، شريطة عدم المبالغة في ذلك، أو محاولة التكلّف لاخضاع النص القرآني لنتائج تلك الدراسات، وهذا ما وقع فيه عادل عبد الله القلقيلي عندما بالغ في محاولته الاهتداء إلى فكرة واحدة تسري في آيات السورة جميعها كجريان فكرة النهر في سورة الكوثر، وفكرة الزمن في سورة العصر، والانحدار من القمة في سورة التين...الخ وكان يقوم بتفسير السورة على أساس هذه الفكرة التي أسماها "الهندسة الإلهية"(١) والقارئ لهذا الكتاب يشعر أنه كان يتكلّف أحيانا ويحمّل النص فوق دلالته لينسجم مع الفكرة التي تبناها وكان يمكنه الاكتفاء بالسور القرآنية التي تنطبق عليها فكرته بيسر.

وقد دعا الدكتور فتحي أحمد عامر إلى ضرورة تضافر جهود العلماء والأدباء والمتخصصين في حقل الدراسات القرآنية لدائرة معارف قرآنية تجمع وتمحص في هذه الدراسات وتستخلص النتائج؛ لتكون بذلك ذخيرة حية في هذا المجال الحي من مجالات ثقافتنا الخالدة على مر العصور(٢) . وآمل أن يكون هذا البحث خطوة على الطريق، فربما يأتي باحث آخر فيستلهم فكرة أو يطورها، أو يتابع جهدا مبذولاً، أو يكمل نقصاً وجده في جانب.

وماذا بعد؟

ما زال بعض الباحثين المعاصرين يشعرون أنّ ما قُدِّم من دراسات وأبحاث حتى الآن لن يفي القرآن الكريم حقه، وأنه ما زال قابلا للمزيد من الدراسات والأبحاث، كقول الدكتور ابراهيم السامرائي: "ولعل بي حاجة الى أن أقول إننا لم نستوفِ في الدراسات القرآنية ما كان ينبغي لنا أن ندركه على كثرة عناية المسلمين بهذا الكتاب منذ أقدم العصور إلى يومنا هذا"(٣). وقول الدكتور عفت الشرقاوي : "وعلى الرغم من تعدد تلك الموسوعات التفسيرية التي تملأ المكتبة الإسلامية؛ فإننا لم نكشف بعد إلا عن جانب

---

(١) عادل عبدالله القلقيلي، ١٩٨٥، كشوف جديدة في اعجاز القرآن الكريم، ط١، دار عمار، عمان، يُنظر على سبيل المثال: ٦، ٨، ١٥-١٩، ٢١-٢٦، ٢٧-٣٤، ٨٥-٨٩.

(٢) فتحي أحمد عامر، بلاغة القرآن بين الفن والتاريخ، ٢٥٤.

(٣) إبراهيم السامرائي، ١٩٨٣، من أساليب القرآن، ١٩٨٣، ط١، دار الفرقان، ومؤسسة الرسالة، بيروت، ٥.

محدود من جوانب الاعجاز"[١] وهذا الاحساس احساس ايجابي؛ لأنه سيبقى حافزاً للباحثين على مرّ العصور لمتابعة أبحاثهم ودراساتهم للكشف عن المزيد من مواطن الاعجاز في القرآن الكريم.

هذه هي أهم النتائج التي توصلت إليها بعد الدراسة والعودة إلى المصادر الأساسية التي حوتها، وإن اتفقت مع غيري في ذلك فإنني جهدت كما جهدوا واتفقت معهم عن بيّنة ودراسة لا عن نقل واتكال.

وأرجو أن أكون قد وفقت في ابراز جهود المعاصرين في دراستهم لبلاغة القرآن الكريم، وآخر دعوانا أن الحمدلله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد.

---

(١) عفت الشرقاوي، من بلاغة العطف، ١٦.

المصادر والمراجع

المصادر والمراجع

أولا : المصادر

- السكاكي، أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر (ت ٦٢٦هـ)، مفتاح العلوم، منشورات المكتبة العلمية الجديدة، بيروت.
- التفتازاني، سعد الدين مسعود بن عمر (ت ٧٩٢هـ)، المطول على التلخيص، ١٣٣٠هـ مطبعة أحمد بن كامل، استانبول.
- القزويني، جلال الدين محمد عبد الرحمن (ت ٧٣٩هـ)، الايضاح في علوم البلاغة، ٥م، شرح وتنقيح محمد عبد المنعم خفاجي، ١٩٨٤، ط٢، مكتبة الكليات الأزهرية، مصر، مجلده.
- أبو عبيدة، معمر بن المثنى (ت ٢٠٨هـ)، مجاز القرآن، ٢م، تحقيق محمد فؤاد سزكين، ١٩٥٤، الناشر محمد سامي أمين الخانجي الكتبي، مصر، مجلد١ و٢.
- ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم (ت ٢٧٦هـ)، تأويل مشكل القرآن، تحقيق وشرح السيد أحمد صقر، ١٩٥٤، دار احياء الكتب العربية، القاهرة.
- ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم (ت ٢٧٦هـ)، تفسير غريب القرآن، تحقيق السيد أحمد صقر، ١٩٥٨، دار احياء الكتب العربية، القاهرة.
- الباقلاني، أبو بكر محمد بن الطيب (ت ٤٠٣هـ)، اعجاز القرآن، شرح وتعليق محمد عبد المنعم خفاجي، ١٩٩١، ط١، دار الجيل، بيروت.
- الجرجاني، أبو بكر عبد القاهر عبد الرحمن بن محمد (ت ٤٧٤هـ)، أسرار البلاغة، تحقيق هـ-ريتر، ١٩٧٩، ط٢، دار المسيرة، بيروت.

- ابن جني، أبو الفتح عثمان (ت ٣٩٢هـ)، المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والايضاح عنها، ٣م، تحقيق علي النجدي ناصف وعبد الحليم النجار وعبد الفتاح اسماعيل شلبي، ١٣٨٦هـ، المجلس الأعلى للشؤون الاسلامية، مجلد ١و ٢.

- الفراء، أبو زكريا يحيى بن زياد (ت ٢٠٧هـ)، معاني القرآن، ٣م، ١٩٨٣، ط٣، عالم الكتب بيروت، مجلد١و ٢و ٣.

- المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد (ت ٢٨٥هـ)، البلاغة، تحقيق وتقديم رمضان عبد التواب، ١٩٨٥، ط٢، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة.

- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر (ت ٢٥٥هـ)، الحيوان، ٦م، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، مجلد ٢و٣و٤و٦.

- ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن فارس (ت ٣٩٥هـ)، الصاحبي في فقه اللغة، تحقيق مصطفى الشويحي، ١٩٦٣، مؤسسة بدران للطباعة والنشر، بيروت.

- القاضي عبد الجبار، أبو الحسين عبد الجبار بن أحمد الهمذاني الأسدآبادي (ت ٤١٥هـ)، المغني في أبواب التوحيد والعدل، ٢٠م، قوّم نصه أمين الخولي، ١٩٦٠، دار الكتب، القاهرة، مجلد ١٦.

- ابن سنان الخفاجي، أبو محمد عبد الله بن محمد (ت ٤٦٦هـ)، سر الفصاحة، شرح وتحقيق عبد المتعال الصعيدي، ١٩٦٩، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة.

- الجرجاني، أبو بكر عبد القاهر عبد الرحمن بن محمد (ت ٤٧٤هـ)، دلائل الاعجاز، قرأه وعلّق عليه محمود محمد شاكر، ١٩٨٩، ط٢، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة.

- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت ٩١١هـ)، الاتقان في علوم القرآن، ٢م، ١٩٥١، ط٣، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، مجلد١و ٢.

- الرماني، أبو الحسن علي بن عيسى (ت ٣٨٦هـ) والخطابي وعبد القاهر، ثلاث رسائل في اعجاز القرآن، تحقيق محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام، ١٩٦٨، ط٢، دار المعارف، مصر.

- الشريف الرضي، أبو الحسن محمد بن الحسين (ت ٤٠٦هـ)، تلخيص البيان في مجازات القرآن، تحقيق محمد عبد الغني حسن، ١٩٥٥، ط١، دار احياء الكتب العربية، القاهرة.

- الجرجاني، علي بن عبد العزيز (ت ٣٩٢هـ)، الوساطة بين المتنبي وخصومه، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم وعلي محمد البجاوي، دار القلم، بيروت.

- ابن ناقيا البغدادي، أبو القاسم عبد الله بن محمد (ت ٤٨٥هـ)، الجمان في تشبيهات القرآن، تحقيق أحمد مطلوب وخديجة الحديثي، ١٩٦٨، دار الجمهورية، بغداد.

- ابن أبي الإصبع، أبو محمد زكي الدين عبد الحميد (ت ٦٥٤هـ)، بديع القرآن، تحقيق حفني محمد شرف، ١٩٥٧، ط١، مكتبة نهضة مصر، الفجالة.

- شرح ديوان زهير بن أبي سلمى، صنعة أبي العباس أحمد بن يحيى ثعلب، ١٩٤٤، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب، ١٩٦٤، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة.

- القاضي عبد الجبار، أبو الحسين عبد الجبار بن أحمد الهمذاني الأسدآبادي (ت ٤١٥هـ)، تنزيه القرآن عن المطاعن، دار النهضة الحديثة، بيروت.

- القاضي عبد الجبار، أبو الحسين عبد الجبار بن أحمد الهمذاني الأسدآبادي (ت ٤١٥هـ)، متشابه القرآن،٢م،تحقيق عدنان محمد زرزور ١٩٦٩،دار التراث، القاهرة، مجلد ١و٢.

- الزمخشري، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر (ت ٥٣٨ هـ)، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ٤م، رتبه وضبطه وصححه مصطفى حسين أحمد، دار الريان للتراث القاهرة ودار الكتاب العربي، بيروت، مجلد ١و٢و٣و٤.

- ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف الأتابكي (ت ٨٧٤هـ)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ١٦م، قدم له وعلق عليه محمد حسين شمس الدين، ١٩٩٢، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، مجلد ٤.

- ابن المعتز، أبو العباس عبد الله بن محمد (ت ٢٩٦هـ)، البديع، نشر وتعليق اغناطيوس كراتشفوفسكي، ١٩٨٢، ط٣، دار المسيرة، بيروت.

- أبو هلال العسكري، الحسن بن عبد الله (ت ٣٩٥هـ)، كتاب الصناعين: الكتابة والشعر تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل ابراهيم، ١٩٥٢، ط١، دار احياء الكتب العربية.

- ابن الأثير، أبو الفتح نصر الله بن محمد (ت ٦٣٧هـ)، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ٤م، تحقيق أحمد الحوفي وبدوي طبانة، ١٩٦٢، ط١، مكتبة نهضة مصر. مجلد ١و٣.

- ابن أبي الحديد، عز الدين أبو حامد بن هبة الله (ت ٦٥٦ هـ)، شرح نهج البلاغة، ١٨م، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، ١٩٥٩، مطبعة عيسى البابي حلبي وشركاه، القاهرة، مجلد١.

- الرازي، فخر الدين محمد بن عمر (ت ٦٠٦هـ)، نهاية الايجاز في دراية الاعجاز، تحقيق وتقديم ابراهيم السامرائي ومحمد بركات أبو علي، ١٩٨٥، دار الفكر للنشر والتوزيع، عمان.

- الرازي، فخر الدين محمد بن عمر (ت ٦٠٦هـ)، التفسير الكبير، الشهير بمفاتيح الغيب، ٣٢م، دار احياء التراث العربي، ط٣، بيروت، مجلد ٢ و ٣و ٧و ١٠و ١١ و ١٢و ١٣ و ١٧ و٢٠ و٢٤ و٣١ و٣٢.

- أبو تمام، حبيب بن أوس (ت ٢٣١هـ)، ديوان أبي تمام، ٤م، شرح الخطيب التبريزي، تحقيق محمد عبده عزام، ط٢، دار المعارف، مصر، مجلد٢.

- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر(ت ٩١١هـ)، معترك الأقران في اعجاز القرآن، ٢م، تحقيق علي محمد البجاوي، ١٩٦٩، دار الفكر العربي، بيروت، مجلد١و٢.

- العباسي، عبد الرحيم بن أحمد (ت ٩٦٣هـ)، معاهد التنصيص على شواهد التلخيص، ٤م، حققه وعلق حواشيه وصنع فهارسه محمد محيي الدين عبد الحميد، عالم الكتب، بيروت، مجلد١.

- المتنبي، أبو الطيب أحمد بن الحسين (ت ٣٥٤هـ)، ديوان أبي الطيب المتنبي، المسمى بالتبيان في شرح الديوان، ٤م، شرح أبي البقاء العكبري، ضبطه وصححه ووضع فهارسه مصطفى السقا وابراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، دار المعرفة، بيروت، مجلد ٢و٤.

- الشريف الرضي، أبو الحسن محمد بن الحسين (ت٤٠٦هـ)، ديوان الشريف الرضي، ٢م، شرح يوسف شكري فرحان، ١٩٥٥، دار الجيل، بيروت، مجلد١.

- ابن قتيبة، أبو محمد عبدالله بن مسلم (ت٢٧٦هـ)، أدب الكاتب، تحقيق محمد الدالي، ١٩٨٢، ط١، مؤسسة الرسالة.

- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر (ت ٢٥٥هـ)، البيان والتبيين، ٤م، تحقيق وشرح عبدالسلام محمد هارون، ١٩٦٠، ط٢، مكتبة الخانجي، مصر ومكتبة المثنى، بغداد، مجلد ١.

- ابن موسى، هارون بن موسى القارئ، أواخر القرن الثاني الهجري، الوجوه والنظائر في القرآن الكريم، تحقيق حاتم الضامن، ١٩٨٨، دار الحرية للطباعة، العراق.

- السيوطي، جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر (ت٩١١هـ)، التحبير في علم التفسير، تحقيق فتحي عبدالقادر فريد، ١٩٨٦، دار المنار للنشر والتوزيع، القاهرة.

- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم (ت٧١١هـ)، لسان العرب، ١٨م، نسقه وعلّق عليه ووضع فهارسه مكتب تحقيق التراث، ١٩٩٣، ط٣، دار احياء التراث العربي ومؤسسة التاريخ العربي.

- الرازي، محمد بن أبي بكر بن عبدالقادر (ت٦٦٦هـ)، مختار الصحاح، ترتيب محمود خاطر، ١٩٨٦، ط١، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة.

- الزركشي، بدر الدين محمد بن عبدالله (ت٧٩٤هـ)، البرهان في علوم القرآن، ٤م، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، ١٩٧٢، ط٢، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، مجلد ١.

- ابن كثير، أبو الفداء اسماعيل بن كثير القرشي (ت٧٧٤هـ)، تفسير القرآن العظيم، ٤م، ١٩٨٨، ط١، الدار المصرية اللبنانية، مجلد ١.

- العلوي، يحيى بن حمزة (ت٧٤٩هـ)، الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الاعجاز، ٣م، تدقيق جماعة من العلماء باشراف الناشر، ١٩٨٠، دار الكتب العلمية، بيروت، مجلد٣.

ثانيا: المراجع

- مطلوب، أحمد، ١٩٦٤، البلاغة عند السكاكي، مكتبة النهضة، بغداد.
- حسان، تمام، ١٩٨٢، الأصول: دراسة ابيستيمولوجية للفكر اللغوي عند العرب، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- أبو موسى، محمد محمد، ١٩٨٤، الاعجاز البلاغي دراسة تحليلية لتراث أهل العلم، ط١، مكتبة وهبة، القاهرة.
- عبدالرحمن، منصور، اتجاهات النقد الأدبي من الجاهلية إلى نهاية القرن الرابع الهجري، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة.
- خفاجي، محمد عبدالمنعم وعبدالعزيز شرف، ١٩٩٢، البلاغة العربية بين التقليد والتجديد، ط١، دار الجيل، بيروت.
- طبانة، بدوي، ١٩٦٨، البيان العربي: دراسة في تطور الفكرة البلاغية عند العرب ومناهجها ومصادرها الكبرى، ط٤، مكتبة الأنجلو المصرية.
- مطلوب، أحمد، ١٩٦٧، القزويني وشروح التلخيص، ط١، منشورات مكتبة النهضة، بغداد.
- عتيق، عبدالعزيز، ١٩٧٠، تاريخ البلاغة العربية، دار النهضة العربية، بيروت.
- شوقي، ضيف، ١٩٦٥، البلاغة تطور وتاريخ، دار المعارف، مصر.
- مطلوب، أحمد، ١٩٧٣، مناهج بلاغية، ط١، وكالة المطبوعات، الكويت.
- مطلوب، أحمد، ١٩٨٢، البحث البلاغي عند العرب، منشورات دار الجاحظ للنشر، بغداد.
- السامرائي، مهدي صالح، ١٩٧٧، تأثير الفكر الديني في البلاغة العربية، ط١، المكتب الاسلامي، دمشق.

- أبو علي، محمد بركات، ١٩٨٣، البلاغة عرض وتوجيه وتوضيح وتفسير، ط١، دار الفكر للنشر والتوزيع، عمان.

- شحاتة، عبدالله محمود، ١٩٨٤، منهج الإمام عبده في تفسير القرآن، مطبعة جامعة القاهرة.

- النمر، عبدالمنعم، ١٩٨٥، علم التفسير، كيف نشأ وتطور حتى انتهى إلى عصرنا الحاضر، ط١، دار الكتب الإسلامية، دار الكتاب المصري والكتاب اللبناني.

- الخالدي، صلاح عبدالفتاح، ١٩٨٩، البيان في اعجاز القرآن، دار عمار، عمان.

- الجويني، مصطفى الصاوي، ١٩٧٥، البلاغة والنقد بين التاريخ والفن، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الإسكندرية.

- مطلوب، أحمد، ١٩٨٧، معجم المصطلحات البلاغية، مطبعة المجمع العلمي العراقي.

- زايد، علي عشري، ١٩٧٧، البلاغة العربية: تاريخها – مصادرها – مناهجها، مكتبة الشباب.

- البيومي، محمد رجب، ١٩٧١، خطوات التفسير البياني للقرآن الكريم، الشركة المصرية للطباعة والنشر.

- حسين، عبدالقادر، ١٩٧٥، أثر النحاة في البحث البلاغي، دار نهضة مصر، القاهرة.

- سلام، محمد زغلول، ١٩٦١، أثر النقد في تطور النقد العربي إلى آخر القرن الرابع، ط٢، دار المعارف، مصر.

- صمّود، حمادي، ١٩٨١، التفكير البلاغي عند العرب، منشورات الجامعة التونسية.

- عبدالعزيز، عمر محمد سعيد، ١٩٨٩، تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة، ط١، مركز الأهرام للترجمة والنشر.

- فريد، فتحي عبدالقادر، ١٩٨٣، لمحات بلاغية في معاني القرآن للأخفش الأوسط، ط١، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة.

- سعد، أحمد سعد محمد، ١٩٩٠، الأصول البلاغية في كتاب سيبويه وأثرها في الدرس البلاغي، رسالة ماجستير، جامعة عين شمس، قسم اللغة العربية وآدابها.

- حسين، عبدالقادر، ١٩٨٧، من علوم القرآن وتحليل نصوصه، دار قطري بن الفجاءة للنشر والتوزيع، الدوحة.

- مبارك، زكي، النثر الفني في القرن الرابع، دار الجيل، بيروت.

- مخلوف، عبدالرؤوف، ١٩٨١، من قضايا اللغة والنقد والبلاغة، مكتبة الفلاح، الكويت.

- الحمصي، نعيم، ١٩٨٠، فكرة اعجاز القرآن منذ البعثة النبوية حتى عصرنا الحاضر، ط٢، مؤسسة الرسالة، بيروت.

- شرف، حفني محمد، ١٩٧٠، اعجاز القرآن البياني بين النظرية والتطبيق، المجلس الأعلى للشؤون الاسلامية، مصر.

- أبو علي، محمد بركات، ١٩٨٣، في اعجاز القرآن الكريم، ط١، مؤسسة الخافقين ومكتبتهما.

- حويش، عمر الملا، ١٩٧٢، تطور دراسات اعجاز القرآن وأثرها في البلاغة العربية، مطبعة الأمانة.

- الحناوي، المحمدي عبدالعزيز، ١٩٨٤، دراسات حول الاعجاز البياني في القرآن، ط١، دار الطباعة المحمدية.

- الراجحي، شرف الدين، ١٩٩١، الابتداء بالنكرة في القرآن الكريم، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية.

- عامر، فتحي أحمد، ١٩٧٤- ١٩٧٥، بلاغة القرآن بين الفن والتاريخ دار النهضة العربية، القاهرة.

- السيد، شفيع، ١٩٨٧، البحث البلاغي عندالعرب: تأصيل وتقييم، دار الفكر العربي، القاهرة.

- شرشر، محمد حسن، ١٩٨٧، دراسات بلاغية في القرآن والحديث الشريف، دار الطباعة المحمدية، القاهرة.

- شيخون، محمود السيد، ١٩٨٤، الاستعارة: نشأتها تطورها أثرها في الأساليب العربية، ط٢، الكليات الأزهرية، القاهرة.

- أبو علي، محمد بركات، ١٩٨٦، مقدمة في دراسة البيان العربي، دار الفكر للنشر والتوزيع، عمان.

- عبدالرحيم، عبدالجليل، ١٩٨١، لغة القرآن الكريم، ط١، مكتبة الرسالة الحديثة.

- القاسمي، محمد جمال الدين، ١٩٩٤، تفسير القاسمي المسمى محاسن التأويل، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي، ط٢، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت.

- رضا، محمد رشيد، ١٩٧٣، تفسير القرآن الكريم، الشهير بتفسير المنار، ط٢، دار المعرفة، بيروت.

- بدوي، أحمد، ١٩٥٠، من بلاغة القرآن، ط٢، مكتبة نهضة مصر ومطبعتها.

- لاشين، عبدالفتاح، ١٩٧٨، بلاغة القرآن في آثار القاضي عبدالجبار وأثره في الدراسات البلاغية، دار الفكر العربي، القاهرة.

- الخطيب، عبدالكريم، ١٩٧٥، اعجاز القرآن في دراسات السابقين، ط٢، دار المعرفة للطباعة والنشر.

- زيتون، علي مهدي، ١٩٩٢، اعجاز القرآن وأثره في تطور النقد الأدبي من أول القرن الخامس إلى نهاية القرن السابع، ط١، دار المشرق.

- الجويني، مصطفى الصاوي، ١٩٥٩، منهج الزمخشري في تفسير القرآن وبيان اعجازه، دار المعارف، مصر.

- الجندي، درويش، ١٩٦٩، النظم القرآني في كشاف الزمخشري، مطبعة نهضة مصر.

- أبو موسى، محمد حسنين، البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري وأثرها في الدراسات البلاغية، دار الفكر العربي، القاهرة.

- الحوفي، أحمد ،١٩٦٦، الزمخشري، ط١، دار الفكر العربي.

- شرف، حفني محمد، الصور البديعية بين النظرية والتطبيق، مكتبة الشباب.

- عتيق، عبدالعزيز، ١٩٧٤، علم البديع، دار نهضة مصر، بيروت.

- نحلة، محمود أحمد، ١٩٨١، لغة القرآن الكريم في جزء عمّ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت.

- موسى، أحمد ابراهيم، ١٩٦٩، الصبغ البديعي في اللغة العربية، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة.

- حسين، عبدالقادر، ١٩٨٣، فن البديع،ط١، دار الشروق.

- علام، عبدالواحد، ١٩٩٢، البديع بين القيمة والمصطلح، مكتبة الشباب، مصر.

- الجويني، مصطفى الصاوي، ١٩٩٣، البديع لغة الموسيقى والزخرف، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية.

- هلال، ماهر مهدي، ١٩٨٧، فخر الدين الرازي بلاغياً، دار الحرية للطباعة، بغداد.

- عبدالحميد، محسن، ١٩٧٤، فخر الدين الرازي مفسراً، دار الحرية للطباعة، بغداد.

- فريد، فتحي عبدالقادر، ١٩٨٤، فنون البلاغة بين القرآن الكريم وكلام العرب، مكتبة النهضة المصرية.

- الشرقاوي، عفت، ١٩٨١، بلاغة العطف في القرآن، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت.

- أبو ستيت، الشحات محمد، ١٩٩١، مقاييس البلاغيين في فصاحة الكلمة، ط١، مطبعة الأمانة، مصر.

- الجويني، مصطفى الصاوي، ١٩٨٣، جماليات المضمون والشكل في الاعجاز القرآني منشأة المعارف، الاسكندرية.

- حسين، عبدالقادر، ١٩٨٤، فن البلاغة، ط٢، عالم الكتب، بيروت.

- أبو علي، محمد بركات، ١٩٨٣، فصول في البلاغة، ط١، دار الفكر للنشر والتوزيع، عمان.

- أبو علي، محمد بركات، ١٩٨٤، دراسات في البلاغة، ط١، دار الفكر للنشر والتوزيع، عمان.

- الرافعي، مصطفى صادق، ١٩٩٠، اعجاز القرآن والبلاغة النبوية، دار الكتاب العربي، بيروت.

- المطعني، عبدالعظيم، ١٩٩٢، خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية، مكتبة وهبة، مصر.

- الرافعي، مصطفى صادق، ١٩٤٠، تاريخ آداب العرب، تحقيق محمد سعيد العريان، ط٢، مطبعة الاستقامة.

- أمين، أحمد، ١٩٦٣، النقد الأدبي، ط٣، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة.

- خليل، السيد أحمد، ١٩٦٨، المدخل إلى دراسة البلاغة العربية، النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت.

- عبدالرحمن، عائشة، الاعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق، دار المعرفة، مصر.

- قحطان، رشدي عليان وعبد الرحمن الدوري وكاظم فتحي الراوي، ١٩٨٠، علوم القرآن، مؤسسة دار الكتب للطباعة والنشر.

- أبو عودة، عودة، ١٩٩٦، شواهد في الاعجاز القرآني، ط١، دار آفاق للنشر والتوزيع، عمان.

- صالح، سعدالدين السيد، ١٩٩٣، المعجزة والاعجاز في القرآن، ط٢، دار المعارف، مصر.

- رسلان، صلاح الدين بسيوني، ١٩٨٥، القرآن الحكيم رؤية منهجية جديدة لمباحث القرآن الكريم، نهضة الشرق، القاهرة.

- الخولي، أمين، ١٩٦١، مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب، ط١، دار المعرفة، مصر.

- قطب، سيد، ١٩٧١، في ظلال القرآن، ط٧، دار احياء التراث العربي، بيروت.

- الخالدي، صلاح عبدالفتاح، ١٩٨٦، المنهج الحركي في ظلال القرآن، ط١، دار المنارة للنشر والتوزيع، السعودية.

- الخالدي، صلاح عبدالفتاح، ١٩٨٣، نظرية التصوير الفني عند سيد قطب، ط١، دار الفرقان.

- دراز، محمد عبدالله، ١٩٥٧، النبأ العظيم: نظرات جديدة في القرآن، دار القلم، الكويت.

- الصابوني، محمد علي، ١٩٧٠، التبيان في علوم القرآن، دار الارشاد للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.

- البهي، محمد، ١٩٨٦، نحو القرآن، ط٢، مكتبة وهبة ومطابع المختار.

- عَرجُون، محمد صادق، ١٩٦٦، القرآن العظيم: هدايته واعجازه في أقوال المفسرين، مكتبة الكليات الأزهرية، مصر.

- قطب، سيد، ١٩٦٥، التصوير الفني، دار المعارف، مصر.

- أبو زهرة، محمد، ١٩٧٠، المعجزة الكبرى، دار الفكر العربي.

- الزرقاني، محمد عبدالعظيم، مناهل العرفان في علوم القرآن، دار الفكر.

- الدباغ، مصطفى، ١٩٨٥، وجوه الاعجاز القرآني، ط٢، مكتبة المنار، الأردن.

- أبو ستيت، الشحات محمد، ١٩٩١، بحوث في البلاغة والنقد، ط١، مطبعة الأمانة، مصر.

- عبدالباقي، محمد فؤاد، ١٩٨٦، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، دار الحديث، القاهرة.

- السامرائي، ابراهيم، ١٩٨٤، من بديع لغة التنزيل، ط١، دار الفرقان، عمان ومؤسسة الرسالة، بيروت.

- الحوفي، أحمد، ١٩٨٧، معاني السماء والأرض في القرآن الكريم، مؤسسة الخليج العربي، القاهرة.

- الباليساني، محمد طه، القول المنصف في تفسير سورة يوسف، مطبعة وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، بغداد.

- فريد، فتحي عبدالقادر، ١٩٨٥، من أخلاق القرآن وبلاغته في سورة النور، ط١، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة.

- موسى، حسن محمد، ١٩٦٦، قاموس قرآني، مطبعة خليل ابراهيم، الاسكندرية.

- نحلة، محمد أحمد، ١٩٨٨، دراسات قرآنية في جزء عم، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية.

- البقري، أحمد ماهر، ١٩٨٢، دراسات لغوية في القرآن، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية.

- شيخون، محمود السيد، ١٩٨٣، أسرار التكرار في لغة القرآن، ط١، مكتبة الكليات الأزهرية، مصر.

- البصير، محمد مهدي، ١٩٨٧، عصر القرآن، ط٣، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد.

- عبدالوهاب، أحمد، ١٩٨٠، اعجاز النظام القرآني، ط٢، مطبعة غريب، مصر.

- السعدي، عبدالرحمن بن ناصر، ١٩٨٢، القواعد الحسان لتفسير القرآن، مكتبة المعارف، الرياض.

- فياض، محمد جابر، ١٩٨٨، الأمثال في القرآن، ط١، دار الشؤون الثقافية، بغداد، وزارة الثقافة والإعلام.

- الصغير، محمد علي، ١٩٨١، الصورة الفنية في المثل القرآني: دراسة نقدية وبلاغية، دار الرشيد للنشر الجمهورية العراقية وزارة الثقافة والإعلام.

- الميداني، عبدالرحمن حسن، ١٩٨٠، الأمثال القرآنية، دراسة وتحليل وتصنيف ورسم لأصولها وقواعدها ومناهجها، ط١، دار القلم، دمشق وبيروت.

- حسين، محمد الخضر، ١٩٧١، بلاغة القرآن، جمع وتحقيق علي رضا التونسي، القاهرة.

- القطان، مناع، ١٩٩٠، مباحث في علوم القرآن، ط٧، مكتبة وهبة، مصر.

- شعراوي، محمد متولي، ١٩٨٨، معجزة القرآن، مكتبة التراث الاسلامي، مصر.

- الطائي، كمال الدين، ١٩٧١، موجز البيان في مباحث القرآن، مطبعة سلمان الأعظمي، بغداد.

- طاحون، أحمد بن محمد، ١٩٩٠، أمثال ونماذج بشرية من القرآن العظيم، هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، مصر.

- رمضان، أحمد فتحي، ١٩٨٨، الاستعارة في القرآن، رسالة ماجستير جامعة الموصل، العراق، قسم اللغة العربية وآدابها.

- لاشين، عبدالفتاح، ١٩٨٥، البيان في ضوء أساليب القرآن، ط٢، دار المعارف، مصر.

- أبو حمدة، محمد علي، ١٩٨٣، من أساليب البيان في القرآن، ط٢، مكتبة الرسالة الحديثة، عمان.

- الأطرقجي، واجدة مجيد، ١٩٧١، التشبيهات القرآنية والبيئة العربية، دار الحرية للطباعة، بغداد.

- الحسناوي، محمد، ١٩٨٦، الفاصلة في القرآن، ط٢، المكتب الإسلامي، بيروت ودار عمار، عمان.

- لا شين، عبد الفتاح، ١٩٨١، من أسرار التعبير في القرآن الكريم: الفاصلة القرآنية، دار المريخ، الرياض.

- حفني، عبد الحليم، ١٩٨٧، أسلوب السخرية في القرآن الكريم، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

- حفني، عبد الحليم، ١٩٩٢، التصوير الساخر في القرآن الكريم، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

- أبو شهبة، محمد بن محمد، ١٩٨٣، تفسير سورة الواقعة، صور من الاعجاز البياني وأحكام المعاني، ط١، عالم المعرفة، جدة.

- المعلمي، يحيى عبد الله، ١٩٨٧، كلمات قرآنية أو مفردات القرآن، دار المعلمي للنشر، الرياض.

- البقري، أحمد ماهر، ١٩٨٩، أساليب النفي في القرآن، المكتب العربي الحديث.

- أبو حمدة، محمد علي، ١٩٩٠، في التذوق الجمالي للآيات الثلاثين خواتيم سورة البقرة، ط١، مكتبة الأقصى، عمان.

- أبو الرضا، سعد، ١٩٨٤، البلاغة العربية بين القيمة والمعيارية، ط١، حقوق الطبع للمؤلف.

- أبو شادي، مصطفى عبد السلام، ١٩٩٢، الحذف البلاغي في القرآن الكريم، مكتبة القرآن للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة.

- شيخون، محمود السيد، ١٩٨٣، أسرار التقديم والتأخير في لغة القرآن، ط١، مكتبة الكليات الأزهرية.

- عبده، محمد، تفسير جزء عم، مطابع الشعب.

- العمري، أحمد جمال، ١٩٦٨، دراسات في التفسير الموضوعي للقصص القرآني، ط١، مكتبة الخانجي، القاهرة.

- بلتاجي، محيي الدين، ١٩٨٧، دراسات في التفسير وأصوله، ط١، مكتبة الهلال بيروت ودار الثقافة، الدوحة.

- الشرقاوي، عفت، ١٩٨٠، قضايا إنسانية في أعمال المفسرين، دار النهضة العربية، بيروت.

- عبده، محمد، ١٩٦٩، مشكلات القرآن الكريم، وتفسير سورة الفاتحة مع مقدمة في التفسير وثلاثة مقالات، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت.

- الذهبي، محمد حسين، ١٩٨٥، التفسير والمفسرون، ط٣، مكتبة وهبة، مصر ومطابع المختار الإسلامي، مصر.

- قطب، سيد، ١٩٦١، مشاهد القيامة في القرآن، دار المعارف، مصر.

- شحاته، عبد الله، ١٩٨٦، أهداف كل سورة ومقاصدها في القرآن الكريم، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

- شحاته، عبد الله، ١٩٨١، التفسير بين الماضي والحاضر، دار بو سلامة للطباعة والنشر والتوزيع، تونس.

- المبارك، محمد، ١٩٧٣، دراسة أدبية لنصوص من القرآن، ط٤، دار الفكر، مكة المكرمة.

- عبد الرحمن، عائشة، ١٩٦٢، التفسير البياني للقرآن الكريم، دار المعارف، مصر.

- عبد الرحمن، عائشة، ١٩٧٢، من أسرار العربية في البيان محاضرة ألقيت في جامعة بيروت ثم نشرت في كتيب.

- عبده، محمد، ١٩٨٠، دروس من القرآن، ط١، دار إحياء العلوم، بيروت.

- نوفل، أحمد، ١٩٨٩، سورة يوسف دراسة تحليلية، ط١، دار الفرقان للنشر والتوزيع، عمان.

- فياض، محمد جابر، ١٩٨٥، التورية وخلو القرآن منها، ط١، دار المنارة للنشر: جدة.

- باجودة، حسن محمد، ١٩٧٩، تأملات في سورة محمد عليه السلام، دار الاعتصام للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة.

- شعراوي، محمد متولي، ١٩٩٣، تفسير سورة عبس، ط٢، دار بو سلامة للطباعة والنشر والتوزيع، تونس.

- الحارثي، عبد الوهاب أبو صفية، ١٩٨٩، دلالة السياق نهج مأمون لتفسير القرآن، ط١، حقوق الطبع محفوظة للمؤلف.

- شعراوي، محمد متولي، ١٩٨٠، المنتخب من تفسير القرآن، دار العودة، بيروت.

- القضماني، محيي الدين حسن، ١٩٩٠، مصطلحات اسلامية، ط١، المكتب الاسلامي، بيروت.

- ضيف، شوقي، ١٩٧١، سورة الرحمن وسور قصار: عرض ودراسة، دار المعارف، مصر.

- حسين، عبد القادر، ١٩٩١، أضواء بلاغية على جزء الذاريات، دار المنار.

- أبو موسى، محمد، ١٩٧٦، من أسرار التعبير القرآني: دراسة تحليلية لسورة الأحزاب، دار الفكر العربي.

- أنيس، ابراهيم، ١٩٦٦، من أسرار اللغة، ط٢، مكتبة الأنجلو المصرية.

- الدبل، محمد بن سعد، ١٩٨١، النظم القرآني في سورة الرعد، عالم الكتب ودار النصر للطباعة الاسلامية.

- باجودة، حسن محمد، ١٩٨٢، تأملات في سورة الحاقة، دار بو سلامة للطباعة والنشر والتوزيع، تونس.

- شحاتة، عبد الله محمود، ١٩٨٢، تفسير سورة النور، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

- الصعيدي، عبد المتعال، ١٩٩٢، النظم الفني في القرآن، مكتبة الآداب، القاهرة.

- الحارثي، عبد الوهاب أبو صفية، ١٩٨٩، معالم النصر في سورة الحشر، ط١، حقوق الطبع للمؤلف، عمان. ٤٧٢٩٠٤

- الحسني، أبو الفضل عبد الله محمد، ١٣٨٥هـ، جواهر البيان في تناسب سور القرآن، مكتبة القاهرة.

- حجازي، محمد محمود، ١٩٧٠، الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم، دار الكتب الحديثة.

- عبد الجليل، محمد بدري، ١٩٨٤، براعة الاستهلال في فواتح القصائد والسور، ط٢، المكتب الاسلامي.

- فرشوخ، محمد أمين، ١٩٩٠، المدخل الى علوم القرآن والعلوم الإسلامية، ط١، دار الفكر العربي، بيروت.

- أمير، عبد العزيز، ١٩٨٥، تفسير سورة البقرة، ط١، دار الفرقان للنشر والتوزيع، عمان، ومؤسسة الرسالة، بيروت.

- البقري، أحمد ماهر، ١٩٧١، يوسف في القرآن، مؤسسة الثقافة الجامعية، الاسكندرية.

- الصالح، صبحي، ١٩٦٥، مباحث في علوم القرآن، ط٤، دار العلم للملايين، بيروت.

- هليل، جلال أبو زيد، ١٩٩١، ظاهرة الحركة في القرآن الكريم، رسالة دكتوراة، جامعة عين شمس، كلية الألسن، مصر.

- مخلوف، حسنين محمد، ١٩٧٠، القرآن الكريم ومعه صفوة البيان لمعاني القرآن، دار الفكر.

- خليل، يوسف، دراسات في القرآن والحديث، مكتبة غريب، القاهرة.

- البقري، أحمد ماهر، ١٩٧٦، في رحاب القرآن، مؤسسة الجامعة، الاسكندرية.

- أبو علي، محمد بركات، ١٩٨٤، في الأدب والبيان، دار الفكر للنشر والتوزيع، عمان.

- أبو ستيت، الشحات محمد، ١٩٩١، خصائص النظم القرآني في قصة إبراهيم عليه السلام، ط١، مطبعة الأمانة، مصر.

- الدغامين، زياد خليل، ١٩٩٥، منهجية البحث في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ط١، دار البشير، عمان.

- القصيبي، محمود زلط، ١٩٧٨، قضايا التكرار في القصص القرآني، ط١، دار الأنصار، مصر.

- خلف الله، محمد، ١٩٦٥، الفن القصصي في القرآن، ط٣، مكتبة الأنجلو المصرية ومطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر.

- طبارة، عفيف عبد الفتاح، ١٩٨٢، اليهود في القرآن، ط٩، دار العلم للملايين، بيروت.

- الخطيب، عبد الكريم، ١٩٧٤، القصص القرآني في منطوقه ومفهومه دراسة تطبيقية لقصتي آدم ويوسف، دار الفكر العربي، ومطبعة المدني، القاهرة.

- عباس، فضل حسن، ١٩٨٧، القصص القرآني، ايحاؤه ونفحاته، ط١، دار الفرقان، عمان.

- نقرة، التهامي، ١٩٧١، سيكولوجية القصة في القرآن، الشركة التونسية للتوزيع.

- أبو طالب، سموع أحمد، ١٩٨٥، الدراسة القرآنية الموضوعية، ط١، دار الطباعة المحمدية، القاهرة.

- حسن، محمود السيد، ١٩٨٢، روائع الاعجاز في القصص القرآني: دراسة في خصائص الأسلوب القصصي المعجز، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية.

- حسان، تمام، ١٩٩٣، البيان في روائع القرآن: دراسة لغوية أسلوبية للنص القرآني، ط١، عالم الكتب.

- عبيد، منصور الرفاعي، ١٩٧٨، أهداف القصة في القرآن الكريم، ط١، دار الفرقان للطباعة، القاهرة.

- فريد، فتحي عبد القادر، ١٩٨٥، من بلاغة القرآن الكريم في سورة يوسف عليه السلام، ط١، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة.

- الظواهري، كاظم، ١٩٩١، بدائع الاضمار القصصي في القرآن الكريم، ط١، دار الصابوني ودار الهداية.

- البستاني، محمود، ١٩٨١، دراسات فنية في التعبير القرآني، ط١، مطابع الكرمل الحديثة، بيروت.

- حسن، محمد كامل، ١٩٧٠، القرآن والقصة الحديثة، ط١، دار البحوث العلمية.

- أبو حمدة، محمد علي، ١٩٨٥، في التذوق الجمالي لسورة يوسف، دار البشير، عمان.

- الطروانة، سليمان، ١٩٩٢، دراسة نصية (أدبية) في القصة القرآنية، ط١، حقوق الطبع للمؤلف.

- المجذوب، محمد، ١٩٩٢، نظرات تحليلية في القصة القرآنية، ط٥، دار الشواف للنشر والتوزيع، القاهرة.

- الدجاني، زاهية، ١٩٩٣، أحسن القصص بين اعجاز القرآن وتحريف التوارة، ط١، دار التقريب بين المذاهب الإسلامية، بيروت.

- بركة، عبد الغني، ١٩٨٣، أسلوب الدعوة القرآنية بلاغة ومنهاجاً، ط١، مكتبة وهبة، مصر.

- بلتاجي، محمد، ١٩٧٤، بحوث اسلامية في التفسير والحديث وأصول التشريع، مكتبة الشباب، مصر.

- الدراويش، حسين أحمد علي، ١٩٨٦، النظم القرآني في سورة البقرة، دراسة في الدلالة والأسلوب، رسالة دكتوراة، الجامعة الأردنية، كلية الآداب، قسم اللغة العربية.

- بوريقة، التيجاني، ١٩٩٠، حروف الجر في سورة البقرة، أداة من أدوات المعاني، تونس.

- زايد، عبد الرزاق أبو زيد، ١٩٨٩، المصطلحات البلاغية والنقدية في كتاب الطراز للعلوي، مكتبة الشباب.

- مراد، وليد محمد، ١٩٨٣، نظرية النظم وقيمتها العلمية في الدراسات اللغوية عند عبد القاهر الجرجاني، ط١، دار الفكر، دمشق.

- الصباغ، محمد، ١٩٧٤، لمحات في علوم القرآن واتجاهات التفسير، المكتب الإسلامي، بيروت.

- الشنقيطي، محمد الأمين، ١٩٦٧، أضواء البيان في ايضاح القرآن بالقرآن، مطبعة المدني.

- قطب، محمد، ١٩٨٠، دراسات قرآنية، ط٢، دار الشروق.

- الداية، فايز، البلاغة العربية، البيان والبديع، منشورات جامعة حلب.

- القلقيلي، عادل عبد الله، ١٩٨٥، كشوف جديدة في اعجاز القرآن الكريم، ط١، دار عمار، عمان.

- السامرائي، ابراهيم، ١٩٨٣، من أساليب القرآن، ط١، دار الفرقان، ومؤسسة الرسالة، بيروت.